معالم

مجلة نصف سنوية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر

- اللغة.. الصفحة والفراغ.
- بجاية ميناء مغاربي (1067-1510).
- طبيعة المجتمع في فكر مالك بن نبي التربوي.
- تعليمية اللغات والبحث التجريبي .
- الترجمة في ظلّ النظريات الاستدلالية.
- تدريس العربية لطلاب الترجمة : الأهداف والمنهجية.
- القراءة بوصفها تلفظ.
- التجميلية الهندية.
- معمار القرن العشرين .
- المسيرة العظمى للإنسان.. وكيف تمّ إعمار الكرة الأرضية.
- مبتور الساقين .
- ترجمة الشعر بين المبنى والمعنى شعر محمد إقبال نموذجًا.
- البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة .
- اللّغات أصلها واحد.
- البلاستيك : قصة حبّ سامة .
- علوم وتكنولوجيا.
- The Translation of Subject Ellipsis From English into Arabic : A Study Based on Parallel Narrative Corpora.

العدد السابع - السداسي الثاني 2016

معالم

مجلة نصف سنوية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر

العـدد السابع، السداسي الثاني

2016

مسؤول النشر

أ. د. صالح بلعيد

رئيس المجلس

رئيس التحرير

د. محمد قمـاري

هيئة التحرير

أ. موسـى زمولـي

د. عمر نقيب

د. عبدالقادر هني

أ. مهندس عبدالكريم شريفي

الهـيئة الاستشـارية

محمد بن عمرو الزرهوني

خولة طالب الإبراهيمي

عبدالقادر بوزيدة

محمد هناد

رشيد بن مالك

أحمد برغدة

بوزيد بومدين

إنعام بيوض

السعيد بوطاجين

مختار نويوات

المراسلات

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت، الجزائر.

الهاتف:25 /230724 21 (213+)

الناسوخ: 230707 21 (213+)

ص. ب: 575 ديدوش مراد، الجزائر.

البريد الإلكتروني:

maalem.csla@gmail. com

رقم الإيداع: 6012 -2009

الترقيم الدولي الموحد للمجلات (ر. د. م. د) :

2170-0052

معايير النشر :

- أن يتقيّد المترجم بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- أن تكون الأعمال غير منشورة من قبل. (ملاحظة: المقالات التي تَرِد إلى المجلة، لا تُرَدّ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.)
- أن ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو مدير التحرير على العنوان التالي:

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت، الجزائر.

ص. ب: 575 ديدوش مراد، الجزائر.

الـفـهـرس

كلمـــة العـــدد

اللغة.. الصفحة والفراغ أ. عزالدين ميهوبي (رئيس المجلس السابق، وزير الثقافة الحالي)..... 7

فكر ودراسات

بجاية ميناء مغاربي (1067- 1510) دومنيك فاليرين
ترجمة أ. علاوة عمارة..... 15

طبيعة المجتمع في فكر مالك بن نبي التربوي إعداد وترجمة: د. عمر نقيب..... 27

ترجمة ومناهج التعليم

تعليمية اللغات والبحث التجريبي موغيال قروسبوا
ترجمة د. عبدالقادر هني والأستاذة آسيا قرين..... 43

الترجمة في ظلّ النظريات الاستدلالية
ترجمة: أ. الجوهر خالف..... 57

تدريس العربية لطلاب الترجمة : الأهداف والمنهجية
حسينة لحلو 61

القراءة بوصفها تلفظ
ترجمة : منى بدري..... 75

تاريخ وعلوم

التجميلية الهندية بقلم : **كلود ليڤي-** ستروس
ترجمة : د. جمال الدين **ڤوعيش**..... 87

معمار القرن العشرين دونيس شارب Dennis SHARP
ترجمة : مختار بن عياش..... 93

المسيرة العظمى للإنسان.. وكيف تم إعمار الكرة الأرضية
تعريب: موسى زمولي..... 105

أدب وفنون

مبتور الساقين غي دي موبسان
ترجمة: أسماء بن مالك/ مراجعة: محمد قماري..... 117

ترجمة الشعر بين المبنى والمعنى شعر محمد إقبال نموذجًا
الدكتور محمد قماري..... 123

متابعات

- البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة 133

- اللّغات أصلها واحد 135

Les Langues, Une seule origine

- البلاستيك : قصة حب سامة .....PLASTIC : A..... 136

Stor Toxic Love

- علوم وتكنولوجيا..... 139

The Translation of Subject Ellipsis From English into Arabic :
A Study Based on Parallel Narrative Corpora 03
Ouissam TOUATI

كلمة العَدد

اللغة.. الصفحة والفراغ

بقلم: عزالدين ميهوبي
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
السابق، وزير الثقافة الحالي.

يقول عالم اللسانيات نوعام تشومسكي Noam Tchomsky **«أستبعد أن يكون العقل صفحة بيضاء وقت الولادة»**، ويقول أمبرتو إيكو: «بدأت الكتابة طفلا في التاسعة. وأذكر أنني كتبت نصا من أربعين صفحة، وجعلت من «الرزنامة» بطلي، الذي أنشأ حضارة على جزيرة متخيّلة، وأنشأ معها لغة، وديانة، وطقوسا.. وفي النهاية، قلت أرجو منكم أن تسامحوني، لقد كذبت عليكم. لستُ إلها، ولا خالقا.. كل شيء خاطئ». [1]

أي أنّ هناك بُنى خاصة بالاكتساب اللّغوي، وفطريتها مرتبطة بالطابع الفريد للغة البشرية، ويضيف تشومسكي «أيّا كانت مستويات ذكاء الأفراد، فإنه يستحيل تفسيرُ عمل صعب ومعقد على غير العادة مثل مهارة استخدام إحدى اللغات، وتمكنهم في سن الطفولة وفي زمان قصير جدا من تعلم تلك اللّغة فيما بعد فحسب، ودون تلقي تعليم منظم من قبل في هذا الموضوع». **فالعقل، في منظور تشومسكي، يتعلم اللّغة عندما يلتقي بها**، أي ترجمة للآية الكريمة (خلَق الإنسان. علّمه البيان) [2]، [3] أما غريمه الفكري السويسري بياجي فيرى بأن **بنى المعرفة عامة تجد أساسها في بنى بيولوجية، ولكن لا توجد وراثيًا أي أنها بنية مخصصة لاكتساب الوظيفة البشرية النوعية التي هي اللّغة.** [4] فالخلاف يظل قائما بين من يقول بالفطرة، ومن يجزم بأن اللّغة يتم تحصيلها بالاكتساب، [5] فإن النظريات والسّجال حول نشوء اللّغة

---

[1]- حوار مع ليكسبريس الفرنسية، 22 أبريل 1999.

[2]- سورة الرحمن؛ الآيتان 4- 3.

[3]- The Quran: Unchallengeable Miracle, By Caner Taslaman

[4]- الرابط http://www.gulfkids.com

[5]- اكتشفت الباحثة اللغوية النفسية الألمانية آنا ماريا (جامعة بون) وزوجها فالتر سيندلماير العالم بشؤون الاتصال (جامعة برلين) أن وأوأة الأطفال في الشهر الثامن من عمرهم تحتوي مقاطع مهمة أطلقوا عليها اسم «الوأوأة الكنسية» واعتبراها حجر الأساس في تطور لغة الإنسان. ويرى الباحثان أن «القدرة على تعلم اللغة» هي الصفة التي يتناقلها الانسان وراثيا وليست «اللغة» بحد ذاتها كما هو سائد بين العلماء في العالم حتى الآن. ولهذا فقد دأبا على دراسة طريقة تطور اللغة عند الأطفال الرضع منذ ولادتهم حتى عمر 18 شهرا، وجمعا كمّا من التسجيلات الصوتية لـ18 رضيعا، وعملا على تحليلها ونقلها إلى لغة بشرية حسب الأبجدية العالمية المعترف بها وباستخدام تقنيات متطورة=.

وماهيتها، ببعديها العلمي والفلسفي لا تتوقف. ويذهب بعض العلماء إلى أنّ للغة تأثيرًا على الجانب الصحّي، ومقاومة الأمراض، فقد أفادت وسائل الإعلام البريطانية عن الباحثة إيلين بياليستوك، التي قادت فريق البحث بجامعة يورك، تورونتو، قولها «**كلما توغّلتَ في تعلّم اللغة الأجنبية، تزايدت فرصكَ في تأخير الإصابة بمرض الزهايمر (خرف الشيخوخة)**». وقالت «إنّ الدراسة حول ثنائية اللّسان أو تعدّد اللغات تركزت على صغار الأطفال. فقد ظل العلماء يتساءلون عن السبب في أن التحدث إليهم بلغتين يعلمهم إتقانهما في الفترة نفسها التي يتعلّم بها معظم بقية الأطفال لغة واحدة. وخلصت الدراسة إلى أن أدمغة الأطفال الذين يتعلمون لغتين في الوقت نفسه تصبح مرنة، وأكثر قدرة من غيرها على التركيز على شيئين مختلفين في الآن نفسه. وبتقدمهم في العمر تصبح أدمغتهم أكثر فعالية من نطاقات أولئك الذين يتحدثون لغة واحدة وحسب». [6]

وذهبت دراسة أخرى قام بها علماء سويديّون إلى «**أنّ تعلم لغة أجنبية يزيد حجم الدماغ**» وأنّ تعلم لغة أجنبية يمارس تأثيرًا ملحوظا على الدماغ، «وأظهر تصوير عمل الدماغ بالرنين المغناطيسي أن مناطق معينة من أدمغة طلاب اللغات ازدادت حجمًا، في حين لا يطرأ أيّ تغيير على أدمغة الطلاب الآخرين». وتشير الدّراسة إلى أنّ تأكيد العلماء «أنّ الأشخاص الذين يتكلمون أكثر من لغة بطلاقة يتمتعون بذاكرة أقوى، ويكونون أكثر إبداعا من الناحية المعرفية، وأكثر مرونة ذهنيًا من الناطقين بلغة واحدة فقط». بينما تشير دراسات كندية إلى أن الناطقين بلغة واحدة يُصابون بمرض الزهايمر قبل الذين يتكلمون أكثر من لغة. [7]

وكانت مجلّة العلم الجديد New Science أشارت في دراسة لها إلى «أنّ الأبحاث التي أجريت على مرضى الزهايمر أظهرت أنهم يشعرون بتحسن كبير بعد إخضاعهم للعلاج بالموسيقى، وأنّه يؤدّي إلى التغلب على الرواسب النفسية الناجمة عن تعرض أشخاص، خصوصًا الأطفال، للاعتداء عليهم». [8]

ومع كلّ هذه البحوث العلميّة، يبقى السؤال المحوري هو **هل اللّغة خلقٌ أم ابتكار؟** أي هل نشأت مع الإنسان أم أنها جاءت بعد أن اكتشف الإنسان حاجاته وصار يفكر في أداة للتواصل؟ وسنعرض لأهم الأفكار التي وردت في هذا المجال، من مؤيد لخلقها ونشوئها بإرادة إلهية، ومن يرى غير ذلك من أنّ للإنسان يدًا في ظهور اللّغة، وإفراد مساحة للغات المبتكرة التي سعى، أشخاص طبيعيون، إلى ابتكارها وطرحها كبديل

=وتوصلا إلى أن نغمات وطبقات وأوأة أو تأتأة الأطفال الرضع تنطبق منذ الشهر الثامن من حياتهم مع لغة الأبوين. والمفاجئ، حسب تصريح الباحثة، هو أن الرضع خزنوا مقاطع «الوأوأة الكنسية» في أدمغتهم كي يستخدموها لاحقا في تطوير لغتهم، إذ ظهرت هذه المقاطع الكنسية مجددا في سن 18 شهرا حينما يبدأ الطفل بمحاولة الحديث بشكل جاد. (المصدر: إيلاف، 18 يناير 2002).

[6]- صلاح أحمد، إيلاف، 19 فبراير 2011.

[7]- موقع إيلاف 6 سبتمبر 2014.

[8]- موقع إيلاف 3 أكتوبر 2014.

للغات الطبيعية، لتكون وسيلة للتواصل بين البشر، أي **سوبر/لغة**، ونعرض للأسباب التي أدت إلى نشوء هذا النوع من التفكير المزاحم لتجارب حققت تراكما تاريخيا طويلا.

حازت اللّغة مساحةً واسعة في تفكير اللغويين والمفكرين والفلاسفة وعلماء النفس والأنتربولوجيا، كونها ظاهرة جديرة بالتأمّل والتفكير، فمن نشوئها إلى ممارستها حتى اندثارها وموتها، إلى تفكيكها كفكرة وفعل وخطاب ونصّ، وأنشئت لذلك مراكز بحث، وأسست نظريات لغوية، وأصبح العالم يعيش على وقع المطالبة بحماية اللغات بعد أن تحوّلت إلى عناصر مشكّلة للهُويّة. فأي توصيف لهذه اللغة؟ سؤال طرحناه مرارًا في هذه الدراسة، وفي كلّ مرة تكون الإجابة مختلفة، وينظر إليها من زاوية متغيّرة، لكن الجواب النهائي لن يكون غدًا.

وظهرت كتبٌ عديدة تبحث في أصل اللغة، ونشوئها، ومصيرها. وحاول كثيرٌ من الباحثين إيجاد مسارات علميّة ونفسيّة لفكّ لغز اللغة، ولم تتوقف الأبحاث العلميّة على مدّ هؤلاء الخبراء اللغويين بمفاتيح جديدة، تجعلهم في كلّ مرة أقرب إلى بلوغ الجواب النهائي، إلاّ أنّ سرّ اللّغة يبقى مطروحا بحدّة.

وقد بلغَ حدُّ التفكير إلى طرح سؤال جوهريّ، مفادُه «هل نفكّر بواسطة الكلمات أم بواسطة الصوّر؟».

لقد جزم الفلاسفة دوما بأن **اللغة هي التي تصنع الفكر**. فبغير الكلمة لا يوجد مفهوم ولا توجد فكرة واضحة. فهل تكون هذه الفكرة الدّارجة، بكل بساطة، خاطئة؟ «ويبحث العلماء في المسألة طويلا، فتتفتّح عن ذلك أسئلة فرعيّة لكنّها عميقة، وتطرح افتراضات منها: إذا كان **الفكر وليد اللّغة** فما الذي يحدث بالنسبة لأبكم أصمّ لا يتكلم أية لغة؟ وتأتي إجابة بعض العلماء مختلّة، فبعضهم [9] يعتقد أنّ الأصم الأبكم محرومٌ من اللغة، والحال أنّ الكل يعلم أن **الصمّ البكم يستعملون لغة إشارات لا تقل دقة وجودة وثراء عن اللغة المنطوقة**. علاوة على ذلك، يستطيع الصمّ البكم القراءة والكتابة وتبليغ تجاربهم مثلي ومثلكم».

ويمكن تلخيص العلاقة بين اللغة والصورة في أنّ «**الذهن حاضر واللغة متخلفة**»، فهناك تفكير من دون لغة، يصدر عادة عن محبوسي اللسان (الذين تعرّضوا لضرر دماغي فأضاعوا ملكة استعمال اللغة مؤقتا أو بصورة دائمة، إذْ أثبتت التجارب أنّ هؤلاء المحبوسين (..) استطاعوا أن يَرْوُوا كيف كانوا يفكرون دون لغة، وأن تعرض أدمغتهم للضرر لم يمنعهم من مواصلة التفكير. «**فاللغة ليست سوى أداة مناسبة إلى حدّ مَا، مخصّصة لتبليغ أفكارنا**. وهي تخضع إلى قواعد الهيكلة الداخلية التي لا تتوافق دائما مع طيّات التفكير الخاص. **والخدمة التي تقدمها اللغة هي أن تقيم جسورا بين العوالم الذهنية**. لكنها لا تستطيع أبدا أن تجعل هذه العوالم شفافة تماما بالنسبة لبعضها البعض». [10]

---

[9]- جورج ستينار (George Steiner) في الفصل الثالث من مؤلفه «الكتب التي لم أكتبها» (دار غاليمار).

[10]- أشيل واينبارغ Achille Weinberg، مجلة «الملفات الكبرى للعلوم الاجتماعية» مارس، أبريل 2008. ترجمة: محمد صدام.

ومن دون شك، فإنّ اللّغةَ، تبقى مسألة معقدة، من حيث إحصاء مفرداتها. فإذا أخذنا مثلاً، أن عدد اللغات، كما يقول بعض المصادر، بلغ 14500 لغة في العالم، قبل 500 عام (أي في العام 1500)، بقيَ منها النصف في العام 2000. والسؤال كم مفردة يمكن أن تحصى في مجموع هذه اللغات؟ إنّ العدَد سيكون بالملايين، **ولكنّ المفارقة هيَ أنّه كلّما انقرضت لغةٌ ولدتْ مفردات جديدة، والسّبب أنّ الثورة الصّناعية، أنتجت مُعجمًا جديدا، بفعلِ الابتكار التّقني وما يفرضُه من ابتكار مصطلحات جديدة، ضمن أنماطٍ لغويّة جديدة** (الانجليزية والفرنسيّة)، **ومع الثّورة الرّقميّة الهائلة، أخذَ المعجمُ اللّغويّ شكلاً آخرَ، يتمثل في إنتاج لُغةِ رموزٍ وإشاراتٍ وصُور**، لأنّ وتيرة الإنتاج التقني أكثر سرعة من إنتاج مصطلحات لما ينتج ويخترع ويبتكر في كل المجالات، التكنولوجيّة والعلميّة والاقتصاديّة، وكذا فيما يتعلّق بالعلوم الاجتماعية والإنسانية.

إنّ الإنسان على مدار تعاقب الأمم والحضارات، كان يجدّدُ عقله، بتغيير نمط حياته ووسائل إنتاجه، ويحقّق تراكمًا مختلفا. يقول الكاتبان أونشتاين وإبرليش في كتابهما «**عقل جديد لعالم جديد**» الصادر في العام 1994 يلزم أنْ يفهمَ الجميع الدّور المحتمل للتّطوّر الحضاري في تجاوز مخزون العقل، أن يفهموه كما يفهمون لغةَ حديثهم. **إنّ المعارفَ العلميّة، التي ساعدت في تفجير المشاكل المعاصرة قد أنجبت أيضًا قدرًا لا يبارى من المعرفة عن الطريقة التي يدرك بها الناس العالم ويفهمونه.**

هذا المخزون العقلي يمثّل التحدّي الحقيقي لمدى قدرة الإنسان في أن يوائم بين إنتاج المعرفة، وإنتاج اللغة، فالسّرعة التي تولّدت عن الثورة الرقميّة، كشفت أنّ الإنسان كلّما حقّق قدرا عاليًا من التطور والتنميّة، صارَ عاجزا عن التوصيف والتأريخ لذلك. لأنه يبتلعُ ذكاءه وعبقريّته.

يقول الخبير الاستشرافي تيري غودان Thierry Gaudin في كتابه القيّم **(2100، أوديسا الأنواع)** الصّادر في العام 1993: «تهدف اللّغة إلى الاتصال، وتهدف أيضا إلى التّواري عن الاتصال. **فجدران برلين الجديدة ماثلةٌ في الرؤوس. جدران من الكلمات، غير مرئية وممنوعة، تعوّض الحدود التي كانت قائمة**». ويضيفُ «إنّ علوم الاقتصاد والاجتماع والجيوسياسية تتوفّر على قاموس لغويّ خاص بها، يتضمّن آلاف الكلمات. وإنّ لغة كاملة مثل الفرنسية والانجليزية والتّامول والماندارين تتوفّر على حوالي ستين ألف كلمة. فالسيّارة الواحدة تتوفّر على ألفي مكوّن (قطعة)، وتضمّ أجنحة السّوق التجاري أكثر من عشرة آلاف مادة للاستهلاك. وأهمّ الأروقة التجارية تديرُ أربعمائة ألف نوع من السلع، والجردُ الخاص بقطع غيّار أسلحة الجيش الأمريكي يُحصي أربعة ملايين وخمسمائة ألف مكان. **إنّ وَصْفَةً واحدةً لمجموعة تقنيّة حديثة تتطلّبُ قرابة ستة ملايين مرجع، أي مائة مرّة ما يتوافّر عليه معجم لغة ما**. وإنّ تعقيدات الحياة وحدها هي ذاتُ سِعَة لا تقارن: بين خمسة ملايين وخمسة وثلاثين مليون نوع من الكائنات الحيوانية والنباتية، حسب تقديرات (التسعينيات). فالتقنية تعني أننا إزاء **لغة مفرطة**، تتخثّر داخلها أنصافُ مفردات، تمثّل بدورها حصونًا لغوية. إنّ اللّغات التقليديّة الثلاثة آلاف، المُتكلّم بها على الكرة الأرضية هي في حالة انقراض، وعشرات منها فقط، معترف بها عالميا، وبالتالي تراجع الأخرى إلى المستوى الثاني. وفي هذا الوقت فإن **اللّغة (المصطلح) التقنية تعرف انفجارا هائلا، بفعل تعدّد الاختصاص.**

يعتقد الباحث الفرنسي جورج ريو Georges RIEU[11] أنّه نجح في وضع أساس للغة المستقبل، بعد سنوات من التفكير والبحث، وتدخل ضمن «اللغات المخادعة» كتلك التي ابتدعها جورج أورويل في روايته «1984». وتتمثل هذه اللغة الجديدة في ابتكار أبجدية من 5000 حرف، تمثل رموزًا وصوّرًا بسيطة قادرة على تحقيق التواصل بشكل أسرع، وأنّها «لغة دون كلمات، أو قواعد نحويّة. لغة سريعة وقويّة وخلاقة؟» هي اللغة الفطرية في دماغنا. أطلق عليها اسم «**فلاش برين flash brain**»، أو اللغة الذّهنية ذات الطبيعة السمعيّة والبصريّة.

ويقرّ ريو بأن تصنيفه تعسفيّ بعض الشيء، وأنه سيواجه غضب اللغويين واللسانيين، ومع ذلك، فإنه يشدد على ضرورة وجود أداة رائعة للمنبوذين لغويّا: «هو نظام عالمي يتيح لكل فرد في العالم أن يستخدم شبكة الإنترنت على سبيل المثال. إنها ميزة الإبداع والخيال، إنّه يُربّي الدّماغ». وحتّى يواجه جورج ريو أيّ نفور أو رفض لفكرته، يقول «يمكن للفرنسيين أن يضحكوا، لكنّني على الأقلّ فعلتُ هذا من أجل الأطفال والصمّ والبكم».

في العام 2002 طُرح في الأسواق كتاب «**غريزة اللغة l'instinct du langage**» لمؤلفه اللغوي الكندي ستيفن بينكر Steven Pinker الذي يناقش نظريات تشومسكي التي توضح الأساس البيولوجي للغة، ويركز فيه على نظرية داروين التي تقول إنّ اللغة هي تكيّف إحيائي بيولوجي من أجل ممارسة الاتصال. ويقول تشومسكي أيضًا.[12] إنّه «من الواضح أنّ اللغة تُستخدمُ للاتصال، مثل الإيماءات أو طريقة اللباس لكن من الناحية الإحصائية وهذا هو المهم ، **فاللغة هي الأكثر استخدامًا في التفكير** والحوار الذاتي.. وأعتقد أنّ **اللغة صُمّمت من أجل التفكير**». ويرى بينكر بأنّ **اللغة هي طبيعة داخلية كانت دفينة أصلا داخل الإنسان**، ويحلل مسألة تطور اللغة من المنطقة الواقعة بين **الغريزة والسلوك المكتسب** بين الطبيعة والثقافة. ويبدأ بنيكر تحليلة بما يطلق عليه «**مورثات القواعد اللغوية**». ويفنّد بينكر ما يسمّيه **التاريخ الكوميدي للتحديد اللغوي وهو الاعتقاد بأن اللغة تشكل الفكر**، ويدلّل على ذلك بأمثلة من الموسيقى والرياضيات ونظرية العلاقات البشرية. كما يناقش بنيكر في هذا الكتاب التناغم بين العقل وسياق الواقع بعد أن استعرض الجوانب الخفيّة من اللغة ومناقشة كيفية تكوّن الكلمات والحاجة إليها وبنائها واستخداماتها. ويغلّبُ بينكر **قدرة العقل البشري على تطوير اللغة** على نظرية أن **اللغة في حد ذاتها هي تقود تطور العقل أو الفكر.**

---

[11]- مدير أبحاث في المركز الفرنسي للبحث العلمي CNRS والمتخصص في التكنولوجيا الدقيقة وعلم الذرة لمدة تفوق الثلاثين عامًا.

[12]- في حوار مع مجلة البحث la Recherche بتاريخ 01 يوليو 2010 عدد 443.

وعلى النقيض من ذلك اجتهد المفكّر اللبناني المثير للجدل حسن عجمي (1945- 2014) في كتابه: السوبر مستقبلية (الكون والعقل واللغة) [13] بقوله «**تتكوّن اللغة في المستقبل**. فإذا كانت اللّغة وسيلة للتواصل أو للتخاطب بين البشر - بما أنّ بعض البشر موجودون في المستقبل- إذن فاللغة تتكوّن في المستقبل، أي تأخذ ماهيتها في الزمن المستقبلي. أمّا إذا كانت اللّغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والرغبات - بما أنّ بعض الأفكار والرغبات تظهر في المستقبل- فاللّغة إذن تتشكّل في المستقبل. أمّا إذا كانت اللّغة كائنًا مجردًا تتشخّص في أصوات لها معان - بما أنّ اللّغة مجرّدة ولم تتشخّص كليًا في الماضي والحاضر- فمن المتوقع أن تتشخّص كليًا في المستقبل، وبذلك تكتسب اللغة جوهرها في المستقبل، أي **اللغة تتكوّن في المستقبل**». ويربط الكاتب اللغة بالعقل الذي بدوره يتكوّن في المستقبل. فـ«إذا كان العقل مجموعة وظائف معيّنة، فلابدّ أن يكون مجموعة ميول لاكتساب تلك الوظائف.. والميول قد لا تتحقق في الماضي والحاضر مما يدفعنا إلى القول إنّها تتحقق في المستقبل علمًا بأنّ المستقبل مفتوح على زمن لا متناه وقابل أن تتحقق فيه كل الممكنات. هكذا نجد أن أي تحليل للعقل يؤدّي إلى نتيجة أنّ العقل يتكوّن في المستقبل. **وبما أنّ اللغة تتكوّن في المستقبل، والعقل يتكوّن في المستقبل، والإنسان لغة وعقل، إذًا الإنسان يتكوّن في المستقبل**».

ومع هذا يبقى السؤال الذي حيّر علماء الأنتروبولجيا: أين وُلدت اللغة؟

منذ العام 2002 شرع العالم اللغوي الفرنسي جان ماري هومبير jean-marie Hombert[14] في قيادة فريق من الباحثين، بهدف إيجاد أجوبة علميّة مقنعة حول أصل اللغات. [15]

وكانت الأسئلة كالتالي «**من أين أتت اللغات؟ متى تكلم الإنسان الأول؟ وهل هناك لغة أمّ؟ وبأية معجزة تنتقل اللغة من الأهل إلى الأبناء؟ وكيف تم التوصل إلى تحدث حوالي ستة آلاف لغة اليوم؟ ولماذا نِصْفُ هذه اللغات هو بصدد الاختفاء؟**».

ما يؤكده هومبير منذ البداية هو أن **أصول اللغات كانت حتى فترة قريبة من الزمن مغلفة بالأسرار وبالإبهام، وحتى بالنسبة لعلماء اللسانيات التاريخيين**. لكن مساهمات علم الوراثة La Génétique جاءت لتلقي أضواءً جديدة على فترات أبعد من الـ(10000) سنة التي كان أخصائيو اللغات قد استطاعوا سبر أغوارها. واستطاعت علوم الوراثة أن تحدد فترة ظهور **الإنسان العاقل** «هومو سابيان Homosapien» إلى فترة أقرب بكثير مما كان يتم تصوره سابقًا وبأنه قد تواجد ما بين مئة ألف إلى مئتي ألف سنة. وبنفس الوقت جرى الربط بين ظهور هذا «**الإنسان العاقل**» وبين ظهور اللغة، على

13- السوبر مستقبلية (الكون والعقل واللغة): حسن عجمي الناشر: دار بيسان للنشر والتوزيع بيروت 2006.

14- عالم السانيات والمدير الفرنسي لبرنامج «أصل الإنسان واللغات».

15- في أصول اللغة، مجموعة باحثين بإشراف جان ماري هومبير، الناشر: فايار باريس 2005.
AUX ORIGINES DES LANGUES ET DU LANGAGE, JEAN-MARIE HOMBERT, FAYARD - PARIS 2005.

أساس أن «**الإنسان الأول**» هو الذي استخدم «**اللغة الإنسانية**». واكتشف العلماء أن جنس «الإنسان العاقل» الأكثر قربًا من حقبتنا، كان قد انطلق من القسم الشرقي لإفريقيا منذ حوالي مئة وخمسين ألف سنة. ثم جرى إثبات أنه كان هناك نوع من «التماثل» بين **انتشار الإنسان وانتشار اللغات**.

ويرى هومبير بأنّه بسبب قلّة الكثافة الديموغرافية آنذاك، كان يتم الانتقال بمجموعات صغيرة تضم عشرات من البشر فقط. ويثبتُ خبراء الدّيموغرافيا في العالم أنّ عدد سكان الأرض لم يكن يتجاوز المليون نسمة منذ حوالي خمسين ألف سنة. وقد وصل هذا العدد منذ حوالي عشرة آلاف سنة إلى 10 ملايين نسمة، فساد الاعتقاد بوجود جذر لغويّ واحد. فمن أين أتت الـ6000 لغة التي تتحدثها اليوم أمم العالم وشعوبه؟ إنّ التفرّع قد بدأ منذ حوالي خمسة آلاف سنة حيث كان يوجد في العالم 300 لغة مع تواجد 50 مجموعة بشرية متمايزة إلى هذه الدّرجة أو تلك. بينما لم يكن في فترة ما قبل 10 آلاف و15 ألف سنة سوى 15 مجموعة. فهل كانت هناك لغةُ أمّ واحدة انبثقت منها اللغات الأولية أمْ خمس عشرة لغة من الأُمَّات؟ ما يؤكده المساهمون في هذا الكتاب هو أنه من المستحيل الإجابة عن هذا. ذلك أنّه، **حتى إذا أمكن البرهان على أن هذه المجموعات الخمس عشرة قد انحدرت من لغة أمّ واحدة، فإنه من الممكن تصوّر أن اللّغة قد انبثقت في أمكنة مختلفة وأن مصدرًا واحدًا استطاع البقاء.**

وما يؤكد عليه جان ماري هومبير هو أن للّغة عدة مصادر وليس مصدرًا واحدًا. فمثل هذا التأكيد على **الأصل الواحد للّغة إنما يجد تفسيره في المنهج الديني للتفكير**. وتبقى خصوصية الإنسان في أنه قام في أثناء مسيرة تطوّره التاريخية بـ«تكديس المعرفة» وليس «التقليد» فقط، كما هو في عالم الحيوان. عند الإنسان هناك ما هو «**غريزي**» وما هو «**مكتسب**». وهكذا تطوّرت منظومات التواصل تبعًا لعملية التكدّس لدى مجموعات بشريّة كانت قد تفرّقت في أصقاع مختلفة.

إن نشوء اللغة واللغات وتطورها، يقول هومبير، كان مرهونًا دائمًا **بتطور الدّماغ الإنساني كشرط لازم، لابد من تحققه من أجل التوصل إلى منظومة لإنتاج الكلام**. وهي منظومة «معقدة» لا يمكن أن تصدر إلا عن عقل «معقد» هو الآخر. لكن بعيدًا عن الخصائص الدّماغية وتطورها وما ترتب عنها، فإن جان ماري هومبير، والعديد من الباحثين الآخرين، يعتبرون أن المفتاح الحقيقي لفهم أصول اللغات يتمثل في الانتقال عبر المكان وخاصة عبر البحار.[16]

---

[16]- يورد هومبير في كتابه أن الخارطة «الاحتمالية» التي جرى رسمها للطرق المستخدمة للوصول إلى أستراليا في منطقة الشمال تدلّ على وجود إمكانية دائمة لرؤية ما هو بالمقابل. أما الجدول الزمني فيدلّ على أنّ أولئك الذين انطلقوا من شرق إفريقيا قبل مئة ألف سنة. وكان لا بدّ لهم للقيام بمثل هذه الرحلة إلى أستراليا من تبادل كمية كبيرة من المعلومات. وهكذا بدأوا «كما يفترض» بتبادل «الحديث» منذ حوالي سبعين ألف سنة.. وذلك على أساس أنه لا يمكن تصور القيام بمثل تلك الرحلة دون تبادل الحديث، أي دون وجود لغة شفهية لـ«تبادل المعلومات». أما أولئك الذين ظلوا في إفريقيا فلم تكن هناك حاجة للغة حقيقية لأنهم لم يغيروا محيطهم الجغرافي. (المصدر: صحيفة البيان 5 ديسمبر 2005).

ويعزز هذا الافتراض الباحثان كونتين أتكينسون Quentin Atkinson[17] وزميله روسل غراي Russel Gray من جامعة أوكلاند قد انطلقا في العام 2003 في عملية ضبط تاريخ نشوء اللغة باعتماد نماذج البيولوجيا الجينية. في دراسة علمية نشرها أتكينسون في أبريل 2011 أكّد فيها «أن اللغات العالمية نشأت وظهرت في إفريقيا وانتشرت حول العالم، شأنها في ذلك شأن نشأة البشر». [18] وفحوى الدراسة أن أتكنسون «قام بتحليل الوحدات الصوتية في الكلام المعاصر (مفردات اللغة)، وجد أن نمطها يعكس نمط التنوّع الجيني للإنسان، لافتًا إلى أنه مع هجرة البشر من إفريقيا، وبدء الاستيطان في أماكن أخرى، تراجع التنوّع الجيني، وبالتالي فإن التنوع في الوحدات الصوتية مال إلى التراجع أيضا، ما ترتّب عنه ظهور مفردات لغوية جديدة. وأثبتت الدراسة بروزا أقلّ للوحدات الصوتية في لغات المجتمعات التي استوطنت حديثا، بينما حافظ سكان مناطق الصحراء الإفريقية على الكثير من الوحدات الصوتية. وبالتالي فإنه إذا كان الموطن الأصلي لنشأة اللغة يعود لإفريقيا، لأن اللغة مؤشّر حضاري، فإنّ العالم كلّه يعدّ عائلة في الثقافة كما في المعنى الجيني». [19]

وتشير كرونولوجيا البحث في أصول اللغات، وخاصة الهندو أوروبية، أن علماء اللسانيات في القرنين السابع عشر والثامن عشر لاحظوا تشابها بين اللغات مما مكّنهم من اكتشاف العائلات اللغوية. وفي العام 1871 أشار شارل داروين Charles Darwin إلى أن تطور الأنواع وكذا اللغات توّلدت عنه الآليات النظيرة mécanismes analogues. وفي العام 1950 أسس موريس سواديش Morris Swadesh[20] منهج الغلوتوكرونولوجيا Glottochronologie لدراسة العلاقات الكرونولوجية بين اللغات.

17- باحث بجامعة أوكسفود بمعهد التنوع والتطور الانتروبولوجي، ويدرس في جامعة أوكلاند بنيوزيلاندا.

18- صحيفة العرب القطرية، 22 أبريل 2011.

19- المصدر السابق.

20- موريس سواديش (1909 -1967) Morris Swadesh عالم أمريكي في الانتروبولوجيا واللسانيات.

فکر و دراسات

بجاية ميناء مغاربي
(1067-1510)

د. دومنيك فاليرين — ترجمة: أ. علاوة عمارة

عندما استولى الفاتحون المسلمون على المغرب، أسسوا عاصمتهم بالقيروان التي تبعد عن البحر مسافة خمسين كلم؛ وأحدث هذا الاختيار تغييرًا أساسيًا في تنظيم الفضاء مقارنة بما كانت عليه إفريقية في العهدين الروماني أو البيزنطي إذ كان الارتكاز على الموانئ مثل قرطاجة.

القبلة الجديدة

منذ ذلك العهد، تحولت الوجهة ليس نحو الشمال، لكن نحو الشرق الذي شهد ميلاد الإسلام واحتواءه على مركز الإمبراطورية، إن هذه الوجهة جعلت هنري بيران (Henri Pirenne) يذهب إلى أن الفتح الإسلامي أثار قطيعة في وحدة العالم القديم المتوسطي: «حدث تمزق دام إلى أيامنا هذه. وعلى ضفاف بحرنا (Mare nostrum) تمتد الآن فصاعدا حضارتان مختلفتان ومتعاديتان... إن البحر الذي كان إلى غاية تلك اللحظة مركز العالم المسيحي أصبح حده الفاصل؛ لقد تم تكسير الوحدة المتوسطية». [1] غالبا ما تمّت محاربة الأطروحة البيرونية، [2] وارتبط الانتقاد خصوصا بمسؤولية الفتح الإسلامي في انقطاع المبادلات بين الشمال والجنوب، وبالتالي بالتسلسل الزمني لهذا التطور. لم تشكك الانتقادات في الفكرة المحورية التي تقول بتغيير الاتجاهات وانقطاع الاتصالات بين إفريقيا الإسلامية وأوروبا في العصر الوسيط. [3] لقد أهملت إذن السواحل، وهذا ما تشهد عليه الجغرافية السياسية والاقتصادية للمغرب في

---

[1] - H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, Paris, 1992, p. 111.

نشرت الطبعة الأولى لهذه النص في 1937 بعد وفاة المؤلف.

[2] - أنظر خصوصا: M. Lombard, L'Islam dans sa première grandeur, Paris, 1971, et la récente mise au point de P. Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale entre le Ve et le Xe siècles. Retour sur la problématique pirennienne», L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen .Âge, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 75-90

[3] - يعطي وجود نقاط العبور في صقلية والأندلس أو في أوروبا الشرقية أيضا تنوع للمعاينة، لكنه لا يرفضه أساسا.

Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale», art. cité, p. 82 ; E. Ashtor, «Quelques observations d'un orientaliste sur la thèse de Pirenne», JESHO, 13, 1970, p. 173-174, rééd. Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages, Londres, 1978; Cl. Cahn, «Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge», L'Occidente e l'Islam nell'Alto Medio Evo, Spolète,1965 (Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'Alto Medio Evo, XII), I, p. 423-424.

القرون الإسلامية الأولى، وأيضا جغرافية أوروبا الجنوبية في نفس الفترة. بعد القيروان، أصبحت طبعا مدن أخرى عواصم لسلالات حاكمة جديدة مستقلة أو ببساطة حواضر جهوية: طبنة والمسيلة وأشير وقلعة بني حماد وتيهرت أو أيضا سجلماسة؛ وتقع هذه المدن على خط شرق- غرب الذي ينطلق من القيروان ويمتد على الجانب الجنوبي للتل على اتصال بالسهوب والصحراء.[4]

عندما وصف الجغرافي الإدريسي المغرب في منتصف القرن الثاني عشر، أشار دائما إلى هذه المدن القديمة، لكنه أكد أيضا على عظمة وثراء الموانئ كالمهدية وتونس وبجاية والجزائر أو وهران؛ وبدأت تظهر في نفس الفترة وثائق الأرشيف الأوروبية الأولى التي تشهد على تجارة نشطة بين جنوة والعالم الإسلامي. إنها ثورة تجارية حقيقية تصنع في أوروبا، خصوصا في موانئ إيطاليا، وبعد ذلك بقليل في موانئ بروفانسيا وشبه الجزيرة الإيبيرية.[5]

نمت تيارات المبادلات الشمالية- الجنوبية بطريقة مشهودة، مدمجة جهتين كانتا إلى حينها منفصلتين بعضهما عن بعض في نفس الفضاء الاقتصادي المتسع الأبعاد: أوروبا وإفريقيا وآسيا.[6]

مدن حاضرة البحر

حصل بين هاتين الحقبتين تحول عميق ودائم لتنظيم الفضاء المغاربي، وتحولت مراكز الثقل تدريجيا نحو البحر وشهد الساحل نشاطا جديدا؛ وجرى هذا التغيير أيضا في الشرق تحت تأثير الأغالبة والفاطميين (الذين أسسوا المهدية، أول عاصمة مسلمة تقع على الساحل)، وأيضا في الغرب والوسط حيث شهدنا نهضة الشواطئ الإيبرية وبناء الأندلسيين لموانئ على طول الساحل الإفريقي (وهران وتنس والجزائر وطبرقة).[7] في القرن التاسع، وخصوصا في القرن العاشر، بدأ المغرب إذن في التوجه نحو البحر، وتأكد هذا التطور في القرن الحادي عشر ثم في القرن الثاني عشر مع تطور ميناءين كبيرين في المغـــرب

---

[4] - S. Dahmani, «Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'est du Maghrib central du IXe au XIIe siècle», Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. Actes du IIIe colloque international, réunis dans le cadre du 110e Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985), Paris, 1986, p. 338.

يحدد اليعقوبي الذهاب من القيروان إلى الأندلس في زمنه أي القرن التاسع، بأنه يجب إما الذهاب إلى غاية تاهرت ثم الركوب من تنس أو ركوب البحر مباشرة من تونس.

Ibid., p. 344.

أنظر أيضا: M. Chapoutot-Remadi, «Fronte saharino e fronte mediterraneo», Hinterland, 3e année, n° .15-16, 1980, p. 12-14

[5]- R. S. Lopez, La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale, Paris, 1974.

[6]- J. L. Abu-Laughed, Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350, Oxford, 1989, p. 3.

[7]- Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale», art. cité, p. 89.

الشرقي هما بجاية وتونس. لكن على العكس في هذه الفترة، فقد المسلمون التحكم في قسم كبير من البحر المتوسط.[8]

يحدد هذا التوجه الساحلي أو المتوسطي «méditerranéisation»[9] للفضاء المغاربي –الذي بدأ في القرن التاسع والذي ترسّخ بداية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر وخصوصا طوال العصر الوسيط المتأخر– الجغرافية السياسية والاقتصادية لقسم كبير من الجهة إلى غاية أيامنا.[10] ويدعونا[11] لمحاولة فهم الظروف التي سمحت ببروز وتطور هذه الموانئ، وهذا ما يجبر على إعادة تفحص مصطلحات النقاش القديم، أي الانحطاط المفترض للمغرب في نهاية العصر الوسيط.

انحسار المد الحضاري

نظر المعاصرون والمؤلفون المغاربة الأواخر للقرن الحادي عشر على أنه فترة قطيعة عميقة.[12] لقد فتحت حسب رأيهم عصر الانحطاط والتراجع، خصوصا مقارنة مع العالم المسيحي. لقد وضع المؤرخون المحدثون هذا الموضوع في مركز تفكيرهم حول ماضي الجهة واعتقدوا أنهم وجدوا مصدر الوضعية غير المتكافئة مع العالم الغربي التي نعيشها اليوم. ففي 1970، تساءل عبدالله العروي في الصفحات الأولى من مؤلفه «تاريخ المغرب» كما يلي: «ما هو عمق ونشأة وتشريح الموضوع الذي سيكون في لحظة ما قد تأخر ويجب استدراكه؟».[13] مؤخرا، طرح مؤرخ الحقبة الوسيطة المثقف التونسي محمد الطالبي نفس المشكل: «في نظري المسألة الأساسية بالنسبة إلينا هي التالية: لماذا في لحظة تاريخية معينة تم تحطيم اندفاع حضارتنا؟ يلزمنا وقت ومجهودات للكشف أننا انطلقنا كالسهم وكل ما حدث في لحظة ما أن

---

[8]- Chapotât-Remédie, «Fronte saharino», art. cité, p. 10, 18.

[9]- أنشأ جون- كلود جارسان هذه العبارة لوصف وضعية الإمبراطورية المملوكية بداية من نهاية القرن الرابع عشر.
J. Cl. Garcin, «La “Méditerranéisation” de l’empire mameluk sous les sultans Bah rides», Rivista degli Studi Orientali, 48, 1973-74, p. 109-116.

[10]- واضعا حصيلة لوضعية السلطنة العبد الوادية في عصره، كتب ابن خلدون: «العرب هم أسياد البسائط ومعظم المدن، لا تمتد سلطة العبد الواديين إلى الولايات البعيدة عن مركز المملكة ولا تتعدى تقريبا حدود المجال البحري الذي امتلكوه». البربر، 3، ص 472- 473.

[11]- تختلف الوضعية في المغرب الأقصى، لأن العواصم السياسية بقيت في داخل الأراضي. في حين أن الواجهة البحرية هي ضيقة أكثر ومصير سبتة يوضح أن الجهة لم تبق بعيدة عن التطور العام. في المقابل، الصورة مغايرة في المشرق الإسلامي أين بقيت المراكز الكبرى للحكم (القاهرة ودمشق في المقدمة) بعيدة عن البحر.

[12]- J. Berque, «Les capitales de l’islam maghrébin vues par Ibn Khaldûn et les deux Maqqari», Annales islamologiques, 8, 1969, p. 79.

[13]- A. La roui, L’Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 11.

الحافز قد تكسّر. لماذا توقفت حضارتنا من كونها قوة حتى أصبحت معرقلة؟». [14]

إن هذه المسألة ليست بالجديدة [15] وستستمر دون شك لمدة طويلة في ذهن مؤرخ المغرب وبلدان الإسلام بصفة عامة. [16] إن المستشرقين الذين غالبا ما كانوا أدباء اهتموا بالحقبة «الكلاسيكية»، معتبرين أن الإنتاج الفكري بعد القرن الحادي عشر يتلخّص في جمع اجتهادي. [17] لكن فكرة الكلاسيكية وخصوصا الانحطاط التي تتضمنها تتطلب نقاشا. [18]

لقد رأى المؤلفون العرب في نهاية العصر الوسيط هذا الانحطاط إشارة لأزمة عميقة؛ وحلّلوا وضعيتهم كتراجع مقارنة مع الماضي الذي اعتبروه مجيدا. بالنسبة للمؤرخين المعاصرين (منذ القرن التاسع عشر خصوصا)، ينظر إلى هذه الوضعية كتأخر مقارنة بالغرب في فترة يسيطر هذا الأخير عليها سياسيا وعسكريا واقتصاديا. لكن يجب التمييز بين «التراجع» و«التأخر» أو «التعديل». [19]

---

[14] - M. Talbi, Plaidoyer pour un islam moderne, Tunis-Paris, 1998, p. 41.

ظهرت النسخة العربية لهذا النص في 1992 بتونس تحت عنوان عيال الله.

[15] - بافتتاحه للملتقى في 1956 الذي كرّس لمسألة الزوال في العالم الإسلامي، ذكّر روبار برونشفيك أن منتسكيو (Montesquieu)

كان قد فكّر في المسألة مفسّرا «انحطاط» الإسلام «بالاستبداد» الذي كان مسيطرا.

R. Brunschvicg, «Le problème de la décadence», Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956, dir. R. Brauschig et G. E. von Grüne bäum, Paris, 1977, p. 31.

[16] - «أتخيل أن لا أحد بيننا، لم يطرح عليه سؤال محتوم من غير متخصص في الاسلاميات: «ما إذن ينسب انحطاط الشعوب المسلمة في نهاية العصر الوسيط أو العصور الحديثة؟ لقد شعرت من جهتي في عدد من المرات بالحيرة القصوى أمام هذا المشكل الكبير. دون شك هل من المستحيل تناوله بكمية من الفرضيات فقط أو عكس ذلك بالاضطراب. لكن الإقرار بعدم القدرة هو تألم نوع ما ومثير للقلق». Ibid., p. 29.

[17] - Ibid., p. 34.

في سلسلة «الحضارات الكبرى»، الكتاب المخصص للإسلام والذي عهد به إلى دمنيك (Dominique) وجنين سوردال (Janine Sourdel) (La Civilisation de l'Islam classique (Paris, 1968)، لم يذهب إلى ما بعد القرن الحادي عشر.

[18] - كان موضوع ملتقى بوردو في 1956، Classicisme et déclin culturel, op. cit., passim.. بعودته في 1996 لمساهمة كلود كاهن في هذا الملتقى، أشار محمد أركون إلى حمل هذه الأعمال بصمات الرؤية التقليدية لإسلام متطرف لا يمكن تقبلها اليوم.

M. Arkoun, «Transgresser, déplacer, dépasser», Arabica, 43/1, 1996, p. 39-40.

[19] - Brunschvig, «Le problème de la décadence», art. cité, p. 41.

«يبدو لي أن مبدأ (الفارق الزمني) أكثر خصوبة من مبدأ الانحطاط، لأنه يحتم تفحص مقارن للقوى وللميكانيزمات وللأنظمة الاقتصادية والسياسية والقانونية التي تتصادم حينها في حيز جغرافي أين سمح الفعل الإسلامي بالتحرر والإبداع والتطور التي تتابعت، وتعززت في السياق الغربي فقط.»

Arkoun, «Transgresser», art. cité, p. 41.

إن المقارنة بين تطوّر المغرب وتطور أوروبا بعد القرن الحادي عشر هي مجازفة قد تكون مضللة. إن التطوّر السّريع للضفة الشمالية لا يعني بالضرورة تراجعًا فعليًا للضفة الجنوبية؛ وأيضا، يجب الحذر عند الحديث عن تراجع المغرب مقارنة بالنمو العام الذي عرفه البحر المتوسط في هذا العصر. «في هذا الصدد، لاحظ كلود كاهن (**Claude Cohen**) أن المشكل الحقيقي هو تطوّر الغرب أكبر من انحطاط الشرق». [20] إن السؤال الذي يطرحه هذا النزول هو التالي: لماذا لم يمس تقدّم الغرب المستمر العالم الإسلامي، أو على الأقلّ لم يمسه بكيفية متكافئة؟ [21]

ولهذا السبب فإنّه من الضروري العودة إلى النصف الثاني من العصر الوسيط المغاربي بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر؛ فالجهة عرفت طبعا في هذه الفترة أزمة ترجمتها التبدلات العميقة. لكن لم يتجمد التاريخ بعد الحقبة «الكلاسيكية»، [22] ففي خلال القرون الموالية –بالعكس- هناك حضور للإنجازات السياسية الكبرى التي هي علامات للازدهار. من الضروري إذن الأخذ بعين الاعتبار مشكل الزمن الطويل للتمييز بين فترات الأزمة وفترات الازدهار. إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب في أول الأمر تحديد الحقبة الزمنية. إن قطيعة القرن الحادي عشر ربما إذا ما كانت سديدة في الميدان السياسي أو الثقافي لا يمكن أن تقبل دون نقاش.

إن البحث في الاشتمال على مجموع جد واسع حول الحقبة الطويلة يؤدي إلى المجازفة بالخلط، لأن السياقات تتنوع بعمق من مكان إلى آخر. تتمة لكلود كاهن، يشير أغلب المؤرخين اليوم إلى التنوع الكبير في العالم الإسلامي. [23] في المغرب لوحده، تختلف حالات تونس وبجاية والجزائر أو سبتة، فقد تطورت هذه المدن بإيقاعات مميزة في سياقات وحسب منطقها الخاص بها.

---

[20] - Cl. Cohen, «Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge», Studies in the Economic History of the Middle East, dir. M. A. Cook, Londres, 1967, rééd. Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale, Damas, 1977, p. 360.

[21] - Ibid.

[22] - إن الأطروحة التقليدية للاستشراق الاستعماري التي عبّر عنها ج. هـ. بوسكي (G. H. Bousquet) خلال ملتقى بوردو (Bordeaux): «نقطة البداية هي هذه: خلال قرون، بقي الإسلام جامدا تقريبا في مقابل أوروبا التي تطورت بسرعة رغم أن البلدان المسلمة تجاوزت حضارة أوروبا الغربية في العصر الوسيط الأعلى.»

G. H. Bousquet, «Dans quelle mesure l'enseignement dogmatique a-t-il pu entraver l'évolution des institutions économiques et sociales de l'Islam?», Classicisme et déclin culturel, op. cit., p. 185.

[23] - في هذا الصدد، إن العنوان الذي تمّ اختياره للخلاصة الأخيرة التي ظهرت في سلسلة Nouvelle Clio هو معبّر:

États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle, dir. J. Cl. Garcin, Paris, 3 vol., 1995-2000.

بجاية النموذج

تظهر بجاية مرصدا جيدا لوصف هذه المتغيرات وفهم ميكانيزماتها. دون أن تكون عاصمة سياسية (إلا في فترات مختصرة)، كانت هذه المدينة «التي لم تكن ذات نوعية»[24] خلال عدة قرون واحدة من الحواضر الجهوية لإفريقيا الشمالية وواحدة من الموانئ الأكثر نشاطا منذ بنائها في 460/1067، لم تفقد مكانتها إلا مع الغزو الإسباني في 1510. يحدد هذان التاريخان فترة واسعة بكفاية لتتبع تطور المدينة في سياقها المغاربي والمتوسطي في الوقت ذاته. إن كل دراسة تعتمد على الأعمال المتعددة والمتينة. بالإضافة إلى المؤلفات التي أصبحت قديمة حول إفريقية الوسيطة للهادي روجي إدريس[25] وخصوصا روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg)،[26] انضمت مؤخرا المنوغرافية الغنية لمحمد الصالح بعيزق المكرّسة للمدينة تحت حكم الحفصيين.[27] من جهة أخرى، إن تاريخ التجارة المتوسطية والعلاقات بين أوروبا والمغرب هي معروفة بفضل الأعمال التي أنجزت حول موانئ أروبا الجنوبية الكبرى.[28]

فضلا عن مميزاتها الخاصة بها، فإن بجاية هي في قلب المشاكل التي تطرحها القرون الأخيرة للعصر الوسيط المغاربي وتسمح بإعادة التفكير في الأطروحتين اللتين تواجهتا لمعرفة صعوبات المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

---

[24]- هكذا عرّف جون – كلود جارسان (Jean-Claude Garcin) –الذي استلهم من كتاب روبار مزيل (Robert Musil) – مدينة القوص في مصر.

J Cl. Garcin, Un centre musulman de Haute-Égypte médiévale: Qûs, Le Caire, 1976, p. 569.

[25]- H. R. Idris, La Berbérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle, Paris, 1962.

[26]- R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle, Paris, 1940-1947.

[27]- م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تحت إشراف م. سبوتو- رمادي، 1995. في المقابل، ليس ما يؤخذ من العدد الخاص لمجلة الأصالة المكرّس لتاريخ بجاية والذي لا يتعدى تقريبا إطار الاحتفال بالعظمة الماضية للمدينة. بجاية عبر العصور، الأصالة، 19. 1974. نفس الشيء لعمل إزابال كمولي Isabelle Comolli, Histoire de la ville de Bougie du VIe siècle av. J. C. au XIIe siècle, Montpellier, 1987. وأخيرا، كتاب مولود قايد (L'Histoire de Bejaïa et de sa région depuis l'Antiquité jusqu'à 1954, Alger, 1976) يوفر خصوصا رواية للأحداث.

[28]- إذا ما كانت العلاقات مع المشرق قد تم تفضيلها في الغالب، تمّ أيضا إجراء عدة دراسات حول حوض المتوسط الغربي. إن البيبلوغرافيا هي أكثر وفرة من تاريخ المغرب. أنظر خصوصا أعمال شارل- إيمانويل ديفور (Charles-Emmanuel Dufourcq)، وماريا دولوريس لوبيز بيريز (María Dolores López Pérez)، وبيار مكار (Pierre Macaire) حول شبه الجزيرة الإيبيرية، وإدوار براتيي (Édouard Baratier) ورجين بارنو (Régine Pernoud) حول مرسيليا ولورا بليتو (Laura Balletto) ومكية بن ساسي وبرنار دومار (Bernard Doumerc) وفليب جوردان (Philippe Gourdin) وجورج جهال (Georges Jehel) حول إيطاليا.

في الواقع، تمّ تفسير أزمة المغرب منذ زمن طويل أساسا باضطرابات أثارتها في منتصف القرن الحادي عشر هجرة القبائل العربية الوافدة من حوض النيل: بني هلال وبني سليم. إنها أطروحة «الكارثة الهلالية» التي نقلت دون انقطاع إلى غاية سنوات الخمسينات. كتب شارل- أندري جوليان (Charles-André Julien) - الذي حوصل الأعمال التي أنجزت خلال القرن الذي سبقه في كتابه «تاريخ إفريقيا الشمالية» الصادر في 1931- كما يلي: «بكل تأكيد، إن الغزوة الهلالية هي الحدث الأكثر أهمية في كل العصر الوسيط الأوروبي. إنها أكثر من الفتح الإسلامي وهي التي حوّلت المغرب لقرون.[29]

«تندرج هذه الأطروحة بالنسبة لشارل – أندري جوليان نفسه أو على الأقل لكثير من الذين كتبوا قبله، في إطار مشروع إعطاء شرعية للاستعمار الذي قدّم على أساس العودة إلى الحالة العادية: حسب رأيهم المغرب مرتبط - بحكم الميل الطبيعي- بأوروبا.[30] كان المغرب منذ الإمبراطورية الرومانية جزءا من الحضارة الغربية وتطور المسيحية (خصوصا مع القديس أوغسطين) يكون قد أنهى توحيد الضفتين. في نظرهم، لم يحدث الفتح العربي انقلابا عميقا. بالعكس، «بعد دخول البدو مسرح الأحداث (في القرن الحادي عشر) تم تدريجيا في القرنين المواليين ضرب المغرب الأوسط الواقع بين تونس وتلمسان بالشلل والموت».[31] ويكون هذا الحادث بذلك قد فتح قوسا كبيرا تمّ إعادة غلقه بفضل فعل فرنسا التحضيري.[32] إن تفسير الانحطاط يدخل في الحسبان عوامل داخلية في العالم الإسلامي وأيضا خارجية عن المغرب، وتستند خصوصا الى أحكام عنصرية ومعنوية، تشير أساسا إلى الطبيعة المخربة للعرب البدو.

يضع المخطط التفسيري الثاني في المقدمة تطور التجارة الأوروبية في الموانئ المغاربية حيث تباينت تقديرات تأثيره على ازدهار المغرب. فسّرت الأعمال التي تعود إلى الفترة الاستعمارية هذا التطور على أساس أنه مؤشر سابق للتوسع السياسي لأوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن أي أفق يلمس في العمل المتقدم للويس دو ماس لاتري (Louis de Mas-Latrie) حول التجارة الأوروبية في إفريقيا الشمالية الوسيطة،[33] الذي أنهى مقدمة الكتاب بهذه الكلمات: «كم كان بإمكاني أن أهنئ نفسي إذا

---

[29] - Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931, nouvelle éd. revue (avec la collaboration de Chr. Courtois et R. Le Tourneau), 1951, rééd. 1994, p. 414.

[30] - أنظر العنوان المعبّر للكتاب الذي نشره الجنرال دو بريمو بباريس في 1850.

Le Général de Brémond, Berbères et Arabes. La Berbérie est un pays européen.

[31]- É. F. Gautier, Les Siècles obscurs du Maghreb, Paris, 1927, p. 405.

[32] - « تحت فعل فرنسا، سينشط هذا التحجر الضخم ويولد بحالة جديدة».

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine, 47, 1913, p. 18.

[33] - L. de Mas-Latrie, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge, Paris, 1866.

استطاعت هذه الأعمال التي تمّت معرفتها من بعض الأهالي أن تحثهم على الدخول بودية إلى صراط التهدئة والوفاق الوطني نحو المصير المشترك الذي ربما يحفظه المستقبل للجزائر والذي يدعوهم إليه في هذه اللحظة الكلام الجميل واللطيف الذي يمتلك سره الإمبراطور.»[34]

الأمر نفسه تكررعندما حرّر روبارتو سباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez) عمله حول الجنويين في إفريقيا الغربية في العصر الوسيط، وهذا في سياق التوسع الاستعماري لإيطاليا الفاشية حيث وضع هذه الفترة بين أعمال سبيون إميليا (Scipion Émilien) الباهرة والمستقبل الجديد لإيطاليا في إفريقيا.[35] بالنسبة لهؤلاء المؤرخين، خلق انفتاح الموانئ المغاربية على التجارة الأوروبية ظروف ازدهار جديد،[36] لكنها تقتصر على الحاشية الساحلية لأن الداخل بقي مصابا بالشلل.[37] هؤلاء المؤلفين - الذين هم ليسوا باختصاصيين في تاريخ التجارة الأوروبية وأيضا في العالم الإسلامي- لم يهتموا تقريبا بتفحص آثار هذا النشاط التجاري في البلاد.

الاستعمار الجديد

أبرز أيضا عبدالله العروي الدور الحاسم للمنطقة في هذا التوسع التجاري، لكنه حمل حكما مختلفا جدا. يندرج تفكيره في سياق إدانة المظاهر الجديدة للسيطرة الغربية على ما نسميه العالم الثالث. يترجم هذا «الاستعمار الجديد استعلاء ليس سياسيا فقط، ولكن اقتصاديا قبل كل شيء، والعناية

---

[34]- Ibid., préface, p. XXVII (datée du 10 mai 1865).

أنظر أيضا حكم: بواسوناد P. Boissonnade, « Relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècle, étude d'histoire économique », Bulletin de la société de géographie, 1929, p. 1 «إن الجمهوريات البحرية الفرنسية في الفترة الجميلة من العصر الوسيط كانت النذير الحقيقي للزمن الذي فتح خلال القرن التاسع عشر والذي جعل من إفريقيا الشمالية فرنسا جديدة، كامتداد اقتصادي وميدان تجاري للوطن القديم.»

[35]- «إذا كان الجنود والعمال الإيطاليون فتحوا لحضارتنا مستقبلا جديداً في إفريقيا، فإن ذاكرة المتقدمين من كل نوع وفي كل عصر في الماضي، اجتازوا الجهات الجد بعيدة، وتدفّقوا في روح كل واحد واكتسبوا فعليا حق الأسبقية في كل التاريخ».

R. S. Lopez, «I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo», Studi sull'economia genovese nel Medio Evo, I, Turin, 1936, p. 3.

[36]- إن انفتاح الدول المغاربية على التجارة هي بالنسبة لفرنو برودال «الحدث الكبير في حياة المغرب – مع ما يفكر فيه التاريخ العام- والذي يفيض كثيرا بفعل انعكاساته إلى أبعد من حدوده».

F. Braudel, «Monnaies et civilisation: de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen», Annales ESC, 1, 1946, p. 11.

[37]- «تكبر هذه المدن دون معيار مشترك مع البلدان المحيطة بها. وهي نتاج الاقتصاد العالمي وهذه هشاشتها السرية، فهي ليست أقل ازدهارا من هذه اللحظة». Ibid., p. 12

بمبادلات تجارية غير متكافئة بين الشمال والجنوب. بإشارته إلى دور التوسع التجاري الأوروبي في التطور الاقتصادي للمغرب، سجّل عبدالله العروي خصوصا آثاره المدمرة: «إن هذه التجارة التي نعجب باعتبارها رمزا وشرطا للازدهار كانت في تاريخ المغرب مرتبطة بضعف السلطة السياسية.[38] «دون إهمال الاضطرابات التي ولّدتها الهجرات الهلالية، ينقل إذن الأزمة نحو منتصف القرن الرابع عشر.[39]

الأمر الذي دفع محفوظ قداش في تاريخ «الجزائر الوسيطة» الصادر في 1992 إلى أبعد من هذا التفكير مؤكدا على أن المغرب تكبّد «هجمة التجار الأوروبيين التجارية التي واكبتها في الغالب هجمة عسكرية من الدول المسيحية.[40]

«في النهاية، إن هذا التحليل غير بعيد عن تحليل المؤرخين الاستعماريين. لقد نظر إلى التطور الملاحي والتجاري للمدن الأوروبية كعنصر من التوسع الأوروبي نحو المغرب وبذلك أعلن أو حضّر توسع القرن التاسع عشر. إنّ الفارق بين هاتين المقاربتين يكمن فقط في الحكم السياسي (أو المعنوي) الذي وضع على الظاهرة: خير بالنسبة للبعض وشر بالنسبة للآخرين.

تدخل الصورتان المفسّرتان أساسا عاملين خارجيين عن العالم المغاربي.[41] لقد بحثت الكتابة التاريخية الجزائرية في سنوات الستينات والسبعينات عن عكس ذلك بإظهار المنطق الداخلي لتطور «الأمة».[42] ففي 1970، كتب محي الدين جندر في الفصل الأول من كتابه «مقدمة لتاريخ الجزائر»

---

[38]- Laroui, L'Histoire du Maghreb, op. cit., p. 174.

يرفض عبدالله العروي فكرة المصير المشترك بين المغرب وأوروبا كما طالب بها المؤرخون الاستعماريون. «إلى هذا الطفل الأبدي الذي هو دائما عفريت، نذكّر بأنه يجب الاختيار مرة واحدة وأخيرة، الخيار الجيد الذي هو خيار الجماعة المتوسطية». Ibid., p. 95.

[39]- Ibid., p. 204.

[40]- M. Kaddache, L'Algérie médiévale, Alger, 1992, p. 165.

في القرن الخامس عشر، ازدادت هذه «الهجمة» حسب نظره في سياق النزاع ضد الإسلام تحت سلطة البابا: «إن قبض التجار الأوروبيين على المتاجرة المتوسطية تطلّب سياسة هجومية ضد المدن البحرية المغاربية، والذي هدف إلى خنق هذه الأخيرة ومنع كل تجارة منتظمة مغاربية». Ibid., p. 179.

[41]- يخلخل عبدالله العروي هذه الفكرة حيث دعا إلى الأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية، لكن بتفسيرها حسب الحالة الداخلية للجهة.

Laroui, L'Histoire du Maghreb, op. cit., p. 206.

[42]- أنظر:

D. Valérian, «L'expansion européenne médiévale vue par l'historiographie maghrébine contemporaine» (communication dans le cadre du groupe Dirasat au WOCMES de Mayence, septembre 2002, à paraître au CERES, Tunis)

والمعنون بـ(نحو التاريخ الوطني): «إنّ الماضي ينادي بإدماجه، إدماجه بطريقتنا، لأنني توصلت إلى قناعة عميقة بأن تاريخنا الوطني – رغم أعمال المؤرخين الأوروبيين الكثيرة كان دائما أرضية خصبة وكان يجب بالنسبة إلينا نحن، إعادة التفكير في العناصر المختلفة لماضي وجودنا».[43] إن الإطار الذي تم اختياره في هذا التفكير –الأمة الجزائرية- كان أقل تكيفا مع التاريخ الوسيط. بعودته إلى نصه في نهاية سنوات الثمانينات، أضاف له محي الدين جندر فصلا جديدا كتمهيد «ضرورة تفكير جديد في التاريخ الوطني» حيث كتب خصوصا: «انتهى فهم الأمة على أنها مشابهة لنفسها وأن السيطرة الاستعمارية لوحدها هي التي أخفت وجودها».[44]

إن قصور هذه التفسيرات يظهر أن تاريخ بجاية لا يمكن فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل الخارجية والداخلية للتطور. يجب إذن وضع أنفسنا في سلم مختلف ورؤية دور المدينة في المغرب وأيضا في البحر المتوسط.[45] لا يمكن فهم نشاط الميناء إلا إذا تمّ ربطه ببلاده الخلفية من جهة وبمجمل الاقتصاد المتوسطي من جهة ثانية.[46]

يجعل هذا المنطلق ضروريا المقارنة بين مختلف العوالم وبناها الاقتصادية والسياسية أو الاجتماعية. إن الهدف ليس إصدار حكم مهما يكن لكن فهم أسباب التطورات المختلفة. إنّ هذا العمل غير محصن من المجازفة. لقد أشار كلود كاهن خلال ملتقى بوردو في 1956 إلى ضرورة انطلاق دراسة مقارنة ليس من المفاهيم المجردة والمنغلقة ولكن من تحاليل مجسدة لبنى مختلف المجتمعات أو الحضارات، وهذا ما يفترض بنا أن نقوم به في هذا العمل فيما يخص بجاية.[47]

---

[43]- M. Djender, Introduction à l'histoire de l'Algérie, Alger, 1970, nouvelle édition augmentée, Alger, 1991, p. 42.

[44]- Ibid., p. 16-17.

[45]- إن نشاط الميناء هو انعكاس التطورات الخاصة بالمدينة وبالمجتمع الحضري وتطورات المقاطعة (البلاد الخلفية القريبة أو البعيدة) للدولة (الحمادية، والموحدية والحفصية) ومجمل المغرب أو مجمل العالم الإسلامي.

[46]- أنظر ملاحظات كلود كاهن Claude Cahen, «Quelques mots sur le déclin commercial», art. cité, p. 359-360. «بالتعريف، لا يمكن دراسة اقتصاد تجاري في نفس الميدان المغلق دون الرجوع إلى ما يحيط به. فيما يتعلق بالمجال المسلم، نلاحظ من جهة أن الظواهر التي ترصد له هي مشتركة مع مجتمعات أخرى ومن جهة ثانية هي ليست نتاج التطور الداخلي فقط، لكن أيضا رد فعل يعكس التطورات المحيطة بها».

[47]- Claude Cahen, intervention à la suite de la communication de Robert Brunschvig, «Le problème de la décadence», cité, p. 47.

بجاية من خلال الوثائق

يصطدم هذا المقتضى بمشكل المصادر ويفرض الإتيان بتوضيح مزدوج للمادة التوثيقية العربية واللاتينية. بالنسبة لبجاية، هذه المصادر كافية وذات طبيعة متنوعة جدا، وترفع لنا الستار خصوصا عن مدينتين مختلفتين، الأولى مرساة بعمق في المغرب والثانية منفتحة بكثرة على البحر المتوسط.

تظهر المصادر العربية المشكلة أساسا من نصوص ذات طابع أدبي مدينة متجهة نحو البر. كحاضرة جهوية، شاركت بجاية في النزاعات السياسية التي ضربت بغليانها إفريقية وأكثر من ذلك مجمل المغرب. كما تحكمت في جهة واسعة متميزة بغليان حركات القبائل وقوى أخرى هامشية. اعتنى البجائيون بالعلاقات التجارية مع جهات أخرى في العالم الإسلامي أو مع إفريقيا العميقة، ولكن العلاقات مع مسيحيي الضفة الأخرى هي غائبة تقريبا في هذه النصوص الأدبية.وعندما يشار إليهم، فلا يذكر الاّ طبيعة النزاع بين عالمين غير منسجمين، وهنا إخفاء للعلاقات العادية مع الكفار.

عكس ذلك، لا تظهر المصادر الأوروبية –التي هي أساسا وثائق أرشيف- بجاية إلا من خلال مينائها المنفتح بكثرة على البحر. وتسمح الوثائق التجارية برسم صورة مدينة نشطة، تبرم علاقات كثيفة ومنتظمة مع بقية الحوض المتوسطي من خلال أعمال التجار الإيطاليين والبروفانسيين أو الكتالانيين وتظهر فترات ازدهار تجاري وأوقات الفتور أو أزمة المبادلات. وتخبرنا الأرشيفات العمومية وبعض كتب التاريخ عن الروابط السياسية المبرمة مع الحفصيين. وتشير المعاهدات إلى مراحل هذا التعايش المشترك حتى وإن كانت الوثائق تشير خصوصا إلى النزاعات. لكن على غرار النصوص العربية التي لا تهتم بالبحر أو بالمسيحيين، فإن الوثائق الأوروبية لا تلمح إلى ما يجري خارج الميناء وإلى سكان هذه الأراضي رغم الالتقاء بهم.

وبالتالي فمنذ ذلك الحين يظهر أن الاستعمال المتقاطع لمختلف أنواع هذه المصادر صعب. إن عدم التساوي هو توثيقي قبل كل شيء، فقد ترك تاريخ بجاية على العكس أكبر أثر في أوروبا وليس في المغرب فحسب. إن ندرة المعلومات حول النشاط الملاحي البجائي يجب أن يفسّر بحذر. إنّ مقابلة المصادر العربية مع الأوروبية يسمح جيدا باستخراج فترات الازدهار والأزمة والبحث في أسبابها. كما تشير أيضا –في السياق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي البجائي والجهوي- إلى أي العوامل التي بإمكانها توضيح ما يظهر في لحظة ما كـ«تأخر» مقارنة بأوروبا.

ميناء مغاربي ذو أهمية أولى، هنا تندرج بجاية كاملة في سياق نشاط السواحل المتوسطية انطلاقا من القرن الحادي عشر، ولكن أيضا في تغيرات الموازين الجهوية.

تعزى هذه المكانة في بادئ الأمر إلى الثروات التي تجلبها من بلادها الخلفية. يجب إذن الانطلاق من منطقة بجاية وإعادة النظر في ورقاتها الرابحة وضعفها البنائي وتحديد فترات الأزمات الداخلية. ويتطلب هذا تقدير أهمية المدينة واشعاعها في المغرب على الصعيد الاقتصادي وأيضا على الصعيد السياسي مع الإشارة إلى التطورات خلال الفترة المعتبرة. وتشهد مبادلات المنتجات وما ينجم عنها بازدهار المدينة وجهتها وأيضا حدود اقتصادها. وأخيرا، إن القرصنة التي نمت خصوصا بداية من القرن الرابع عشر هي إشارة لأزمة وسبب للغنى.

اندمجت المدينة إذن في فضاء واسع، وارتبط ميناؤها على وجه الخصوص بالبحر؛ لكن إذا كان هذا الأخير هو مصدر ازدهار بجاية فإنها حملت أيضا ارتباطا أكبر على الصعيد التجاري، فقد البجائيون المبادرة لصالح المتعاملين الاقتصاديين الأوروبيين، وهذا ما جعل الاقتصاد الحضري حساسا بصفة خاصة لتطور الوضعية في البحر المتوسط. إنها الظروف المزدوجة المغاربية والمتوسطية الوحيدة القابلة بجعل تاريخ بجاية مفهوما على غرار كل الموانئ المسلمة في المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

مقدمة كتاب :

Bougie port maghrébin, 1067-1510, Rome, École française de Rome, 2006.

- **العناوين الفرعية من صنع التحرير.**

طبيعة المجتمع في فكر مالك بن نبي التربوي

إعداد وترجمة: د. عمر نقيب

مقدمة

الأصل في هذا المقال أنه جزء من دراسة علمية تمّ إنجازها باللغة الانجليزية، قدمتها سنة 2004 للحصول على شهادة دكتوراه الفلسفة (Ph.D) في فلسفة التربية، من جامعة بترا بماليزيا، وعنوان الدراسة: «**مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي**»،

«Malik Bennabi's Approach to the Educational Problem in the Muslim World».

«Towards a New Theory of Education for the Contemporary Muslim Word»

ولقد قمت بترجمة هذه الدراسة كاملة إلى اللغة العربية، ونعرض منها هذا الجزء الذي كتبته تحت عنوان: «طبيعة المجتمع» في سياق عرض وتحليل ومناقشة أسس النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي التربوي.

تقديم

من خلال القراءة المتأنية لمنهج مالك بن نبي في تناول طبيعة المجتمع، يمكن للقارئ أن يتبيّن تركيزه على البعد الوظيفي للمجتمع أي، أنّه تناول المجتمع من وجهة نظر وظيفية بعيدًا عن التأمّل الفلسفي المنقطع عن الواقع العملي لحياة الناس. هذا، على الرغم من أنّه تناول بعض المفاهيم النظرية في الباب التمهيدي من كتابه «ميلاد مجتمع» على سبيل المثال، كضرورة منهجية فقط. وبعبارة أخرى، فإنّ تركيز مالك بن نبي على البعد الوظيفي التربوي للمجتمع لم يمنعه من أن يُضمّن دراسته بعض الأفكار ذات الطابع الفلسفي أو النظري على الأقل، أثناء تناوله لطبيعة المجتمع كضرورة منهجية اقتضاها التمهيد للدراسة الفعلية بتوضيح مجموعة من المفاهيم النظرية المحتاج إليها لفهم المقصود من الدراسة. وقد برّر مالك بن نبي نفسه هذا التمهيد بتأكيده على أنّ «في علم الاجتماع توجد بعض المفاهيم التي تبدو أحيانًا غير محدّدة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية... وقد يؤدّي تعقّد المصطلحات إلى مناقشات هي أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم... ولهذا، لابد، بالنسبة إليه، من أن ننشئ أوّلًا الإطار النظري للموضوع قبل معالجته من الزواية التاريخية.[1]

ومن أمثلة منهجه هذا في تناول طبيعة المجتمع أنّه منذ البداية أكّد على أهمية تحديد المفاهيم لأنّه يرى أنّ «التعاريف التي تقدّمها القواميس ليست إلا تحديدًا خارجيًا وصفيًا لا يعطي تفسيرًا للوظيفة

[1]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

التاريخية للمجتمع، ولا يفسّر تنظيمه الداخلي الذي يمكّنه من أداء هذه الوظيفة».[2] وبناءً على هذا الوضع، لا بد من صياغة مفهوم يكون أقرب إلى خدمة الهدف من الموضوع أي، «تحديدًا جدليًا، وبعبارة أخرى تحديد الموضوع في نطاق الزمن».[3] ولا شك في أنّ عبارة «في نطاق الزمن» ليست إلاّ من قبيل تناول الظاهرة موضوع الدراسة كما هي في الواقع الفعلي للحياة البشرية وفي مرحلة حضارية محدّدة لمجتمع ما من المجتمعات البشرية التي عرفها التاريخ.

كما اتّسم تحليل مالك بن نبي لطبيعة المجتمع بالتشعّب والامتداد. لذلك، ونظرًا لطبيعة هذه الدراسة والأهداف التي نتوخّاها منها، وجدنا أنفسنا مضطرين لتركيز اهتمامنا على القضايا التي يمكن أن تساهم في توضيح مدى مراعاة مالك بن نبي للبعد التربوي لطبيعة المجتمع سواءً في فهم طبيعته أم في وضع آليات بنائه وتأهيله لأداء وظيفته التاريخية في الحياة أم أدوات المحافظة على البناء لتمكينه من الاستمرار في أداء هذه الوظيفة.

كما أنّه من خلال تناوله لطبيعة المجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية، كان يرمي إلى بلورة الآليات العملية التي تمكّن المسلمين من أعادة البناء واستئناف الوظيفة التاريخية للمجتمع الإسلامي في التاريخ، مبرِّر وجوده واستمرار هذا الوجود. وفيما يأتي نستعرِض بشيء من التفصيل تحليله لطبيعة المجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية.

تعريف المجتمع

يرفض مالك بن نبي أي تعريف للمجتمع لا يأخذ بعين الاعتبار البعد الحضاري للوجود البشري ووظيفة الإنسان في التاريخ؛ والسبب في ذلك هو أنّ تعريفًا يخلو من البعد الحضاري للوجود البشري، لا يمكن أن يقدِّم تفسيرًا واضحًا ومقنِعًا للوظيفة التاريخية التي هي مبرِّر وجود المجتمع البشري في هذه الحياة ولا التنظيم الداخلي الذي يمكّنه من أداء مثل هذه الوظيفة. فهو لا يعدو أن يكون مجرّد تفسير وصفي للمجتمع. وبناءً على هذا، فإنّ أيّ تعريف لابد له من الاستجابة لشرط التعريف الوظيفي (Functional Definition) الذي يشير إلى مبررات الوجود البشري في التاريخ وشروط الاستمرار الإيجابي لهذا الوجود. ولهذا، فإذا أردنا ضمان التعريف المطلوب كما أشرنا، لا بد من توضيح الوظيفة التاريخية للمجتمع والتنظيم الداخلي –النفسي والأخلاقي- (Internal Organization) الذي يمكّنها من الأداء الناجح لهذه الوظيفة.[4]

ونتيجة للاعتبارات السابقة، فقد عرّف مالك بن نبي المجتمع باعتباره «الجماعة البشرية التي تتطوّر ابتداءً من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح (ميلاد)، بوصفه (حدثًا) يسجِّل ظهور شكل من

---

[2]- نفسه: 15.

[3]- نفسه: 15.

[4]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 15.

أشكال الحياة المشتركة تعبِّر عن نفسها من خلال حركة تغييرية هادفة مستمرة.[5] وبعبارة أدق، «الجماعة التي تغيِّر دائمًا خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير».[6] ولهذا، فالمجتمع، بالنسبة إلى مالك بن نبي، ليس مجرّد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتمّ طبقًا لنظام معيّن.[7] ومن أجل هذه الاعتبارات كلّها، لا تكتسب الجماعة البشرية صفة المجتمع إلا عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا يتّفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة.[8]

وبالتأمل في هذا التعريف يمكن التوصّل إلى تحديد العناصر الأساسية التي يتضمّنها، والتي ينبغي مراعاتها لتشكّل باجتماعها حسب مالك بن نبي التعريف المتكامل للمجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية. وأوّل هذه العناصر نقطة البدء في بناء المجتمع وهي الميلاد باعتباره حدثًا يسجِّل ظهور شكلٍ من أشكال الحياة المشتركة الهادفة أي، التي تستهدف إنجاز مهمة محددة في التاريخ. إذ لولا ارتباطه بأداء وظيفة لما سمّي ميلادًا، فالمجتمع الذي يريد أن يضفي على وجوده الكوني دلالة تاريخية لا مناص له من أن يحدّد لنفسه وظيفة محدّدة في التاريخ لا تقتصر على مجرّد المحافظة على النوع أو توفير وسائل العيش الكريم لأفراده؛ فهذه وسائل وليست غايات؛ بل هي مقاصد تُقصَد قصد الوسائل لا الغايات أي هي وسائل لغايات أسمى وأبعد.

كما نجد أيضا أنّ هذه الحياة المشتركة تتميّز بخصائص هي التي تميِّزها عن غيرها من التجمّعات الأخرى فضلًا عن الحيوانية منها. ومن أهم هذه الخصائص الحركة من حيث هي مشروع حضارة يستهدف التغيير نحو الأفضل باستمرار؛ وأنّ الوسائل المعتمدة لإنجاز مهمة التغيير هذه إنّما هي من إنتاج التفكير الحر المستقل أو بالأحرى من ثمار هذه الحياة المشتركة. وفي هذا إشارة من مالك بن نبي إلى خاصية الأصالة (Authenticity and Originality) في التفكير والنظر والتصرّف؛ وأنّ التجارب غير الأصيلة ليس من السهل أن يُكتَب لها النجاح ولو نجحت في «مسقط رأسها». ذلك لأنّ التفكير غير الأصيل غالبًا ما يميل إلى التقليد والمحاكاة واستنساخ ما أنتجه اجتهاد الغير دلالة على العجز عن الاجتهاد، وتغييب العقل بدلًا من إعماله من أجل الإبداع والتجديد وتكييف الواقع من أجل تجديده لا التكيّف معه مهما كان من باب «اللحاق بركب الحضارة» بمعاكسة سننها الثابتة التي لا تتخلّف. وفي هذا السياق، يعجب المرء من طائفة من الناس لا يرون الحلول لمشاكل بلادهم إلاّ إذا استوردَت من هناك وكأنّ الأرض التي نعيش فيها أصيبت بالعقم فلا تنجب وبالجدب فلا تنبت؛ وقد تناسى هؤلاء أنّ العقل

---

[5]- نفسه: 16.

[6]- نفسه: 17.

[7]- نفسه.

[8]- نفسه: 18.

الذي صاغ مشاريع تلك الحلول المستوردة إنّما العقل المهاجر إلى هناك لأنّه لم يجد في مسقط رأسه البيئة المناسبة والمناخ المشجِّع والوسط الإيجابي المحفِّز على تفتيق مواهبه وطاقاته الحيوية لتصبح طاقة اجتماعية تعمل وتنتج، فلم يكن له بد من الهجرة إلى هناك حيث الاعتبار بكل أبعاده والتشجيع بكل وسائله المغرية. وبهذا، فقد كان يكفي استرجاع العقول لا الحلول وذلك بردّ الاعتبار لها اجتماعيًا ومعنويًا وماديًا فنوفِّر المال والجهد والوقت.

الخصوصية الثقافية والمجتمع

وكما هو ملاحظ، فإنّ هذا النوع من التجمع البشري محكوم ابتداءً بخاصيته الديناميكية والتغيير المستمر لخصائصه نحو الأفضل من خلال تبنّي رؤية فكرية محدّدة توجّه مسيرته التاريخية في هذه الحياة نحو غاية محدّدة تنسجم ومقتضيات رسالته في التاريخ وفقًا لنظرية الحياة التي يتبنّاها المجتمع. ولا شك في أنّ هذه الغاية المحدّدة تتضمّن مشروعا متكاملًا يستهدف تحقيق مثل وطموحات المجتمع الحضارية في الحياة.

ومن أهم ما يمكن استنتاجه ممّا سبق أنّ الحياة البشرية لا يمكن إلا أن تكون مشروعًا هادفًا يستهدف تجسيد مثل الأمة الثقافية وطموحاتها الحضارية في التاريخ. غير أنّ أيّة أمّة باشرت حركتها في الحياة وهي ذاهلة عن هذه المعاني هي أمّة لم تستوفِ بعدُ مؤهِلات الحضور الهادف في التاريخ أي، حضور يضمن لها موقعًا يمكن لها أن تساهم به في صناعة التاريخ أو على الأقل التأثير في وجهته كما تصنع الأمم الفاعلة في هذا العصر الذي نعيشه.

ولا يكتفي مالك بن نبي بالذي قدّمه من تعريفٍ للمجتمع؛ بل يذهب بعيدًا ليضفي عليه أبعادًا ثقافية وحضارية تخدم الهدف النهائي من مشروعه الإصلاحي الكبير. وفي البداية يشير إلى خاصية التميّز الثقافي (Cultural Peculiarity) للمجتمع؛ إذ يعتبر أنّ لكل مجتمع خصوصية حضارية وتاريخية؛ وأنّ «العناصر الاجتماعية التي تَسِمُ الثقافات المختلفة ليست كلّها قابلة للتداول بحكم أنّ الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصّة بها، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية». [9] ولهذا، فبالنسبة إليه، النظر في مشكلات المجتمع من خلال نماذج ثقافية (Cultural Paradigm) مغايرة لهُ، تحمل من الخطر على الوجود التاريخي للمجتمع ما يمكن أن يهدّد مستقبل أجيال برمّتها.

ولعلّ بعض التجارب التاريخية وخاصة في العالم الإسلامي كافية للدلالة على صحّة هذا الرأي؛ بل قد نسمح لأنفسنا لنقول أنّ استنساخ التجارب لم يزِدْ مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة عندنا إلاّ حدّة وتعقيدًا. ولنا في ثمار تطبيق التجربة الاشتراكية في كثير من بلاد العالم الإسلامي خير مثال على ذلك؛ ومن بعد ذلك تجربة الليبرالية وتحرير الاقتصاد كذلك. ففي الوقت الذي رأينا تجارب الإصلاح قد آتت أكلها في «مسقط رأسها» فقد كانت وبالاً على مستورديها بسبب تصادمها مع الخصوصيات

[9]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي: 80- 81.

النفسية والثقافية للبيئة المستورِدة لها خاصة وأنّها لم تخضع لما هي في حاجةٍ إليه من التحليل والتكييف والتركيب من أجل جعلها منسجمة مع الخصوصيات النفسية والثقافية للواقع الفعلي للمجتمع المستورِد. والمكتبة العربية والإسلامية غنية بالإفاضة في هذا الموضوع الذي أصبح حديث العام والخاص من أبناء العالم الإسلامي إلا من شذّ منهم عن سواد الأمّة.

الجذور الدينية للمجتمع البشري

وفي سياق تحليله لأصول المجتمع البشري، أشار مالك بن نبي إلى ضرورة التوقّف والنظر فيما يسمّيه الميلاد (Birth) أو نقطة انطلاق المجتمع لممارسة حركته التغييرية نحو أهدافه التاريخية لأهميتها في تحديد المسار المستقبلي لأجيال المجتمع. إذ ترجع أهمية هذه اللحظة في تاريخ المجتمع إلى أنّها هي المنعطف الذي يحدّد كل الخصائص العضوية التي سوف يكون عليها المجتمع في مستقبل أيّامه. فلحظة الميلاد هي بمثابة النطفة التي تحمل كل الخصائص التي سوف تطبع شخصية الإنسان في مستقبل أيّامه.

ومن أهم ما نهتدي إليه من معانٍ عند استحضار فكرة «الميلاد» وأنّها بمثابة «النطفة»، أنّ من أهم شروط نجاح بناء المجتمع التاريخي المتحضِّر أن يتوفّر أصحاب المشروع على رؤية شاملة ومتكاملة عن كل مواصفات المجتمع الثقافية والحضارية للمجتمع المنشود وعن مفاصل عملية البناء بما يضمن النجاح في إنجاز البناء والمحافظة عليه واستمراره في أدائه لرسالته في التاريخ كما حدّدتها له نظرية الحياة التي يتبنّاها أفراد ذلك المجتمع.

غير أنّ اللافت للانتباه في هذا المقام أنّ مالك بن نبي يسلّط الضوء على قضية محورية في تفسير الحركة التاريخية لنشوء المجتمع وهي الأصل الديني لكل تجمّع بشري عرفه التاريخ. ويؤصِّل مالك بن نبي لهذه القضية فيؤكّد أنّه إذا كان ميلاد المجتمع يمثِّل لحظة انطلاق شرارة بناء الحضارة؛ وأنّ الحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو على الأقل تقوم في أساسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام؛ فإنّ الأصل في كل مجتمع إنّما هو الفكرة الدينية.[10]

وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدل على عمق الجذور الروحية للمجتمع البشري؛ إذ هو مبرر وجوده واستمرار هذا الوجود. وبناءً على هذا، يصبح من غير المعقول تناول طبيعة المجتمع بالدراسة وقصدنا من هذه الدراسة سواءً التفسير والفهم أم البناء أم إعادة بنائه، من دون مراعاة الأصل الروحي أو الغيبي للمجتمع البشري بحكم أنّ أي مجتمع إنّما يستمدّ مبرّرات وجوده الكوني من مجموعة من القيم الغيبية المقدّسة. بل إنّ تناول قضية المجتمع خارج إطار جذوره الروحية ليس أقل من تحريف لطبيعة المشكلة وخروج عن إطارها الصحيح. ولهذا، فإنّ مالك بن نبي يشدّ انتباهنا إلى أهمية مراعاة هذه الحقيقة

[10]- مالك بن نبي، شروط النهضة: 51.

الكونية لأيّ مجتمع إنّما يعتمد في لحظات بنائه الأولى على مجموعة من المبررات الغيبية. والدليل على ذلك أنّه «كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوّره الاجتماعي، وجد سطورًا من الفكرة الدينية. كما أظهر علم الآثار بقايا آثار خصّصها الإنسان لشعائره الدينية؛ أيًّا كانت تلك الشعائر... من كهوف العبادة في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد...»[11].

ومن هنا يتعجّب المرء من مختلف محاولات البناء التي تستهدف بناء مجتمع ذي حضور متميّز في التاريخ لا تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الكونية في حياة البشر؛ بل تتجاوز ذلك في بعض الأحيان لتعتبر مجرّد التنبيه إليها ضربًا من التخلّف والتراجع وأنّ التقدّم والتحضّر ليس إلاّ في اللهف وراء الجديد مهما كان.

المجتمع بين النوعية والكمية

من الأساسيات التي انطلق منها مالك بن نبي في التعامل مع طبيعة المجتمع اعتباره أنّ المجتمع لا يقاس بعدد ما فيه من أفراد وإنّما بنوعية هؤلاء الأفراد، والأفكار التي يحملونها والوظيفة التي يطمحون إلى إنجازها. لهذا، لا ينبغي تناول المجتمع من وجهة نظر كمية عددية صرفة. والسبب في ذلك، حسب مالك بن نبي، هو أنّ الثروة الحقيقية للمجتمع لا يمكن أن تقاس بما لديه من أشياء أو عدد ما فيه من أفراد، وإنّما بما ينتجه من أفكار.[12] هذا، الرغم من أن للعدد موقعًا ودورًا لا يُستهان بهما في مشاريع النهوض المختلفة. ويدعِّم مالك بن نبي رأيه هذا بكون المجتمع «الأمّة» يمكن أن يتجسّد لحظة ميلاده في فرد واحد يحمل في داخله كل المكوِّنات الجنينية لبناء المجتمع في المستقبل؛ وللتدليل على صحة هذا الرأي استند إلى القرآن الكريم، في قوله تعالى من سورة النحل: (إنّ إبراهيم كان أمّة...).

ومعلِّقًا على ذلك بقوله، «... ومع ذلك فإنّ هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحدٍ يمثّل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، وذلك بلا شك هو المعنى المقصود من كلمة «أمّة» عندما أطلقها القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام»[13].

وهكذا، شأن الدعوات السماوية بل ودعوات الإصلاح أيضًا؛ إذ غالبًا ما يبدأ المصلح دعوته منفرِدًا فيفعل الله به ما يشاء ويجسِّد فيه حكمته ويبارك له في دعوته فيصبح له من الأتباع ما يمكن أن يبني به مجتمعًا يذود عن الفكرة التي نهض من أجلها وحيدًا. ولنا في سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم القدوة الحسنة؛ فقد بعثه الله تعالى ولم يكن يومئذٍ على وجه الأرض مسلم يوحّد الله تعالى.

---

[11]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: 69.

[12]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 37.

[13]- نفسه: 17.

وقد قصّت علينا السيرة العطرة المسيرة بأكملها. وقد بلغ هذا الدين الذي جاء من أجله النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم المشارق والمغارب حتّى أصبحت أمّة الإسلام أكبر أمة على وجه الأرض كما لم يعُد على وجه الأرض أيضًا من يجهل دعوته، صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ جاحد أو مكابر. ولنا أيضًا في سيرة الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله تعالى البيان الأوفى. فقد كان التجسيد الحقيقي للرجل الأمة؛ إذ أخرج الله عز وجلّ على يديه من جنين أفكاره أمّة بعثها على يديه من بعد موت وركّبها من بعد انحلال؛ وكل من تابع قصة جهوده الإصلاحية يعرف أنّ جنين الأمة الجزائرية الحديثة إنّما وُلِد في تلك الليالي المباركة التي قضاها مع رفيق دربه الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بجوار قبر النبي الأكرم صلّى الله عليه وسلّم.

وقد ضرب مالك بن نبي أمثلة حول أهمية منهج النظر إلى طبيعة المجتمع وآليات بنائه أو إعادة بنائه، وآثار ذلك على فعالية الأداء البشري أثناء عملية الإنجاز وكيف أنّ لرصيد الأفكار الذي يملكه المجتمع أو الفئة التي تضطلع بمهمة الإنجاز الدورُ الحاسم في تحديد مصير المشروع كلّه. إذ لفت انتباهنا إلى دولة ألمانيا بعد الحرب الكونية الثانية أين دُمِّر عالم الأشياء فيها عن آخره، ولكن سرعان ما أعادت بناء كل شيء، بفضل رصيدها من الأفكار الذي لم تصل إليه يد التخريب والتدمير.

صنفان من المجتمع

كما يميّز مالك بن نبي منذ البداية بين نوعين من المجتمعات، المجتمع الطبيعي (Natural Society) والمجتمع التاريخي (Historical Society). ويعتبر أنّ التمييز بينهما شرط حاسم وضرورة منهجية للتناول السليم لطبيعة المجتمع. هذان النوعان يستغرقان كل التجمّعات البشرية التي عرفها التاريخ البشري بحكم أنّ أي تجمع بشري إمّا أن يتّخذ شكل مجتمع طبيعي ساكن أو مجتمع تاريخي متحرّك. كما أنّ نقطة الفصل بينهما هي قانون الحركة (Movement) والتغيير (Change) ومقتضياته، كما سيأتي بيانه لاحقًا.

ومن خلال تحليل هذين النوعين من المجتمعات، يلفِت مالك بن نبي انتباهنا إلى مفهومين أساسيين لهما الأثر العميق في تحديد نظرة الباحث إلى طبيعة المجتمع ذاته وخاصة فيما تعلّق بميلاد المجتمع وتطوّره ومصيره. هذان المفهومان هما السبب (Cause) والوسيلة (Mean).

إنّ عدم التمييز بينهما له من الأثر على مسار الحياة البشرية ما يمكن أن يحدّد مصير أجيال لمّا تنقلب الوسيلة إلى سبب أو غاية بسبب اللبس الذي يصيب الفكر في بعض الظروف التاريخية التي يمر بها المجتمع. ذلك لأنّ السبب إنّما وُضِع ليفسّر الوجود ومبرّر الوجود والهدف من الوجود الذي ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان ويعمل من أجل تحقيقه في حياته. كما أنّ حضور الهدف بشكل واضح في حياة البشر له وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن التفسير وهي أنّه يضفي دلالة ومعنى متميِّزًا على الوجود البشري ذاته. أمّا الوسيلة فهي الأداة التي تساعد على تحقيق معاني السبب. والفرق بينهما واسع كما هو ظاهر. ف»الغريزة مثلاً، كما يقول مالك بن نبي، وسيلة لإنشاء المجتمع، وليست سببًا في إنشائه، إذ يضمّ المجتمع

ما هو أكثر من مجرّد مجموعة من الأفراد تدفعهم غريزة التجمّع ليؤلّفوا صورته، يضمّ عدداً من الثوابت (قيم ومبادئ)، التي يُدين لها بدوامه، وبتحديد شخصيته في صورة مستقلّة تقريبًا عن أفراده». [14] وبعبارة أخرى، فالمجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره، وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ؛ وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي... ويتجسّد في نهاية الأمر في شبكة علاقاته الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتوجِّه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به في التاريخ». [15] وهنا تحضرني في البال تلك المقاربات السياسية التي تريد أن تطبع مشروع تربية الأجيال بطابع السعي للاستجابة لمطالب الجسد، هذا، حتّى لا نقول البحث عن الطعام، بجعل الهدف الأسمى للتربية والتعليم والتكوين الحصول على منصب شغل مناسب يضمن للفرد «العيش الكريم» بحيث تُجنّد لهذا الهدف كل مقدرات المجتمع وهو في حقيقة الأمر ليس إلاّ وسيلة لما هو أهم من ذلك بكثير عندما نستحضر الفرق بين السبب والوسيلة كما نوّهنا آنفًا. ولهذا، فمن أهم ما ينبغي أن نقف عنده عند محاولة التنظير للتربية على طريق بناء مجتمع الحضارة ضرورة التمييز الدقيق بين مصطلحات هي في الحقيقة مفاهيم أساسية حاسمة في التعامل مع المشكلة التربوية. ويدخل في هذا السياق الفرق بين كل من السبب والوسيلة والهدف والغاية. فالتعامل معها يكون بالترتيب الذي قدّمناه بها لا غير.

المجتمع الطبيعي

يقول مالك بن نبي أنّ «المجتمع الطبيعي أو البدائي هو المجتمع الذي لم يعَدِّل بطريقة مُحِسّة المعالم التي تحدّد شخصيته منذ كان... فهو مجتمع ساكن ذو معالم ثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرات النمل أو النحل أو القبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار والقبيلة العربية في العصر الجاهلي». [16] ولذلك، فإنّ هناك نوعًا من التجمعّات البشرية التي لا تتجاوز مجرّد محاولة الاستجابة لمطالب الغريزة وعلى رأسها مطالب الجسد. ويتمثّل هذا النوع عادة في المجتمعات البدائية التي لم تتمكّن من القيام بأيّة محاولة لإحداث تغيير في خصائص أفرادها أو أسلوب الحياة أو أدواتها منذ لحظة ميلاده. كما يتمثّل أيضا في بعض المجتمعات الحديثة التي لم تستطع إحداث تغيير في بنيتها وخصائصها؛ إذ على الرغم من مرور عقود من الزمان على استقلالها لم تتمكّن من بلوغ درجةٍ من البناء الدالة على انتقالها من وضعية التخلّف الناتج عن السكون إلى وضعية التقدّم الناتج عن الحركة التغييرية الهادفة وفقًا لرؤية رسالية متكاملة لنموذج الفرد والمجتمع المنشودين.

---

[14]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 13.

[15]- نفسه: 14.

[16]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

وقد يجد بعض المتعاطفين مع الواقع صعوبة في التسليم بهذه الرؤية غير أنّ هذا هو الواقع الفعلي لهذه المجتمعات. إذ كيف يعقل أن تبقى بعض هذه المجتمعات عالة على غيرها من الأمم المتحرّكة على الرغم من أنّها قد تماثلها غيرها من الأمم المتحرّكة في العمق التاريخي الممتد في شعاب الزمان.

وكما هو واضح، فإنّ البساطة والسذاجة هما اللذان يطبعان مختلف مناحي النشاط البشري في مثل هذه التجمعّات ا لبشرية. بل وخاصية السكون في الفكر والعمل من حيث هي أخص ما يتميّز به أيضا. في حين أنّ غياب الحركة باعتبارها عملية تغيّر مستمّر وهادف نحو الأفضل لا يمكنُ أن تغيب عن عين الملاحظ لهذا النوع من المجتمع؛ بل يمكنك أن تغيب عن هذه المجتمعات ردحًا من الزمن فإذا عدت إلى ذات المكان وجدته لازال على حاله. غير أنّ التأمّل في مختلف ما كتبه مالك بن نبي عن طبيعة المجتمع يقودنا إلى الاعتقاد بأنّ مشكلة المجتمع الطبيعي لا تتوقّف عند حدود البساطة والسذاجة والسكون فقط بل تتجاوز ذلك إلى غلبة العجز عن التفكير الإبداعي الذي يمكّن المجتمع من اكتشاف مختلف البدائل لمواجهة المشكلات المستجدّة في الحياة اليومية من أجل التجدّد المفضي إلى التجديد.

كما قد يحدث لهذا المجتمع أن يكون غنيًّا بموارده البشرية والطبيعية والمالية ولكنّه يظل عاجزًا عن إحداث نقلة تنموية نوعية لأفراده في مختلف مجالات الحياة البشرية؛ فترى هؤلاء يعانون من مختلف مظاهر التخلّف في التفكير والتصرّف، والتوقّف عن ممارسة السلوك الحضاري؛ وما يتمخّض عنه ذلك الوضع من تجلّيات التخلّف مثل الفقر والبطالة والندرة والأمية بأنواعها المختلفة، التقليدية منها والحديثة، والتبعية وسوء التغذية وتفاقم نسبة الرسوب والتسرّب المدرسي وقابلية الاستلاب والآفات الاجتماعية والأخلاقية المختلفة مثل المخدّرات والفواحش والتسيّب واللامبالاة الجماعية والجرائم المنظّمة كتحويل الأموال وتبييضها؛ كل ذلك كتعبير عن فشل المجتمع في إيجاد وتجسيد منظومة تنموية راشدة تستولي على اهتمام الفرد وتستغرق جهده ولا تترك له مجالاً للتفكير في فضاءات أخرى غير مناسبة لتفريغ طاقاته الخلاّقة من جهة، وقصد الاستجابة لمطالبه الحيوية الطبيعية كإنسان بالعدل والإحسان من أجل التفرّغ للمهام التاريخية الكبرى من جهة أخرى.

إنه، ونتيجة لهذا العجز المركّب عن التفكير الإبداعي إن على مستوى الفرد أو مستوى المؤسسة يظهر ما يمكن تسميته بضيق الأفق الحضاري بحيث تضيق اهتمامات الناس وتقتصر في حدود مصالح «الأنا» ولكن بشكل مشوَّهٍ ومنحرف لا يخدم في الواقع المصالح الحقيقية للفرد ألا وهي تمكينه من ممارسة السعادة كمنهج حياة لا البحث عنها إذ ترى بعضهم يستغرق حياته من أجل جمع الثروة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، وبسبب ذهوله عن الغاية الأصلية لجمع الثروة والوسائل الشرعية لذلك تنقلب الوسيلة غاية فيصدق عليه معنى الحديث القدسي الذي رواه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن ربّه «...فتركض فيها ركض الوحش في البرية... ولا ينالك منها إلا ما قسمتُه لك...». فيقضي الفرد حياته في همّ وغم ولا ينال منها إلاّ ما كُتِب له منها.

وممّا يؤكّد ما ذكرناه آنفًا ما أشار إليه مالك بن نبي من أنّ المجتمع الطبيعي باعتباره مجتمعًا متخلّفًا «ليس موسومًا حتمًا بنقصٍ في الوسائل المادية، وإنّما بالافتقار في الأفكار؛ ويتجلّى ذلك خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفّرة لديه أو في عجزه عن إيجاد غيرها وعلى الأخص في أسلوب طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق... فهناك إذن فاقة حقيقية في الأفكار تظهر في المجال السياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة، عن الحركة، تتوافق من وجهة نظر علم الاجتماع مع الخصائص النفسية- الاجتماعية التي يتميّز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر».[17]

أليست أراضي بلاد الإسلام من أغنى بقاع الأرض من حيث ثرواتها الطبيعية والبشرية؟ فلماذا لا زالت تعدّ من أكثر دول العالم تخلّفًا على الرغم من مُضيّ أكثر من عدّة عقود على جلاء الاستعمار من أراضيها؟ فظاهرة التخلّف إذن ليست في انعدام الوسائل أو ندرتها على الأقل وإنّما في عجز العقل عن استثمارها بشكل يمكّن المجتمع من توفير ضمانات التقدّم بالمعنى الذي يرقّي الحياة البشرية ويرفعها إلى أفق التكريم الربّاني للإنسان من جهة، ومستوى على الفعل التاريخي المؤثّر من جهة أخرى. وفي هذا السياق، نبّه مالك بن نبي منذ البدء أنّ منهجه في تناول طبيعة المجتمع ليس معنيًا بهذا النوع من التجمّعات البشرية لأنّ «كل جماعة لا تتطوّر، ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع».[18]

كما أنّ الهمّ المركزي الذي استولى على اهتمامه منذ البدء هو أنّه عاش أزمة أمّته بكيانه كلّه فنذر حياته لها وابتعد عن كل ما يشغله عن ذلك. ولهذا، كما قال عنه عثمان بكر (1991) أنّه «مفكّر له أولوياته الفكرية بحكم أنّه لم يكن لِيسمحَ بفكره لِيجولَ في أية مشكلة».[19] ومن هذه الزاوية بالذات يبرز اهتمام مالك بن نبي بالتركيز على دراسة المجتمع التاريخي.

المجتمع التاريخي

إنّ المجتمع التاريخي هو ذلكم النوع من المجتمع الذي استطاع أفراده أن يتجاوزوا وضعية المجتمع الطبيعي بإضفاء بعد حضاري ودلالة تاريخية على وجودهم الكوني من خلال إدراكهم لحقيقة الوجود البشري في هذه الحياة والوظيفة التي أوجِد من أجلها الإنسان. وبناء على هذا الفهم والإدراك يتأسّس المجتمع التاريخي ابتداءً، أين يمارس عناصرُه المكوِّنة له نوعًا من التفاعل القائم ليس على أساس مبدأ المحافظة على النوع وإنّما على أساس أداء رسالة مقدّسة في الحياة، تليق بمقام الإنسان كمخلوق مكرَّمٍ يحظى بمركز متميِّزٍ في الكون والحياة؛ هذا، بصرف النظر عن طبيعة الرؤية الفلسفية التي يتبناها المجتمع بخصوص رسالة الإنسان المقدّسة في الحياة.

---

[17]- مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الإسلامي: 36- 37.

[18]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 16.

[19]- Bakar.O, Malik Bennabi's Philosophy of Science, p. 3.

وانطلاقًا من هذه الرؤية الكونية المتميِّزة، يمثِّل المجتمع التاريخي بالنسبة إلى مالك بن نبي، مجتمعًا ديناميكيًا متحرِّكًا يتّجه نحو الأفضل باستمرار؛ ولكن محكومًا بقوانين التغيير التي تستهدف التحسين المستمر لخصائصه.[20]

ولعلّ من المناسب، ونحن نناقش قانون الحركة باعتباره من أهم خصائص المجتمع التاريخي المتحضِّر، أن نشير هنا إلى النموذج الماليزي الذي عايشه الكاتب عن كثب أكثر من عقد الزمان فكان من أهم ما تمكّن من ملاحظته على هذا المجتمع التاريخي الناهض أنّ قانون الحركة الذي أشار إليه مالك بن نبي بل وجعله الأصل الذي نميِّز به بين المجتمعات، هو السمة البارزة بل والغالبة على حياة الإنسان فيه. إذ لا تكاد تجد مؤشِّرات السكون بارزة في أي منحى من مناحي الحياة البشرية عندهم.

والأكثر من ذلك، أنّ الإنسان الماليزي قد أصبح أشبه بعنصر واحد من عناصر محرّك كبير إذا تعطّل ساد العطب جميع العناصر المشتركة في تلك السلسلة؛ ومن طريف ما أذكر من تجربتي هناك أنّني في أوّل أيّامي كنت أسكن في منطقة تبعد عن العاصمة الماليزية كوالا لامبور ببعض الكيلومترات، ونظرًا لظروف شخصية متعلّقة بالمدرسة التي ألحقت بها أبنائي للدراسة فيها، إذ كانت المدرسة بعيدة فاضطررت إلى التنقّل إلى منطقة أخرى أقرب من العاصمة.

ولمّا كان لدي بعض الأصدقاء الماليزيين في منطقة السكن الأول، كنت حفظا ووفاء للصداقة التي كانت بيننا، أن أزورهم بين الحين والآخر. وقد حدث لي أن غبت عن المنطقة مدّة لا تتجاوز السنة الواحدة ولمّا ذهبت إلى هناك لم استطع أن أتبيّن الطريق المؤدي إلى المنطقة، ذلك أن التغيير بل التحسين الذي طرأ على المنطقة وتمدد العمران الذي تمّ إنجازه في مدّة قصيرة، كل ذلك يبدو من صنع الخيال خاصة في مجتمعاتنا العربية.

إذ وجدت أنّ معالم المدينة قد تغيّرت والطرق المؤدّية إلى المنطقة قد تعدّدت وتشابكت، ووجدت نفسي أمام مدينة جديدة لا عهد لي بها من قبل، وكأنّي لم أقطن فيها قط؛ فلم أصِل إلى بغيتي إلاّ بعد جهد جهيد ووقت مديد وسؤال عنيد؛ وأنا المواطن العربي الذي عاش في مدينة لا تزال طرقاتها بل وأرصفتها التي عبّدها الاستعمار شاهدة على إتقانه لعمله إلى اليوم. ولئن خضعت هي أيضًا لقانون الحركة والتغيير فإنّ التغيير الذي حدث إنّما هو الاضمحلال المتدرِّج نحو الزوال بسبب الإهمال واللامبالاة والتسيّب.

ومن أجل صياغة مفهوم متكامل للمجتمع التاريخي، يربط مالك بن نبي ربطًا عضويًا بين مصطلح المجتمع ومجموعة من المعايير؛ وأهم معيار من هذه المعايير هو قانون الحركة الذي يتضمّن الحركة ذاتها، ومبرِّراتها ووسائلها واتجاهاتها وأهدافها. ومن هنا، فإنّ صياغة مفهوم المجتمع التاريخي لا

[20]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

يمكن إلا أن يكون ضمن هذا الإطار لنتمكّن من إضفاء الدلالة التاريخية الضرورية له، عليه.

كما أنّ هذه المعايير أو بالأحرى المحدِّدات هي التي تعطينا القدرة على التمييز بين التجمع البشري وغيره من التجمّعات الأخرى. وهكذا، يصبح قانون الحركة (Law of Movement) عاملًا حاسمًا للتمييز بين التجمعات المختلفة، البشرية منها وغيرها. وبناء على ذلك، فإنّ الأشخاص الذين يمارسون عملية التغيير هذه إنّما يفترض فيهم فهم طبيعة الحركة التغييرية التي هم بصدد إنجازها وأهدافها ووسائلها وأدواتها كما متطلبات النجاح في هذا الإنجاز. غير أنّه يمكن الخلوص إلى أنّ فكرة الحركة ذات طابع تربوي أيضًا والسبب في ذلك هو أنّ السياق الذي تناول منه مالك بن نبي موضوع الحركة يدل على ذلك بوضوح. فقد أشار إلى أنّ حركة التغيير التي يقوم بها المجتمع أثناء مسيرته التاريخية إنّما تبدأ بتلك العملية المنهجية التي تستهدف تغيير خصائص شخصية الإنسان لنقله كما أشرنا سابقًا من وضعية الفرد إلى وضعية الشخص، ومن ثمّة تأهيله للاضطلاع بمهمة تغيير المجتمع وتمكينه من أداء وظيفته التاريخية.

ولا شك في أنّ عملية تغييرٍ هذه طبيعتها وتلك أهدافها ليست إلاّ عملية تربوية هادفة ومنهجية. ومن هنا، فإن الطبيعة التربوية للعملية التغييرية التي تبدأ بميلاد المجتمع أضحت واحدًا من أهم عناصر عملية بناء المجتمع التاريخي.

ولهذا، فمن غير المعقول التفكير في مشاريع البناء والنهوض بمعزل عن البناء التربوي للإنسان من حيث هو العامل المركزي للمشروع كلّه. فقد وجدنا في التاريخ المعاصر بعض الدول التي قطعت شأواً في التقدّم وقد كان الأساس الذي قامت عليه هو مبدأ الاستثمار في الموارد البشرية أو ما أسماه مالك بن نبي الاستثمار الاجتماعي (Social Investment)، على الرغم من فقرها الظاهر في مجال الموارد الطبيعية والمالية. وأبرز مثال على ذلك دول سنغافورة وهونغ كونغ وتايوان وماليزيا وبعض دول الشمال الأوروبي.

بناء المجتمع التاريخي

في البدء نشير إلى أنّه لا فرق عند مالك بن نبي بين بناء المجتمع التاريخي وبناء الحضارة أي، المجتمع المتحضِّر.[21] والسبب في ذلك هو أنّ المجتمع التاريخي والمجتمع المتحضِّر سيان في خطّة البناء وخصائص العناصر البشرية المكوّنة لهما وطبيعة الوظيفة التاريخية المتمثِّلة في تحقيق أهداف الوجود البشري في الحياة باعتباره وجودا هادفًا ومتميِّزًا عن وجود المخلوقات الأخرى. ولهذا، لا يمكن العثور على مجتمع بمواصفات المجتمع التاريخي ليس مجتمعًا متحضِّرًا في طبيعته.

ولتوضيح الأساس الذي ينطلق منه المجتمع لبناء نفسه، يشير مالك بن نبي إلى الجذور الروحية للمجتمع البشري ويجعلها قانونًا مطّرِدًا يتحكّم في نشأته كما في تطوّره وأفوله. فميلاد أي مجتمع إنّما

[21]- مالك بن نبي، تأملات: 162.

تظهر علاماته الأولى مرافقة لظهور فكرة تتّخذ طابعًا دينيًا ما في فجر حضارة من الحضارات؛[22] من حيث أنّ هذه الفكرة يُضفي عليها أصحابها نوعًا من القداسة.[23] وبعبارة أخرى، فإنّ «الظرف الاستثنائي الذي يسجِّل نقطة انطلاق في تاريخ مجتمع ما يتّفق مع ظهور فكرة دينية في فجر حضارة معينة».[24] كما أنّ هذه الفكرة التي غرست بذرتها في التاريخ تحمل في ذاتها المكوِّنات الأساس التي سوف يتشكّل منها المجتمع في التاريخ، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود. وبالنسبة إلى مالك بن نبي، تعدّ هذه الرؤية في منتهى الأهمية باعتبارها الأصل الذي ينطلق منه المجتمع في التعبير عن نفسه والانتقال من وضعية الوجود بالقوة إلى وضعية الوجود بالفعل.

ولقد سبق أن بيّنا أنّ المجتمع التاريخي قد يتمثّل في بداية عهده الجنيني في فكرة يحملها شخص يمثّل أمّة كما هو حال الأنبياء أو رجالات العلم والإصلاح الذين استطاعوا تغيير مجرى التاريخ البشري في لحظة من لحظات الوجود البشري على الأرض.[25] وبما أنّ العامل البشري يمثِّل الوحدة الأساس لبناء المجتمع، فإنّ النجاح في مثل هذا البناء إنّما يتوقّف على مدى نجاحنا في صياغة الشخصية البشرية وتأهيلها لمثل هذه المهام التاريخية الكبرى. وبناءً على هذا الأساس، يعتبر مالك بن نبي صياغة رؤية واضحة عن النموذج التربوي المنشود أو بتعبيرنا حاليًا عن طبيعة المنظومة التربوية التي سوف تتكفّل بإعداد النموذج المنشود والمؤهَّل لهذه المهمّة أمرًا في غاية الأهمية إذ لا يمكن تجاوزه بحال.

المحافظة على المجتمع من التدمير

لم يكن مالك بن نبي مهتمًّا بقضية بناء المجتمع المتحضِّر بقدر ما كان يولّي اهتمامه أيضًا للتفكير في الآليات التي تمكِّننا من المحافظة على هذا البناء ذاته، وذلك من أجل ضمان استمراره في التاريخ استمرارًا فعّالًا بشكل يضفي عليه دلالة تاريخية تبرِّر جدوى هذا الاستمرار ومقتضياته الرسالية. ولهذا، يمكن العثور في مختلف كتابات مالك على منهج متكامل يتضمّن آليات المحافظة على البناء الاجتماعي من أن تتناوله يد التخريب والتهديم أو القوارض كما يفضّل مالك بن نبي أن يسمِّيها؛ وسواءً أكانت هذه «القوارض» داخلية أم خارجية. ومالك بن نبي رحمه الله تعالى ليس بدعًا في هذا المجال. إنّ هذا المنهج في النظر إلى آليات بناء المجتمع المتحضِّر والمحافظة عليه إنّما هو من صميم المنهج القرآني في بناء الأمم الرسالية المتحضِّرة. وقد سبق علماء الإسلام القدامى مالك بن نبي في هذا المجال. إذ نجد مثلاً الإمام أبا إسحاق الشاطبي (توفِّي سنة 790 للهجرة) قد أصّل هذا المنهج القرآني عند استعراضه لنظريته

---

[22]- مالك بن نبي، شروط النهضة: 51.

[23]- قد تكون طبيعة الفكرة مشروعًا يرى فيه أصحابه خلاصهم في الحياة الدنيا أو ما بعدها، أو النموذج الأمثل للحياة استلهموا فيه وحيًا منزّلًا أو فلسفةً وضعية أو أسطورةً ما أو غير ذلك. والمهمّ أن صفة القداسة تكون ملازمة للفكرة التي يتمّ تبنّيها من طرف هؤلاء.

[24]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 55.

[25]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 17.

في مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد جاء في مستهلّ المجلّد الثاني من كتابه الموسوم «الموافقات في أصول الشريعة» أنّ:

«تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق... والحفظ لها يكون بأحد الأمرين، أحدهما ما يقيم أركانها ويثبّت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود. والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقَّع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم».[26]

ومن هنا، فإنّ مراعاة المقاصد من جانب الوجود إنّما يتمّ بفعل ما به قيامها وثباتها واستمرارها، ومراعاتها من جانب العدم إنّما يكون بترك ما به تنعدم وينقطع وجودها».[27] وبناءً على هذا، يعتبر مالك بن نبي أنّ الأمر لا يتعلّق بالمجتمع المسلم فقط وإنّما هو ظاهرة مطّردة في التجمّعات البشرية كلّها. ولعلّ هذا التعميم يتّفق فيه مالك بن نبي مع الإمام أبي إسحاق الشاطبي عندما أكّد أنّ هذه المقاصد وسبل المحافظة عليها معتبر في كل ملّة.[28]

ولهذا، تراه يؤكّد أنّ «جميع التعاليم المقدّسة التي يحيط بها مجتمع ما –ولو كان بدائيًا– حياته الاجتماعية، هي في الواقع ترجمة ذات أشكال خاصة عن هذا النظام الدفاعي الذي يحوط شبكته... وجميع القوانين التي أملتها السماء، أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، وبدونها لا تستطيع الحياة البشرية أن تستمر لا أخلاقيًا ولا ماديًّا».[29]

إذن، يعتبر مالك بن نبي هذه الآليات الدفاعية ذات دور حاسم في ضمان سلامة المجتمع من كل ما من شأنه أن يعطّل استعداده للاضطلاع بوظيفته التاريخية، مبرِّر وجوده واستمرار هذا الوجود. وأضاف مالك بن نبي إشارة مهمّة في هذا السياق، وهي أنّ المنظومة الثقافية للمجتمع باعتبارها منهجًا للتربية، هي التي تضطلع بمهمّة ضمان ها الجهاز الدفاعي.

ويتمّ ذلك من خلال ما توفِره لنا الثقافة من آليات الفهم والتعامل مع مختلف أنواع عوامل الهدم والتخريب الاجتماعي سواءً أكانت من الداخل أم من الخارج. ولهذا، فمن أهم ما ينبغي أن تحذر منه مشاريع بناء مجتمع ما بعد الاستقلال إهمالها اعتبار الرؤية المتكاملة للبناء أصلاً من الأصول التي ننطلق منها في التفكير والعمل أي، مراعاة البعدين في نفس الوقت، البناء والمحافظة على البناء لضمان الاستمرار.

---

[26]- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج2، ص. 8.

[27]- نفس المرجع السابق: هذا التعليق كتبه الشيخ العلاّمة عبدالله درّاز رحمه الله تعالى، المدرِّس بالأزهر الشريف سابقًا.

[28]- نفس المرجع السابق للإمام الشاطبي وفي نفس الصفحة.

[29]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 94

ترجمة ومناهج التعليم

تعليمية اللغات والبحث التجريبي

موغيال قروسبوا ترجمة: د. عبد القادر هني والأستاذة آسيا قرين

ملخص:

يعالج هذا المقال مسألة الملاءمة، ولكن أيضا حدود البحث التجريبي في تعليمية اللغات. بعد حصر الكلمات المفتاحية للبحث التجريبي في العلوم فإن اللجوء إلى هذا النمط من البحث في العلوم الإنسانية يغدو بعد ذلك موضوعًا للتحليل، ثم إن التفكير سيتركز على تعليمية اللغات وهو ما سيتبين من خلال كثير من الأمثلة التوضيحية. على إثر الحجاج، فإن السؤال الآتي سيطرح: أليس على أساس تعدد المقاربات يجب تصور البحث في ميدان شديد التعقيد مثل ميدان تعليمية اللغات؟

الكلمات المفتاحية: فرضية، تجربة، تفسير، متغير.

1- مقدمة :

في مقدمة كتاب «علم النفس التعليمي» ووسائل الاتصال المتعددة، يذكّر كرينون، جورجي ولوقرو وما نجونو، بـ«الثنائية المستخلصة فيما يخص البحوث في التعليمية». المقصود من جهة «البحوث التي تسعى للإمساك بالواقع في تعقده مثل دراسة الحالات في علم النفس وفي منهجية الأناسة» ومن جهة أخرى «البحوث التي تستخدم طريقة افتراضية استنباطية وفي الغالب تجريبية» (لوقرو- و كرينون، 2002:11).إن وجهات النظر المختلفة هذه ذكرها أيضا شابيل (شابيل،2003:70).

المؤلفون المذكورون آنفاً يوضحون أن «الانتقادات –من هنا ومن هناك– قوية»: «نقص «الصرامة» واستخدام طريقة حدسية أكثر منها علمية» في حالة، وفي حالة أخرى نقص المراقبة الصارمة للوضعية، على أساس أن القول، من ناحية أخرى، إن جميع الأشياء متساوية «:[....] لا يسمح بعرض الواقع «(لوقرو،و كرينون 11:2002)، بمعنى إنه، لا يسمح بعرض تعقد الوضعية التعليمية.إن أصنافا كثيرة من البحث يمكن تصورها في تعليمية اللغات. واستنادا إلى قانيه وآل (قانيه وآل، 1989) اللذين تتعلق أعمالهما بتعليمية اللغة الفرنسية من حيث هي لغة المنشإ، فإننا نحتفظ بأن البحث يتميز بمعيارين: معيار الهدف، ومعيار المنهجية. فيما يخص البحث التجريبي، إن الغاية هي التفسير، بإجراء تجريب يمكّن من إثبات أو دحض التوقعات (أي الفرضيات).

إن سيمار الذي عاد إلى تصنيف فرقة قانيه يقول موضحا: «انتسابًا إلى طريقة افتراضية استنباطية، فإن البحث التجريبي يهدف، في ضوء إطار نظري، إلى التأكد من علاقة السبب والنتيجة بين المتغيرات بمعالجتها بوساطة جهاز تجب مراقبته بدقة «(سيمار، 1994:187).

من خلال هذه الشواهد، نسجل في مرحلة أولى، أن الأفكار الأساسية فيما يخص البحث التجريبي، فضلا عن إثبات/عدم إثبات فرضية ما هي: وضع جهاز صارم، المتابعة الدقيقة لبروتوكولٍ، تعيين المتغيرات، مراقبة الوضعية، وكذلك إنشاء علاقة سببية (على أساس استدلال افتراضي استنباطي) للتوصل إلى تفسير.

هي مفاهيم يجب تعميقها ليتحدد بالدقة الممكنة معنى البحث التجريبي بهدف تحليل أو دراسة الملاءمة ولتتحدّد، كذلك، الحدود في تعليمية اللغات ؛ لذلك نقترح أن نحدد ابتداء وباختصار البحث التجريبي في حقله التطبيقي الأصلي ثم ندرس إلى أي مدى يمكن تطبيقها في العلوم الإنسانية وتخصيصًا في تعليمية اللغات.

2- البحث التجريبي: من العلوم إلى العلوم الإنسانية

طبقا للتطور التاريخي سنحاول هنا حصر البحث التجريبي في العلوم ثم في العلوم الإنسانية.

2-1- البحث التجريبي في العلوم :

في عرض تاريخ البحث التجريبي في العلوم، حرصنا على تعيين ما قدم من تعريفات عنه وكذلك المراحل التي ميزته.

في 1865، كتب كلود برنار في مقدمته لدراسة الطب التجريبي: «المنهج التجريبي من حيث هو منهج علمي، يقوم في مجمله على الفحص التجريبي لفرضية علمية» (برنار 1966:304).

المختبر [...] يطرح [...] فكرته في صيغة تساؤل، كتأويل مسبق ومحتمل للطبيعة، ويستنبط منه نتائج يقارنها في كل لحظة مع الواقع بوساطة وسائل الاختبار» (برنار 1966:60).

بالنسبة إلى برنار أب الطريقة الاستنباطية إن الفرضية هي الأساس، فهي تتقدم الواقع ويتم التأكد منها بعد ذلك عن طريق التجربة.

نجد هنا فكرة عبّر عنها من قبل شيفرول في 1865 فقد قال: ظاهرة تلفت أنظاركم تفحصونها على نية اكتشاف السبب، لهذا تفترضون سببا وتسعون للتأكد منه باستخدام التجربة [...] هذا الاستدلال يمثل المنهجية التي أسميها تجريبية، لأن، في نهاية المطاف، التجربة هي المراقبة، هي معيار الدقة في الاستدلال عند البحث عن الأسباب أو عن الحقيقة».(شيفرول 1865 27- 29)

بعبارات أخرى، نضع الفرضيات ونراقبها بمقارنتها بالوقائع، توضع الفرضيات في محك الاختبار. فالعلم –على هذا– يبحث، عن بناء تصور أكثر دقة عما نطلق عليه «الواقع» حسب فرانسوى جاكوب (جاكوب 25:1987)، وذلك بإنشاء علاقات وإظهار الآليات بدقة أكبر. فإذا استندنا خاصة إلى جوردان الذي يرى أن «العلميين يحددون المشاكل، يعملون الملاحظات، يقومون بالتجارب، يقترحون الفرضيات، ينشؤون النظريات ويختبرونها، يبلغون نتائجهم في كل وقت إلى زملائهم» (جوردان، 83:2004)، فإنه يمكن أن تعرف الطريقة التجريبية بأنها مقاربة تبنى حول المراحل الآتية:

- مساءلة
- مشكلة للحل
- صياغة فرضية (انطلاقا من مراجع نظرية)
- اختيار الفرضية. بعد التخطيط للمعطيات التي يجب جمعها وكذا تهيئة الإجراءات والمتابعة، تكشف النتائج وتحلل وتفسر. عندئذ تقارن النتائج المفحوصة، بمعنى، تُقارن النتائج المُختبرة مع الفرضيات الموضوعة.

- تحقيق يسمح بالتصديق
- تعميم (الحرص على ألاّ يتجاوز التفسيرات الممكنة بناء على النتائج المسجلة، نصوغ علاقة مجردة للتوصل إلى التفسير بل إلى نماذج تفسيرية أو إلى علاقات نظرية. يوضح جوردان ذلك فيقول: «الاستنباط، مقاربة عقلانية تسهل التفسيرات السببية [...] بينما المقاربة الاستقرائية تفسح المجال لكثير من التفسيرات الوصفية» (جوردان 46:2003)

يسجل أيضًا من جهة أنه في حالة الاستقراء يستحيل منطقيا المرور من الخاص إلى العام ومن جهة أخرى في حالة الاستنباط فإن الاختبارات تؤدي إلى اليقين فقط عندما تثبت البراهين أن فكرة ما خاطئة وهذا بالإحالة على بوبر، وإلا فإنه ممكن أن نذهب فقط إلى أن الفرضيات مثبتة.

- المرحلة الأخيرة هي مرحلة تبليغ النتائج
- نسجل أيضا أنه عند الاختبار من المهم أن:
- نميز المتغيرات المرتبطة بالظاهرة المدروسة
- نغير في كل مرة عاملاً واحداُ فقط، يقول دو فيكشي مذكرا:

من المهم [إذًا] تحديد مختلف العوامل التي تتدخل في ظاهرة ما، فليس هناك غنى من تحليلها الواحدة تلوى الأخرى، مفصولاً بعضها عن بعض. يتعلق الأمر بالنسبة لكل واحد من هذه العوامل

بتنويعها، وخلال هذا التنويع تُبقى العوامل الأخرى على حالها (دو فيكشى 2006:142- 143).

وفضلًا عن ذلك وكما يلخصه جوردان:

«إنّ التجارب هي ملاحظات تتم تحت المراقبة، خالقة ظروفا، واحدة ومن وظائفها الأساسية أن تسمح للأخرى أن تُنجز تجارب مماثلة في مواطن مختلفة وفي أزمنة مختلفة أيضًا».

بمعنى إن التجربة يجب أن تكون تحت المراقبة ومتوالدة. وهنا نلتقي مع أقوال مِيالارِي الذي يقول مصرحًا:

«المهم هو إعطاء النتائج التي –مُحصلًا عليها حسب قواعد محددة– تمكن جميع الباحثين من التوصل إلى نفس التفسيرات للنتائج». (مِيالارِي، 20:2004)

النقاط المفاتيح للبروتوكول التجريبي الذي يستخلص هنا، والذي يضاف إلى المُستشفّة من المقدمة هي: عزل المتغيرات لتغييرها مفصولًا بعضها عن بعض، توالد الوضعية التجريبية، وتعميم النتائج المستخلصة.

لننظر الآن إلى أي مدى يمكن أن تطبق هذه المنهجية في البحث على العلوم الإنسانية.

2-2- شبه التجريبية في العلوم الإنسانية:

يسجل كوك وكامبيل صعوبةَ القيام ببحث تجريبي في العلوم الإنسانية والاجتماعية فيقولان: ولنتأمل كيف أن الفيزيائي محظوظ جدا مقارنة بعالم النفس السلوكي الذي يقوم بعمله في الميدان. إن الفيزيائي بمستطاعه استخدام المخبر لخلق عزل فيزيائي، ثم إنه أو إنها يشتغل في مواد ليست معرضة للتغير في أثناء الاختبار.هكذا فإن عامل الزمن والنضج أو التناقص لا تمثل مشكلة في هذا الكائن (المخبري) ثم إن معطيات المجموعة الواحدة المتغيرة قبل وبعد الاختبار لها عادة أسبابها القابلة للتفسير... إن عالم الاجتماع، بالمقابل، لا يملك سوى القليل من الامتياز الذي للفيزيائي [...] بالنسبة لعالم الاجتماع فإنه يحاول أن يجد تفسيرات للأسباب والأسئلة المطروحة في إطار اجتماعي شديد التعقيد أين تكون كيانات الكائنات المدروسة ذات حساسية واضحة للتغير، لأسباب لا يملك ما يختبرها به. (كوك وكامبل 1979: 102- 103). هؤلاء المؤلفون يعبرون في نص كلامهم انه من الممكن في العلوم الفزيائية انشاء علاقة السبب بالنتيجة لأن الظروف المخبرية تسمح بالعزل، ولأن الباحث يشتغل عادة على مواد لا تتبدل خلال فترة الاختبار تظهر الوضعية بالمقابل أكثر تعقيدًا في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

في الحقيقة مثلما رأيناه سابقا في إطار البحث التجريبي كل شيء يجب أن يكون قابلًا للمراقبة والتحقق وإعادة الإنتاج وللحساب من جديد وبالإضافة إلى ذلك، تفترض التجريبية مقارنة النتائج المتحصل عليها في وضعيات نعرف متغيراتها ويمكننا تبديل واحدة منها لدراسة تأثيرات ذلك في البقية.

بينما في العلوم الإنسانية والاجتماعية وبالأخص في التعليم/التّعلم تطرح الصعوبات الآتية.

- يمكن لمؤثرات العوامل الخارجية أن تتدخل أثناء التجريب. حقا إن هذا التأثير يمكن أن يكون في بعض الحالات محدداً بمدة مختزلة من فترة التجريب.

ولكن في تعليمية اللغات مثلًا، نعرف من ناحية أخرى أن التدريب هو مسار طويل وأن مدى التحسن لا يتبين دائمًا في فترة وجيزة من الوقت (تظهر بالأحرى في مدى متوسط أو بعيدٍ)

- وجود عدد كبير من المتغيرات وكون عددٍ منها لا يشاهد مباشرة، فكيف يمكن إذًا الاشتغال على متغير واحد وإبقاء المتغيرات الأخرى ثابتة؟ نحن هنا في مواجهة مشكلة مراقبة المتغيرات ما دام عدد العوامل المتفاعلة فيما يخص التعليم / التعلم مترفعًا. حقيقة،إن الوضعيات البيداغوجية تجعل، المقاربة التي تسعى لربط السبب بالنتيجة صعبةً.

- استحالة إعادة إنتاج وضعية تربوية مثلما هي في الأصل كما يشرح ذلك ميالاري يقول:

«الوضعيات التربوية منظور إليها من زاوية وجودها الحقيقي هي واحدة، بمعنى لا تتولد بصورتها الأولى لا في المكان ولا في الزمان. ما أن تتحقق وضعية ما، فإن جميع الفاعلين يتغيرون، بحكم أنهم عايشوا هذه الوضعية. ومحاولة التكرار أو إنتاج الوضعية من جديد لا يمكن أن يجد المشاركين فيها في نفس الظروف» [ميالاري 10:2004]

لذلك، واعتبارًا لتعقد وضعيات التعليم /التعلم، الذي يعود إلى الحقيقة المتعددة العوامل التي تميز تلك الوضعيات، فإن مخططات شبه تجريبية هي التي تستخدم في العلوم الإنسانية عندما يؤخذ بهذه الطريقة.

هكذا، نختار ألا نعتبر سوى عدد من المتغيرات وأن نجمع معطيات واضحة قدر الإمكان، وأن نشكل مجموعات متساوية تقريبا لنجري على واحد ة منها عملية التجريب ونقارن بعد ذلك النتائج المتحصل عليها بأكبر قدر من الموضوعية.

ولنهتم بصفة خاصة الآن بالبحث (الشبه تجريبي) في تعليمة اللغات، أو نستطيع القول، إنه من اختيار الباحث التموقع بالأحرى في جهة البحث (الشبه) تجريبي.

3ـ تعليمية اللغات والبحث (الشبه) تجريبي:

نعلم أن موضوع البحث في تعليمية اللغات يتصل بعملية تفاعل بين كثير من العوامل، ويمكن تصور أصناف مختلفة من البحث وهذه الأصناف ينظر إليها عادة كثنائيات مثلما بيناه في المقدمة. إنّ الاختيار المنهجي للباحث يرتبط بتموقعه، لذلك فإنه من المهم أن يحدده بوضوح.

3-1- تموقع الباحث:

يُذكّر نارسي كومبس بالعوامل التي تتدخل في التموقع من خلال الأسئلة الآتية:

- هل البحث تركيبي أم تحليلي؟
- هل الأهداف تحقيقية أم استنباطية؟
- ما هي المراقبة أو درجة المراقبة في سياق البحث؟
- من أي صنفٍ هي المعطيات أو مجموعة المعطيات؟ (نارسي كومبس 100:2005) يعرض المؤلف بعد ذلك عناصر التقييم في شكل مُتّصِلَةٍ (الشكل 1) ويوضح ذالك كما يلي:

نستطيع تحديد الصنف، بناء على الكيفية التي يسمح بها بحث ما بتسيير عناصر التقييم (نارسي– كومبس 103:2005)

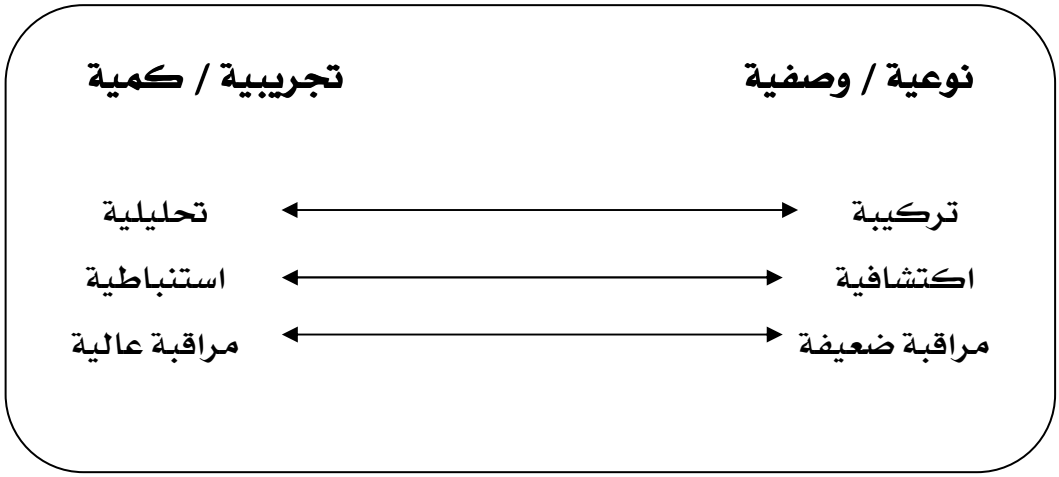

شكل 1 (نارسي - كومبس، 103:2005)

كيف يتحدّد إذًا البحث (الشبه) تجريبي نتيجة لموضعة البحث في تعليمية اللغات على أساس هذه المتصلات؟

3-2- اختيار البحث (الشبه) تجريبي

نارسي كومبس يوضح:

في هذه المجموع من المتصلات، يتموضع البحث التجريبي من جهة التحليلي، الاستنباطي، مع مراقبة عالية لمعطيات واضحة (نارسي- كومبس103:2005) نلتقي هنا ومع التعريف الذي اعطيناه

آنفاً للبحث التجريبي الذي مفاده دراسة مركبة ظاهرة كلية،حسب الطريقة التنازلية التي وضعنا مختلف مراحلها في الفقرة 2،1.

ويضيف نارسي- كومبس إنه بالاستناد إلى الترسيمة الموالية المستعارة من جيون (Juan) (الشكل 2)، فإن البحث التجريبي يمكنه أن يستعين بـ:

. المقابلات و/ أو البحث العملي في مقاربة تتعلق بالفهم.

- استبيانات صيغت وفق نظريات و/ أو تجارب مخبرية في مقاربة تفسيرية (نارسي- كومبس، 104:2005).

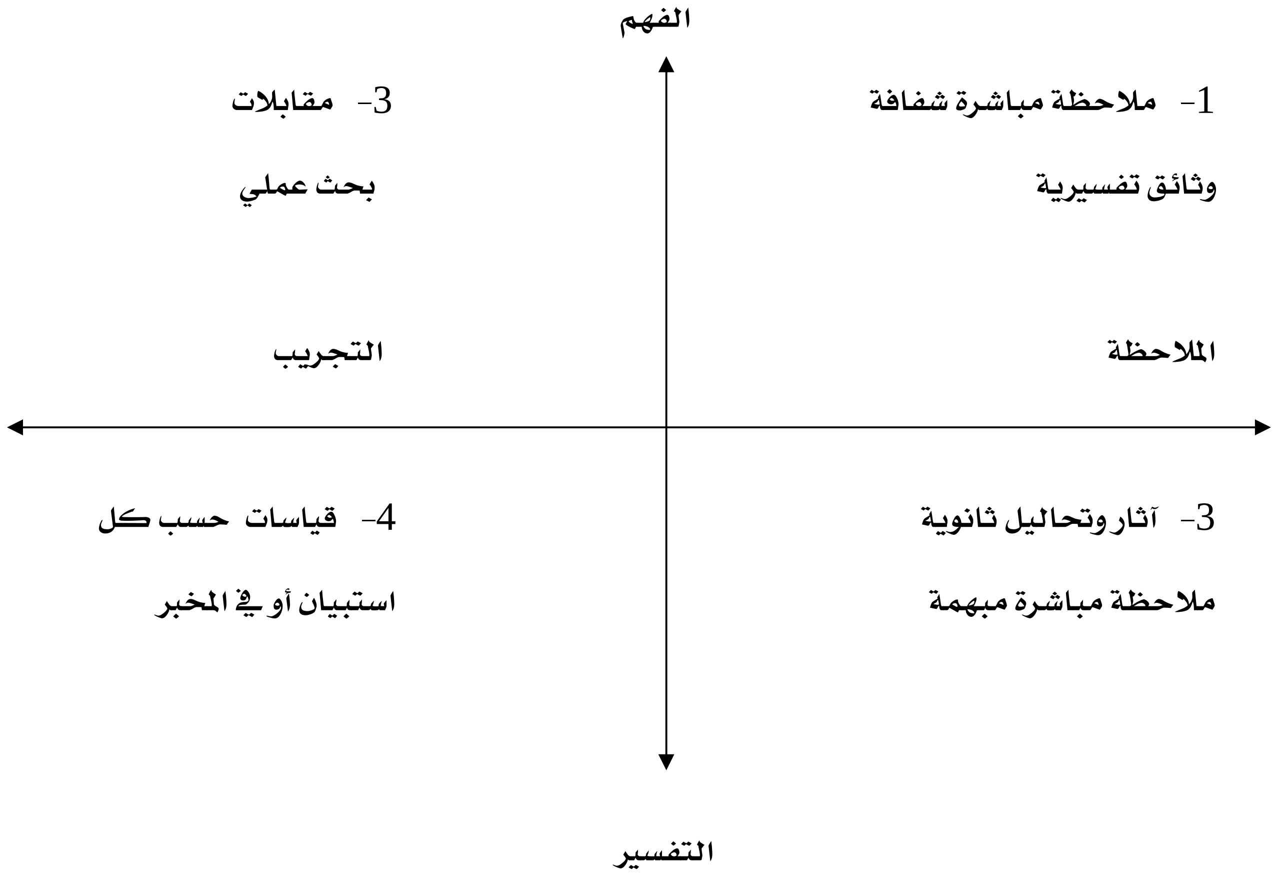

شكل 2 (جيون- Juan، 1999:13)

يُمكّن هذا من تجاوز النظرة الثنائية التي استخلصناها ابتداءً، كما يمكّننا من أن نعتبر أن في تعليمية اللغات يوجد تكامل بين مختلف المقاربات شريطة أن تكون الاختيارات المنهجية منطقية واستخدام الأدوات متسقاً.

4- أمثلة في تعليمية اللغات:

آملين تخصيص القسم الثالث من هذا العرض لأمثلة البحث (الشبه) تجريبي في تعليمية اللغات، نلاحظ أنها (أي هذه الأمثلة) تتنزل إما في إطارٍ (شبه) تجريبي وإما في تقاطع منهجي (على اعتبار أنها تستعين جزئيا بالتجريبي) يوضح لنا هذا ما سبق قوله من كلام في تكامل المقاربات في ميدان شديد التعقيد مثل ميدان التعليم / التعلم في اللغة 2 (ل2).

4-1- أمثلة البحث (الشبه) تجريبي:

4-1-1- التجريبية في أثر ازدواجية الترميز المتزامن للنبر في اللغة 2:

قام بهذه الدراسة استانتون وبيشو وفايون سيرداي واتريكو، وقُدمت في الملتقى الدولى الأول للتعليمية المعرفية في تولوز من 26 الى 28 جانفي 2005 (استانتون وآل، 2005).

نوضح ابتداء أن أعمالهم تتعلق بالصعوبات التي يجدها المتعلمون الفرنكفونيون في ترميز المعلومة ذات العلاقة بالنبر الصوتي المشدد في الإنجليزية وبالتالي حفظها وإنتاجها أو إعادة إنتاجها.

يهدف المشروع إلى تطوير نظام خلاق يسمح سمعيًا وبصريًا بتبيان المقطع المنبور في كلمة من الكلمات لتركيز انتباه المتعلم على هذه النقطة الحساسة التي هي النبر في الإنجليزية. ولنفحص الطريقة التجريبية التي استعملها هذا الفريق من الباحثين. فرضياتهم هي:

- إن الترميز المزدوج للمقطع المنبور يُحسّن أداءات المبتدئين.
- إنه لا يُحسّن أو يُفسد أداءات الخبراء.
- إن هذا الأثر المزدوج يلاحظ من خلال كيفيات الإعادة مكتوبة وشفوية.
- إن الأداءات تكون في عمل استذكاري مكتوب أحسن منها في عمل استذكاري شفوي.

وقد اختبروا هذه الفرضيات تجريبيًا بالكيفية الآتية:

أُنْشئَتْ ثلاث فرق من المشاركين: الخبراء / الوسطاء / المبتدئون وقدمت لهم قوائم من عشر كلمات إنجليزية، كل واحدة حسب كيفيتين [1] مختلفتين:

- ترميز سمعي فقط.
- ترميز مزدوج (سمعي وبصري).

1- نوضح أن البرتوكول أدرج ثلاث كيفيات ولكننا لم نذكر سوى اثنتين.

فيما يتصل بالبرتكول والقياس نسجل أن:

- كل مجموعة قسمت إلى مجموعاتٍ صغرى.
- كل مجموعة صغيرة تشتغل على طريقة واحدة لتقديم الكلمات.
- كيفيات الإعادة هي اختبارات استذكار مكتوبة وشفوية. في حالة الاستذكار المكتوب، يستمع الطالب للكلمة ويضع علامته على الورقة معيداً إنتاج قائمة العشر كلمات واضعاً المقطع المنبور مقابل الكلمة المناسبة. في حالة الاستذكار الشفوي، يستمع الطالب للكلمة ويتلفظ بها. تكون الأجوبة مُرمّزة بشكل ثنائي: النبر الصوتي المُشدّد الموضوع بشكل صحيح =1. النبر الصوتي المُشدّد الموضوع بشكل خاطئ=0.

يحلل الباحثون، بعد ذلك، النتائج المتحصل عليها، وهو ما يُمكّنهم في مرحلة ثانية من المصادقة أولًا على فرضياتهم الأولى التي وضعت على محك الاختبار.

ويضيفون - للانتهاء- أن التجريب الذي هم بصدده يسعى لاسترداد الآثار المتحصل عليها بجهاز أكثر تعقيداً أو أكثر ملاءمة من وجهة نظرٍ تعليمية (بدلًا من قائمة من الكلمات، أو ملفوظات تكون مقترحة).

بمثل هذه الطريقة (الشبه) تجريبية يمكن أن نحتفظ بالنقاط المفاتيح الآتية:

❖ يتعلق البحث هنا بميدان محدد تحديداً جيدا.

❖ إن مجموعة المستويات في البرتكول تكون مُكّونة حسب هدف البحث ولا تُبدّل في المرة الواحدة سوى متغيرة واحدة (الترميز البصري)، نلاحظ بعد ذلك ماذا يحدث بالنسبة لكل مجموعة من المستويات المختلفة.

❖ إن وضع الفرضيات على المحك يسمح بالعودة إلى هذه الفرضيات (التي تكون مصادقًا عليها عندئذ أو لا).

❖ الإطار التجريبي يسمح بالحصول على دقة في الملاحظة تتيحها وضعية المخبر.

النتائج غير مرتبطة بسياق، فهي إذًا ذات قيمة عامة، بالمقابل لا نتموقع في إطار ممارسة حقيقية، لا نأتي إذًا بمعلومات إضافية عن الوضعية التعليمية بالمعنى الواسع، ولكن التجريبية ليست خالية من نتائج عملية (وان كانت غير مباشرة). إن هذا النظام، في الحقيقة، يُمكن، في النهاية، أن يسمح للمتعلمين الفرنكفونيين أن يَفْهمُوا أصحاب لغة المَنْشَإِ، ونعلم إلى أي مدى يبدو هذا الأمر ضروريًا حتى لو وضعنا في

الاعتبار فقط آثار المنشئية الفونولوجية التي تؤثر أثناء تعلم اللغة الثانية والتي تجب مقاومتها.نذكر أن المنشئية وهو مفهوم طوّره أندرسون (أندرسون 1983)، مفاده دراسة كل معطى لغوي جديد بناء على معايير مستوعبة من قبل من بينها تلك المتعلقة باللغة الأولى (ل1).إن اللغات الأخرى المكتسبة سابقًا والتصورات التي يكونها المتعلمون عن اللغة الثانية تتداخل هي أيضًا.

4-1-2- التجريبية في أثر العنونة الفرعية في اكتساب ل2

هذا البحث قام به بوراس ولافَاييت في 1994 (بوراس ولافاييت 1994) وقد صنفه شابيل كبحث شبه تجريبي (شابيل،91:2003).

تتناول الدراسة أثر الدخول إلى العناوين الفرعية للفيديو في الإنتاج الشفوي للغة الفرنسية بصفتها لغة ثانية (ل2). نلخص على النحو الآتي البرتكول المقدم.

شُكِلتْ مجموعتان من المتعلمين، يقوم بعض المتعلمين بمعاينة الفيديو ويمكنهم الدخول الى العنونة الفرعية عندما تواجههم صعوبة فهم الكلام الشفوي. تعاين البقية نفس الفيديو في الشروط نفسها، ولكن لا يمكنهم الدخول إلى العنونة الفرعية.

وقد تمّ قياس الإنتاج الشفوي بأن طُلب لمتعلمي المجموعتين بتقديم معلومات عن محتوى الفيديو. وتم تقييمهم على أساس أربعة معايير (الفعالية، الدقة، التنظيم والسيولة). وقد ظهرت النتائج عالية في حالة إمكان الوصول إلى العناوين الفرعية.

2- يقتصر هذا الملخص على النقاط الأكثر مناسبة للتقديم

النتيجة المستخلصة، في إطار العمل انطلاقًا من سند فيديو حقيقي، هي أن إمكانية مشاهدة ومراقبة العناوين الفرعية تُحسن العبارة في ل 2 (فضلًا عن الفهم).

النقاط المفتاحية المبينة في المثال السابق تَصدُق كذلك بالنسبة إلى هذا المثال. نلاحظ في الحقيقة أننا في هذا البرتكول الشبه تجريبي نشتغل على متغيرة (الدخول ممكن الى العناوين الفرعية)، ثم نقتبس ونقارن النتائج المتحصل عليها من قِبَل متعلمي المجموعتين (المجموعتان اللتان نستطيع اعتبارهما شبه متساويتين).

2-4- أمثلة الالتقاء المنهجي

1-2-4- بحث في تأثير أداة الكتابة :

هذه الدراسة التي قادها اسنايدير في 1994 (اسنايدير، 1994) تسعى لتحليل تأثير أداة الكتابة (معالجة آلية للنص أو بقلم الرصاص) على نوعية النصوص التي ينتجها المتعلمون وعلى مسار الكتابة وكذا على سياقات التعليم/التعلم.

أجريت التجربة خلال سنة دراسية في قسمين للسنة الثامنة. وقد كان للمتعلمين نفس المعلمة وقاموا بنفس النشاطات الكتابية. استعمل تلاميذ القسم الأول المعالجة الآلية للنص فقط، أما تلاميذ القسم الثاني فحرّروا بقلم الرصاص فقط. النصوص المنتجة (سردية، حجاجية، إخبارية) تَمّ تقييمها مُغفلةً من قبل مُقيّمين خارجيين. ووضح المؤلف أن المنهج الشبه تجريبي ب (اختبار قبلي واختبار بعدي).

أُكْمِلَ باستبيانات وملاحظات ومقابلات.

نتائج هذا البحث هي أن:

• نوعية النصوص (خاصة الحجاجية والإخبارية) التي أنتجتها المجموعة التي استعملت المعالجة الآلية للنص أفضل من نوعية النصوص التي أنتجتها المجموعة التي استعملت الورق/قلم الرصاص.

• النتائج لا تبين الفرق بين المتعلمين في استراتيجيات التخطيط والمراجعة.

• ثم كشف الاختلافات في السياق البيداغوجي بين القسمين، على سبيل المثال القسم الذي استعمل قلم الرصاص يظهر ميلاً للتمحور حول المعلمة، بينما يتعامل التلاميذ المستعملين للمعالجة الآلية للنص فيما بينهم في إنجاز العمل ويكتشفون أكثر مختلف إمكانات الكتابة.

نلاحظ في هذا المثال اللجوء إلى الكمي وإلى النوعي. لذلك نحصل أيضا على معلومات عن وضعية التعلم (خلافا للأمثلة السابقة التي تستعين بوضعية مخبرية لا بالميدان)، بدقة أكبر . إن تنوع أدوات جمع المعطيات المستخدمة، بالتلاؤم مع هدف البحث، مكَّن من ربط العلاقة بين تأثير أداة الكتابة على النصوص المنتجة وبين سياقات تعليم/تعلم،لأن إحدى نتائج المؤلف هي أن معالجة النص آليا مكن من وضع آليات جديدة للعمل من صنف المساعدة والتعاون والتي تمنح الأولوية لتعلّم إنتاج النصوص.

• نجد هنا أهمية تكامل المقاربات التي قدمناها في الفقرة 2.3 ونلتقي مع وجهة نظر فريق قانيه التي لخصها سيمار كما يلي:

• «يمكن لبحثٍ أن يكون كميًا ونوعيًا في الوقت نفسه، إذا، مثلًا، فضلًا عن استعمال مخطط تجريبي وتحاليل إحصائية، يلجأ الباحثون إلى تقنيات نوعية مثل المقابلة أو دراسة حالة للفهم الجيّد لما يحدث مع التلاميذ أثناء المعالجة البيداغوجية المعروضة للاختبار» (سيمار 1994:488).

4-2-2- الدخول المفاجئ في البحث الشبه تجريبي في إطار بحث –عمل

هذا المثال عبارة عن بحث قمنا به (قروسبوا 2006) وهو مشروع جماعي يتعلق بإنشاء وسائل اتصال متعددة بين أساتذة المدارس المتربصين التابعين للمعهد الجامعي لتكوين المعلمين لباريس وطلبة المعهد الملكي في لندن- هؤلاء الشركاء تواصلوا بالإنجليزية عن طريق البريد الالكتروني لإنشاء مصدر معلومات رقمي مشترك. افترضنا أن مشروعًا كهذا يمكن أن يكون بمثابة وسيلة لتعلم الإنجليزية كلغة ثانية بالنسبة إلى متربصي المعهد الجامعي لتكوين المعلمين. ويتعلق الأمر، ببحث من صنف بحث . عمل الذي سمح لنا بقياس مدى وحدود الترتيبات المعمول بها في مقابل الهدف المرسوم والوصول إلى اقتراحات جديدة فيما يخص التكوين (طبقا لحلقة، البحث –عمل)، لكن هذا البحث يتضمن قسمًا من مستوى شبه تجريبية بالنسبة لما اتصل بدراسة ظاهرة المَنشَئِية الفونولوجية.

دراسة هذه الظاهرة مبررة من حيث إن العمل الأكبر لمخطط التكوين يعني بالنسبة إلى المتربصين أن يتم التعامل شفويًا مع مجموعة القسم فيما يخص محتوى البريد الإلكتروني الذي وصل كل واحد منهم من شركائهم في المعهد الملكي. من هنا فإن الإسهام الحقيقي الذي سيؤدي دور السند لإنتاجهم الشفوي سيكون من الصنف المكتوب حَصْريًا، فهو إذًا خال من البعد الفونولوجي، بينما المراجع النظرية تبين أن تعلم ل2 تعاني مشكلة تداخل ل 1 (من بين أخرى) المرتبطة بظاهرة المنشئية فضلًا عن ذلك فإن شان وفورستر (شان وفورستر 1999) لا يستبعدان أن النشاط الفونولوجي يكون آليًا أثناء عملٍ إنتاجي شفوي مصدره سند مكتوب، والسؤال الذي سنطرحه إذًا يتصل بالمخطط الذي وضعه المتعلمون الذين يقومون بعمل إنتاجي شفوي كبير يستند إلى الإسهام المكتوب. ألا يوجد هنا خطر للمنشئية أكبر من الحالة التي يكون فيها الإسهام من الصنف الشفوي؟ للمصادقة أولًا على هذه الفرضية التجأنا إلى تجريبية تعتمد مقارنة الإنتاجات الشفوية للمتربصين انطلاقًا من سندات مكتوبة (البريد الالكتروني الذي وصلهم من مراسليهم الناطقين بالإنجليزية)، والإنتاجات الشفوية للمتربصين انطلاقًا من سندات شفوية (تسجيلات على الأشرطة).

في مرحلة أولى قمنا، بالنسبة لجميع المتربصين، بتحديد عناصر كل إنتاج من إنتاجاتهم الشفوية وكذا عناصر السندات المناسبة (أي التسجيل في أشرطة والبريد الكتروني)، بوساطة جهاز مُطابقة. وقد مكّن جهاز المطابقة، في مرحلة ثانية من جدولة العناصر المنتمية في نفس الوقت للمنتوج الشفوي وللسند

المناسب على شكل قوائم، ثم اخترنا لكل قائمة مُعدّة على هذا النحو، العناصر التي تمثل انحرافًا في النطق بالنسبة إلى الأهداف المرسومة.

واستنتجنا أن نسبة العناصر المكررة (من السند) التي تمثل انحرافًا في النطق تكون أعلى عندما يكون السند من الصنف المكتوب. وقمنا بعد ذلك بتحليل صوتي للعناصر التي تمثل انحرافا في النطق، وقد تبين أن صعوبات النطق التي تُصادف ذات علاقة بتأثير اللغة الأولى للمتربصين(ل1)، لذلك استطعنا أن ننشئ علاقة بين انحرافات النطق وظاهرة المنشئية (تلك التي تمارسها ل1 التي اقتصرنا عليها)، واستخلصنا أنه عندما يتعلق المنتوج الشفوي بإسهام مكتوب فإن المنشئية تعمل أكثر مما تعمله عندما يتعلق المنتوج الشفوي بإسهام شفوي، وهكذا ثبتت فرضيتنا.

في هذا البحث، تمّ التأليف بين النوعي والكمي، وهو ما سمح بإثراء دراستنا وبتقديم معلومات، في نفس الوقت، عن وضعية التعلم (فيما يخص قسم، بحث . عمل) ولكن أيضًا في نقطة خاصة جدًا فيما يخصّ تعلم ل2 وهي النقطة المتعلقة بظاهرة المنشئية (بوساطة شبه تجريبية).

5- الخلاصة

في ميدان شديد التعقيد كميدان تعليمية اللغات يمكن تصور عدة أصناف من البحوث مثلما أشرنا إليه في المقدمة. ولكن بدلًا من أن يُقصي بعضها بعضًا فإنها تتكامل من حيث إنها تفيدنا بطرق مختلفة. إن البحث الشبه التجريبي يُمكّن،في الحقيقة، من الوصول إلى معلومات عن دور عامل خاص، لذلك فإنه يثبت الواقع بشكل من الأشكال. فهو إذا لا يمكّن من إمساك تعقد وديناميةوضعية من وضعيات تعليم/التعلم في مجملها، خلافًا للبحوث النوعية.

حقًا، إن البحث التجريبي في تعليمية اللغات، في بداية السبعينات هو الذي كان مبجلا. فقد كان التموقع أساسًا داخل إطار كان يسعى لأن يكون علميًا بشكل قطعي، ومفاده صياغة فرضيات وإخضاعها للاختبار لتجاوز تجريبية الممارسين. كان الخضوع حينئذ لإكراهات البرتكول التجريبي: عزل المتغيرات: المقارنة، التحديد الكمي، إظهار الملاحظة، التقعيد. تضاف اليوم إلى هذا المنهج في البحث مقاربات أخرى لا تقدم تفسيرات ذات قيمة يمكن تعميمها، لكنها تساعد على فهم وضعية تعليم/تعلم بالمعنى الواسع. إن الاختبارات الإبستيمولوجية (المعرفية) تكون، في الحقيقة، بناءً على هدف البحث وموقف الباحث. والمنهجيات المستخدمة تختلف وتتكامل مثلما عبر عن ذلك شابيل وجوردان فيما يلي: اقترحت أن تكون منهجيات البحث مرتبطة بالقضايا التي يطرحها الباحث (الإشكالية). إن النبر من هذا المنظور ليس توجيهًا نظريا بسيطًا، إنما هو سمة نوعية للعمل) مثل تعلّم اللغة المحتملة (الذي يسعى البحث في أن يحصل له على عناصر إثبات.

إن البحث في اكتساب لغة ثانية بحاجة إلى مقاربة بحثية متعدّدة المناهج.

يجب إذًا اعتبار البحث في تعليمية اللغات من حيث تعدد المقاربات بل من حيث التقاء المنهجيات بهدف إدخال منظور اجتماعي من أجل إنتاج معرفة في خدمة الممارسة.

المقال الأصلي:

Didactique des langues et recherche expérimentale.

Muriel Grosbois

- **المعهد الجامعي لتكوين المعلمين (IUFM)، باريس – فرنسا.**

الترجمة في ظلّ النظريات الاستدلالية

ترجمة أ. الجوهر خالف

جاء تطبيق المبدأ الاستدلالي ليحلّ بجدارة محلّ المفهوم الغامض للانسلاخ اللغوي قصد تفسير الاحتكاك الغائب بين اللغات وتمَحوُر العملية الترجمية حول المعنى. وعليه، يُمكن اقتراح صيغة تَقدُّميّة شديدة التأثُّر بالعلوم المَعرِفيّة.

إنّ الطريقة المُتبَعَة لإنجاز ترجمةٍ ما، باعتبارها فِعلًا تواصُليًّا بين اللغات وبين الثقافات، تبدو على شكل سلسلة مُتعاقبة لاتخاذ القرارات. وسَبق لنا توسيع هذه الفكرة بإبرازنا أنّه إذا كان المسار المُقَنَّن لاتخاذ القرار قابلا للتطبيق فعلًا، فهو يتمّ في إطار خاضع لجملة من المعضلات (دوريو، 2003). وتتسلسل القرارات طوال العملية الترجمية فتكون لا شُعورية تارة ومقصودة تارة أخرى.

والمُترجِم في حالة العفوية لا يُولي الاهتمام نفسه لكلّ الوحدات المعجمية التي تُكوِّن النصّ المُراد ترجمتُه، فهو الذي يُقرِّر بطريقة ما عمّا يبدو له بالغًا في الأهميّة وما سيشُدّ انتباهه وعلى ما سيُركّز لتحصيل المعنى حيث يظهر أنّ القرارات اللاّشعورية غالبة خلال مرحلة الفهم بينما تغلب القرارات المقصودة في مرحلة إعادة الصياغة عندما يجب على المُترجِم أن يختار بين الصِّيَغ المُحتَمَلَة للحصول على الترجمة الأنجع. ونجدُ في الواقع أنّ المُقابِلات اللُّغوية المُصنَّفَة بإحكام في أجوَد المعاجم لا تفرض نفسها على المترجم، فالكلمة الأخيرة تعُود له لأنّه هو الذي يُقرِّر إمّا أن يتبنَّى مُقابلًا موجودًا مُسبَقًا أو على العكس، أنْ يَضع لوحده مُقابلًا جديدًا.

وبهذا الصدد، فإنّ تفنيد المبدأ التعليمي الدّاعي بحساب المعنى (الخاصّ بالنظريات اللسانية) من أجل تبنّي المبدأ الاستدلالي لتحصيل المعنى (الخاصّ بالنظريات التأويلية) لَخُطوة أُولى لتطوير التفكير في علم الترجمة حيث تُفسِّر المقاربة الاستدلالية آثار المعنى بمبادئ براغماتية، فتحصيل المعنى ليس نِتاج دلالة الكلمات التي يتألّف منها الملفُوظ إنّما هو نتاج مسار استدلالي أيْ، نتيجة تفكير منطقي يُسخِّر في آن واحد المعلومات اللغوية وغير اللغوية كالإحاطة بالموضوع المُعالَج والعوامل الظرفية للتواصل بالإضافة إلى المُكوِّنات اللغوية المُحيطَة بالنّص. والآلية الذهنية التي يتّبِعُها المُترجِم هي من نوع «إذا... فإنَّ»، وهي نموذج المُحرِّك الاستدلالي المُعتَمَد في الذكاء الاصطناعي بحيث تستدعي هذه العملية استحضار الذاكرة لمعارف خارجة عن النّص.

والاستدلالات هي معلومات مُنشَّطَة نوعًا ما حتى لو لم يُشَر إليها بشكل صريح إذ أنّ دمْج الاستدلالات المُنتَجَة والمعلومات الصريحة يؤدّي إلى تحصيل مُتقَن للمعنى. فالفكرة التي اقترحتها النظريات التأويلية للترجمة بصفة حدسيّة مفادُها أنّ تحصيل المعنى يتمّ بحشد وإدماج المعارف اللغوية المُنشَّطة بقراءة النصّ المُراد ترجمته والمعارف الموضوعاتية المُكتَسَبَة مُسبَقًا والمُخزَّنَة في ذاكرة المُترجِم للوصول إلى كُلٍّ مُتماسك. غير أنّ هذا الإدماج، في الممارسة المهنية السّائدة، لا يتحقّق بعد حساب مُطوَّل وإنّما بطريقة عفوية تضمن استيعاب المعنى حسب مبدأ الحصافة (سبيربر وويلسون، 1986). فالمعنى الشامل والأكثر احتمالًا وحصافة هو الناتج عن معالجة المعلومة التي تتطلّب أقلّ مجهود معرِفي حيث أنّ المعنى المُدرَك يفرض نفسه على الذّهن ويبرز كصورة على خلفية. ومن هذا المنظور، يُمكِنُنا استحضار نظرية الجستالت باعتبارها الأساس النظري الوحيد والمعقول لتفسير أداء تُرجمان المؤتمرات في الترجمة الفورية حيث يُقال عنه أنّه «يتزلّج على موجة المعنى».

وإذا ما عُدنا إلى مثال الخلايا الجذعية المُزيَّفَة فإنّ الخطّ الأصفر في هذا السياق يُفهَم مباشرة على أنّه حدٌّ لامادِّي لا ينبغي تخطّيه وهذا دون المُرُور بالتمثيل الذهني للخطّ الأصفر المُمتدّ على قارعة الطريق.

وعليه، ففي المقتطف الآتي من مقالٍ يتناول «شرطة الفكر» بخصوص الحوار القائم حول الاستعمار، يُمكننا قراءة ما يلي: «يعتقد العديد من الباحثين أنّه تمّ اختراق الخطّ الأبيض عند مُقاضاة أوليفيي ب.ج، العالِم المُتخلّق الذي أصبح، بالرغم منه، رمزًا للحرية المهدَّدة.»

الخطُّ أبيضٌ هذه المَرّة، لقد تغيَّر لوْنُه لكنّ المفهوم لا يزال قائمًا ويُحِيلُنا إلى الحدّ اللاّمادِّي الذي لا يجب المغامرة لتجاوُزِه. وحتّى لو تغيّر لَوْن الخطّ من جديد، فالمرجعيّة تُحيلُنا مباشرة إلى حدٍّ لا يجب تجاوُزُه، ومثال ذلك ما يلي: «تجاوَزَتْ شركة الاتصالات الفرنسيّة إِسْ.إِفْ.إِرْ الخطّ الأحمر باستهدافها الأطفال في سنّ الحادية عشرة. وبتَبَنِّي المُتعامل لهذا الموقف التِجاري العنيف، يكون قد ابتعد كلّ البُعد عن مبدأ الحيطة.»

فهل يجعل اللون الأحمر خطورة تجاوُز الحدّ تبدو أكبر؟ يُمكن اعتقاد ذلك عند قراءة العنوان التالي الوارد في الصُحُف بشأن الحرب بين إسرائيل ولبنان في صيف 2006: «لقد تجاوزتْ إسرائيل الخطّ الأحمر، فهل الساعة على وَشَك القِيام؟»

هذا الخطّ الأحمر غير مادّي بالفعل ويُحيل إلى شنِّ حَرْب ولكنّنا نُلاحظ أيضًا أنّه باجتياح الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان، يكون قد تجاوز «الخطّ الأزرق» المُمثّل للحدود التي سطّرتها منظّمة الأمم المتحدة بين لبنان وإسرائيل. وعليه، يبقى فهم الواقع شاملًا وفوريًّا مهما كان لون الخطّ، فلا يمكن حساب المعنى على أساس وحدات لُغويّة وإنّما يحصُل استيعاب عفويّ للمعنى الحصيف بفضل إسهام المعرفة بالعالَم وبالوضعية المُعالَجَة.

ولبلوغ غاية بيداغوجيّة لاسيّما في إطار تكوين مُترجمين مُحترفين في المستقبل، فمن الأهميّة بمكان إبراز بناء المعنى وفق مسار استدلالي. وإذا كانت فعالية البحث التوثيقيّ في القيام بترجمة ما أمرًا مفروغًا منه، فالاستغلال المُحَنَّك للمعلومات المُحَصَّلَة وتعبئتُها على شكل معارف لتحريك آليّة الاستدلال هو الرّهان الحقيقي. وفي هذا الإطار، يفرض التفكير المنطقي نفسه كأداة أولى بالنسبة للمُتَرجِم بحيث يشهد استِقاء أمثلة من الواقع عن أهميّة المسعى القائم على تسلسلٍ صارمٍ لاقتراحاتٍ مُرتكِزة على المنطق (دوريو، 1990).

إنّ هذه الطريقة في الحقيقة تَدين بالكثير لنظريّة جُون دُوِي للتحقيق (1938) المبنِيَّة على خمْس مراحل مُتتالية:

«(1) إدراك الصعوبة، (2) تحديدها وتعريفها، (3) اقتراح حلّ مُمْكن، (4) التفسير المنطقي لدعم الاقتراح، (5) القيام بملاحظات وتجارب إضافية للتوصُّل إلى قبول الاقتراح أو رفضه، وهذه هي نتيجة الاقتناع من عدمه» (دُوِي، 1991: 72).

ومنه، فتطبيق هذه الطريقة على العمليّة التَّرجَميّة يُضفي عليها حصافة واضحة لأنّ اعتماد تفكيرٍ منطقيٍ يُؤدّي إلى اتخاذ القرار يسمح بالتحرُّر من مفهوم الانسلاخ اللُّغوي الغامض وبمحاولة توضيح مسار الفهم.

والمُسَلَّمَة هي أنَّ كلّ معلُومة تُعَالَج بفِعْل التفكير المنطقي، فحتّى أنظمة الذكاء الاصطناعي تُطبِّق هذا المبدأ. وعلاوة على ذلك، تَمَّ إدراج المسارات الاستدلالية ضمن نمُوذج نظري أكثر تعميمًا للفهم وهذا بناءً على نموذج كينتش وفان ديرك (1978) وكينتش (1993) مُؤخَّرًا.

ومع ذلك، يبقى التفكير على هذا المستوى راسخًا في تركيب شكلانيّ من نوع يختلف بالتأكيد عمّا هو في النظريات اللسانية للترجمة ولكنّه مُقيّد رغمًا عن ذلك بمسار عقلانّي بَحْت بحُكم قواعد استدلالية تُطبَّق بصرامة.

النصّ الأصلي مُقتطَف من مقال لكريستين دُوريُو باللغة الفرنسية تحت عنوان:

«Vers une théorie décisionnelle de la traduction»

تدريس العربية لطلاب الترجمة :
الأهداف والمنهجية

حسينة لحلو معهد الترجمة، الجزائر

الملخص:

إن معاينة بسيطة للأخطاء التي يقترفها المتعلمون في قسم الترجمة وبالتحديد فيما يتعلق بمقياس التعريب أي الترجمة من اللغة الأجنبية إلى العربية يجعلنا نقول إن معالجة المشاكل الترجمية التي تواجه هؤلاء لا ينبغي أن تتوقف عند حدود مرحلة فهم النص الأصلي وقضية أساليب الترجمة وإنما ينبغي التركيز كذلك على مستواهم في اللغة التي يترجمون إليها لأن مصدر جزء مهم من تلك الأخطاء ليس سوء فهم للنص الأصلي ولا سوء توظيف للأساليب الترجمية المعروفة، بل هو ببساطة قلة معرفة باللغة العربية بكل ما تحويه من قواعد وأصول.

بناء على هذا، نقترح في السطور التالية مجموعة من التمارين التطبيقية في مادة اللغة العربية، وقد صممت خصيصا للمتعلمين في قسم الترجمة وذلك باحترام طبيعة هذا التخصص والمعارف التي يتطلبها.

الكلمات الدالة: تعليم الترجمة، اللغة الأم، النحو التوليدي.

ما لا يختلف عليه اثنان هو حقيقة أن أغلبية المتعلمين في قسم الترجمة يعانون من هشاشة في تكوينهم اللغوي في العربية، تعبر عنها النقائص والأخطاء التي تشوب الترجمات التي ينجزونها في القسم وخارج القسم في مقياس يوصف نظريا بالسهولة واليسر وهو مقياس الترجمة من الفرنسية إلى العربية.

نحن نعتقد أن مرد ذلك إلى غياب إستراتيجية مدرسية تهتم بإرساء القواعد الفعلية لتعلم اللغة العربية في المرحلة الثانوية وهي مرحلة حاسمة في مسارهم التعليمي،حيث نجد النصيب الأكبر من الحجم الساعي المخصص لتعليم اللغة العربية قد كرس للإعراب وللدراسة النظرية البحتة للنصوص، وفي كلا المقياسين، نجد المتعلم يمارس كفاءات سلبية دون توظيف الكفاءات الإيجابية التي تمكنه من جعل اللغة أداة للتعبير والتواصل عوض كونها أداة للفهم والاستيعاب لا غير.أي أداة للتصرف في اللغة حسب الموقف الاتصالي والغاية منه وبذلك غيب عنصر الاتصال نهائيا ورافق هذا النقص المتعلمين إلى المرحلة الجامعية، وأصبح من كان متفوقا بالأمس عاجزا عن استيعاب المواقف الاتصالية والأبعاد السياقية التي تتخلل النصوص في ظل غياب متواصل لبرنامج يتماشى مع متطلبات التخصص، لأن الأمر صار يتعلق بوسائل بيداغوجية (تمارين) قاعدية تعود به إلى صقل المعارف الأساسية لا بوسائل بيداغوجية تكميلية تدعم متاعا معرفيا مفترضا لا وجود له في الواقع.

وبهذا، فإن المسعى من الخطوة المتواضعة التي نخطها هاهنا هو اقتراح وسائل تعليمية تتماشى مع معطيات خاصة، نلخصها في النقطتين التاليتين:

حقيقة المستوى اللغوي للمتعلم في تخصص الترجمة.

متطلبات تخصص الترجمة

إذا ما عدنا قليلا إلى الوراء وألقينا نظرة على البرامج التعليمية المخصصة للغة العربية في المرحلة الثانوية، سواء للفروع العلمية أم الأدبية، وجدنا أنها لطالما كانت برامج قائمة على أساس الشكل واللفظ والإعراب وفكرة العامل وإتباع المنهج التحليلي. إذ تقسم الأبواب في الدرس النحوي إلى مرفوع ومجرور ومنصوب، ولطالما تعارضت تلك البرامج مع مبادئ الاتصال اللغوي المرتكز على التركيب لا التحليل، وأسفر هذا عن حرمان تلك الدروس من نظرية التركيب التي تحكم الجملة العربية والتي ترى أن أفضل منهج لدراسة لغة من اللغات هو دراسة الجملة ونظام تركيبها، أي الانطلاق من المعنى للوصول إلى المبنى. ولقد كان النحاة يبنون علم النحو على أساس دور متلقي الكلام لا المتكلم، ويبدو ذلك من تعريفهم للنحو على أنه:

«أحكام الكلم في ذواتها أو فيما يعرض لها بالتركيب لتأدية أصل المعاني من الكيفية، التقديم والتأخير ليحترز بذلك من الخطأ في فهم كلامهم وفي الحذو عليه».[1]

و بذلك كان التركيز يقع على الملكة اللغوية للمتلقي لا على الأداء اللغوي للمتكلم، ولم تكن الغاية تجنب الخطأ في الكلام بل تجنب الخطأ في فهم المعنى الذي يقصده الكلام الذي يتلقاه السامع، وكذلك إعانة المتكلم على السير بتلك القواعد في كل أداء يؤديه، وهذا دليل على أن الدرس النحوي قد وضع جانبا عنصرا مهما في شخصية المتعلم والذي هو الإبداع والتصرف.

ويجدر بنا في هذا المقام، تقديم تعريف لكل من الملكة والأداء اللغويين، على أن نربط مفهوميهما بسياق البحث الحالي. والتعريف التالي تجمع عليه معظم الكتب المتخصصة في علم اللغة:

الملكة اللغوية:

(وتدعى أيضا الكفاءة أو السليقة اللغوية) هي امتلاك المتكلم السامع المقدرة اللغوية الضمنية الخفية التي تمكنه من التعبير عما في نفسه من معان وتوليد عدد غير محدود من الجمل التي لم ينتجها ولم يتلقها من قبل، كما تمكنه من فهم هذه الجمل إذا تلقاها والحكم عليها بالصحة أو الخطأ. باختصار، الكفاءة تعني النظام اللغوي الذي اكتسبه أو تعلمه بما فيه من قواعد صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية.

---

[1]- بن الناظم، بدرالدين.شرح ألفية بن مالك. ص. 2- 3.

الأداء اللغوي:

هو المظهر الفعلي المحسوس أو التطبيق العملي للكفاءة اللغوية. ولا يكون بالضرورة موافقا للنظام اللغوي.[2]

إن مستجدات العلوم الحديثة المختصة في تعليم اللغات تستدعي الوقوف عند وضعية تعليم اللغة العربية في الأطوار المتقدمة بغية تحليلها ونقدها استنادا إلى مبدأ «الانطلاق من المعنى للوصول إلى المبنى» لا العكس.حيث كان الدرس النحوي ولا يزال في كثير من الأنظمة التعليمية يعتمد على مبدأ «الانطلاق من المبنى للوصول إلى المعنى» وينظر إلى الجملة نظرة جزئية محدودة حتى انحصرت الوسائل التعليمية في الإعراب والعلامة الإعرابية مهمشة أهمية عملية الاتصال اللغوي ونظام الحديث الكلامي الذي يستوجب النظر في الأغراض النفعية للمتكلم والأفكار السياقية المتبادلة بين المتكلم والمتلقي حيث لا يكون هذا الاتصال ناجحا إلا إذا استنتج المتلقي أغراض الكلام.

كيف نمكن المتعلم من الانطلاق من البنية المضمرة وهي، في حالة الترجمة، المعنى الذي يفهمه من النص الأصلي للوصول إلى البنية السطحية وهي النص النهائي الذي يقترحه ترجمة له.

ولقد انتقدت Catherine Pinon **الطريقة الحالية التي يتم بها تعليم نحو اللغة العربية قائلة:**[3]

«Par manque de grammaire de référence de l'arabe moderne, les enseignants préfèrent se cantonner à l'arabe classique, abondamment décrite et très balisée. Les didacticiens ne veulent pas prendre le risque d'édicter de nouvelles règles, qu'ils pressentent certainement, mais qu'aucune «autorité scientifique» n'a encore démontrées, et restent sur certains points très «traditionnalistes», grammaticalement parlant. Le rôle de la linguistique de corpus, parce qu'elle tend à l'objectivité, est une solution au problème de l'inadéquation de la langue enseignée à la réalité de son usage.»

«إن غياب نحو مرجعي للغة العربية الحديثة يحمل المدرسين على العودة إلى اللغة العربية الكلاسيكية التي تجد لها وصفا سخيا ومعالم واضحة، ويأبى المختصون في اللغة أن يضعوا قواعد جديدة تخطر ببالهم على أن أي مرجع علمي لم يتبناها بعد ويظلون من ناحية القواعد تقليديين جدا في بعض المسائل. ودور لسانيات المدونة،كونها تميل إلى الموضوعية هو إيجاد حل لمعضلة تنافر اللغة المدرسة مع واقع توظيفها» ترجمتنا.

---

[2]- التعريف مقتطف من شومسكي aspects of the theory of syntax p 3-18.

[3]- Catherine Pinon, La grammaire arabe: entre théories linguistiques et applications didactiques, synergies monde arabe , num.07.2010, P. 75-86.

الأسس والمبادئ المعتمدة لإعداد التمارين

أولا: الأسس النظرية

النحو التوليدي التحويلي:

يقول شومسكي: «إن البنية العميقة التي تحدد المعنى مشتركة بين كل اللغات، فهي انعكاس لأصول الفكر. وتختلف القواعد التي تحول البنية العميقة إلى بنية سطحية من لغة إلى أخرى.»[4]

و يقول كذلك: «إن اللغة مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل. كل جملة طولها محدود ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر».[5]

إن هذين القولين ينطويان على مبادئ النظرية التوليدية التحويلية لدى شومسكي وهي مبادئ استعنا بها في منهجيتنا في إعداد التمارين لأنها وكما أسلفنا موجهة لمتعلم الترجمة الذي يحتاج إلى وسائل لغوية يترجم بها المعنى الذي يكون بمثابة البنية العميقة.

و يتوضح لنا ذلك بشكل أفضل ونحن نسقط النظرية التوليدية على مراحل الترجمة كما تتصورها نظرية المعنى بالشكل التالي:

بنية عميقة

النص الأصلي النص الهدف

(البنية السطحية أ) مشتركة بين اللغتين (البنية السطحية ب)

الترجمة

وإذا كانت أسس النحو التوليدي لا تفيد كثيرا في تعليم الترجمة بحد ذاتها، أي في تلقين المتعلم كيفيات نقل المعنى، باحترام السياق المقامي والمقالي للنص الأصلي، نظرا لوقوف هذا النحو عند حدود المستوى اللغوي، فإنها قادرة - في نظرنا- على حل مشاكل إعادة الصياغة في اللغة العربية بصفتها لغة الوصول، إن القواعد التوليدية والتحويلية جديرة بتنمية نوعين من الكفاءة المطلوبة في تمرين الترجمة:

أولا: استخراج المعنى المحتمل في النص الأصلي عن طريق إرجاع الجمل إلى مستواها الأول، أي تحويلها من البنية السطحية إلى البنية العميقة.

---

[4]- Chomesky, N. la linguistique cartesienne.p.64.p.

[5]- Chomesky, structures syntaxiques trad. De michel braudeau, paris, le seuil 1969.

ثانيا، وهذا الأهم، إعادة تركيب تلك البنى العميقة في اللغة العربية، (وهذا في مرحلة التجريد اللفظي)، ومن ثمة تحويلها إلى بنى سطحية في المرحلة النهائية.

نحو النص:

إن **نحو النص** يدرس الأبنية اللغوية وكيفية تماسكها وتجاورها، كونها وحدات لسانية تتحكم فيها قواعد تتجاوز حدود الجملة. والعلاقات التي تؤدي ذلك هي:

السبك: (cohésion) الترابط الرصفي القائم على النحو في البنية السطحية، بمعنى التشكيل النحوي للجمل وما يتعلق بالإحالة والحذف والربط وغيره.

الحبك (cohérence): وهو حبك عالم النص أي الطريقة التي يتم بها ربط الأفكار داخل النص ويظهر هنا الربط المنطقي للأفكار التي تعمل على تنظيم الأحداث والأفعال داخل بنية الخطاب.

ثانيا: المعطيات والأسس التطبيقية :

لقد تم اعتماد مجموعة من المبادئ والانطلاق من مجموعة من المعطيات في تصميم التمارين، وهي تستجيب للأهداف المسطرة:

الانطلاق من الخطأ للوصول إلى الحل، إذ تبين لنا أن المشكل لدى المتعلمين لا يتوقف عند حدود المفردات والتعبير، بل يتجاوزه إلى أبسط استعمالات اللغة لتراكيبها العادية، لذلك أولينا الاهتمام لمستوى التركيب كونه، نظريا، المستوى الأول الذي يقوم عليه تعليم اللغة.

الانطلاق من المعنى للوصول إلى المبنى، وبذلك الاعتماد على مكونات نحو الجملة بشكل أولي دون الغوص في مكونات نحو النص، لأن الغاية الرئيسية من هذه التمارين- الموجهة لتخصص معين وهو الترجمة- ليست تنمية قدرات التلقي بالعربية وإنما تنمية قدرات الكتابة والتعبير عن معنى محفوظ في النص الأصلي ويفترض أنه مفهوم وما بقي غير إعادة تشكيله في العربية. وقد سبق أن فصلنا في هذا في فصل سابق.

التحفظ تجاه مبدأ اعتبار اللغة العربية لغة أُمًّا أو حتى اللغة الأولى، ومعاملتها - في هذا المقام استثناء- معاملة اللغة الثانية من الناحية التطبيقية، وذلك تماشيا مع حقيقة أن أبسط التعريفات النظرية التي تقدم للغة الأم أو اللغة الأولى لا تنطبق على وضعية العربية والمتحدثين بها في مجتمع البحث الحالي أي المتعلمين وكذلك أغلبية شرائح المجتمع الجزائري.و من المعروف أن الفرد يتعلم اللغة بشكل أفضل إذا كان هذا التعلم يحدث في محيطها الطبيعي أي بالاحتكاك المباشر بها وبالمتحدثين بها.

الجدة والحداثة في اختيار المادة العلمية للتمارين وبذلك ابتعدنا- ونحن ننتقي المدونة- عن النصوص القديمة أو المنتمية إلى الحقل الأدبي الراقي لما فيه من تعقيد في الألفاظ والعبارات والتراكيب

وذلك من شأنه أن يجعل المهمة صعبة بل ومستحيلة ويحرم التمرين من بلوغ غايته الأساسية.

وجدير بالذكر أن النماذج التي نقدمها ليست تمارين جاهزة ونهائية إنما هي أمثلة لتمارين يمكن للمعلم أن يحذو بحذوها ويجتهد لإعداد نماذج أخرى، وذلك تبعا لغياب البرامج التعليمية الرسمية في معهدنا وفي أغلب المعاهد الأخرى في الجزائر. وهذا أمر ناجم عن غياب نظرة تامة وشاملة عن نوعية وأسس التمارين اللغوية التي ينبغي على المعلم في قسم الترجمة أن يعدها وغياب الوعي لأنَّ هذه التمارين لا بد وأن تكون مختلفة عن تلك المقدمة للمتعلمين في قسم اللغة العربية أو اللغات الأجنبية.

و نحن إذ نقترح أن تكون هذه التمارين مندرجة في إطار دروس العربية الموجهة للمتعلمين في قسم الترجمة، حتى نخفف على المتعلم ثقل النقل من لغة إلى أخرى مما يبقي على مشكل التداخل والتلوث اللغوي، ونجعله قادرا على التفكير والتدبير في اللغة العربية دون أن يصاحبه هوس الترجمة ونقل المعنى في أي شكل كان. ومن ثمَّة يمكنه أن يستثمر تلك القدرات بكل حرية وإيجابية في تمارين الترجمة، لأن غايتنا تكمن في بناء قاعدة لغوية وطيدة لدى المتعلم، لا في إيجاد حلول سريعة وظرفية لمشاكل الترجمة.

تمارين التركيب

قبل عرض التمارين التركيبية، يجدر بنا أولا أن نتعرف على التركيب وميزاته في اللغة العربية:

تعريف التركيب في اللغة: هو دراسة أحكام الكلمات والعبارات والجميلات داخل الجملة والعلاقات النحوية بينها، وهو جزء من علم القواعد الذي يشتمل علم النحو وعلم الصرف.[6]

و يعرفه قاموس اللسانيات على أنه:

«La partie de la grammaire décrivant les règles par lesquelles on combine en phrases les unités significatives»[7]

«التركيب هو فرع النحو الذي يدرس القواعد التي تؤلف من الوحدات الدالة جملا». ترجمتنا.

و جدير بالذكر هنا أن النحو الذي سنركز عليه في التمارين هو نحو الجملة لا نحو النص رغم أن هذا الأخير بالأهمية بما كان، لكننا ارتأينا أن ننطلق من القاعدة النحوية الأساسية والتي لايزال المتعلمون يعانون فيها نقائص فادحة حالت دون بلوغهم مستوى نحو النص والعلاقات التي تكونه.لكن هذا لا يمنع أن تتضمن التمارين التي نقترحها بشكل أو بآخر العلاقات المنطقية التي تكون البنية الكلية للنص لأن مادة هذه التمارين تتمثل في الجمل والنصوص.

---

[6]- الخوري، محمد علي، معجم علم اللغة النظري.ص. 279.

[7] - Dubois, Jeans et autres. Dictionnaire de Linguistique, Librairie Larousse, Paris. 1973 ; P 480.

يقول الديداوي: «ومتى اغتنى الطالب بالتراكيب وتزود بأفانينها وتعرف على ظلال معانيها وتوفر له المترادف والمتقارب منها، فإن ذلك يساعده على (إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه). كما أن ذلك يمكنه من (تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء، لا الصادرة عمن سواهم).[8]

خصائص التركيب في اللغة العربية

إن العربية تتيح للمتكلم ظاهرة تعدد العلاقات لأداء المعنى الواحد أو التعبير عن البنية المضمرة الواحدة ببنيات ظاهرة متعددة. وتلجأ إلى استغلال التركيب لإنشاء العلاقات التي تربط الجملة الواحدة للتعبير عن المعنى نفسه، وذلك حسب مقام الكلام وأغراض المتكلم. إذ أن هناك بنية عميقة واحدة يمكن التعبير عنها ببنيات سطحية متعددة، وإذا ما كان التركيب غامضا، أخفق المتكلم في بيان علاقة من العلاقات التي ينشئها. ويقول مصطفى حميدة في هذا: «والقاعدة العامة التي تحكم تركيب الجملة: أن كل علاقة تزيد في الجملة على علاقة الإسناد، إنما ينشئها المتكلم للبيان، وإزالة إبهام وغموض قد يعتريان المعنى الدلالي للجملة إن لم ينشئ المتكلم تلك العلاقة، وكل حذف لعلاقة إنما يكون حين لا يحتاج المعنى الدلالي إلى دلالة تلك العلاقة وهذا كله خاضع لسياق الكلام وغرض المتكلم.»[9]

ويضيف في الاتجاه ذاته موضحا أهمية الإتيان بالتركيب السليم في العملية التواصلية: «ومعيار الذكر والحذف هو وضوح المعنى الدلالي الذي يراه المتكلم تعبيرا عن غرضه في سياق معين. وكل جملة يوصف تركيبها بالغموض هي جملة أخفق منشئها في إبراز علاقة من علاقاتها أو ترك الإتيان بها لسبب من الأسباب».[10]

ويمكن اعتبار الجملة سلسلة من المكونات المتفاعلة فيما بينها كي تؤدي في النهاية المعنى المنشود. وأساس هذا التفاعل هو التركيب النحوي الذي يسمح بإنشاء المعنى الدلالي للجملة. ولكي تكون الجملة مقبولة دلاليا لا بد أن تتضمن علاقات صحيحة. من هنا ندرك أن أساس أي درس نحوي يقوم على تركيب الألفاظ داخل الجملة الواحدة وكذلك على ترابط الجمل داخل النص الواحد.

---

[8]- الديداوي، محمد. منهاج المترجم، المركز الثقافي العربي. الطبعة الأولى، 2005. بيروت. ص. 323. نقلا عن: السكاكي، 1987، ص 161و 162.

[9]- حميدة، مصطفى. نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. 1997. ص.162.

[10]- المصدر ذاته، ص. 162- 163.

وبناء على كلِّ ما قيل عن التركيب، يأتي اهتمامنا في المقام الأول بالمستوى التركيبي ونحن نصوغ التمارين التي نراها مناسبة لسد النقائص التي يعاني منها المتعلمون. وفيما يلي، نوعين من التمارين التركيبية.

التمارين المقترحة:

التمرين الأول :

تركيب الجمل

يتمثل هذا التمرين في تفكيك نص إلى جمل منفصلة بإعادتها إلى بنيتها العميقة، ومن ثم مطالبة المتعلمين بإعادة تركيبه ابتداء من تلك الجمل التي تربطها علاقة منطقية ضمنية ينبغي عليهم اكتشافها حتى يتمكنوا من ربطها ربطا شكليا صحيحا وذلك بالاستعانة بأدوات الربط المقترحة عليه.

أهداف التمرين :

ينطوي تمرين التركيب على الأهداف التالية:

- إخراج المتعلم من دائرة الدرس النحوي المعتمد على الإعراب والجانب الشكلي للجملة.
- تنمية قدرة المتعلم على التوصل إلى العلاقات السياقية الضمنية التي تربط الجمل.
- تنمية القدرة على الربط الشكلي والضمني.
- تدريب المتعلم على توظيف مختلف الأدوات من أجل ربط الألفاظ داخل الجمل وتنسيق الجمل داخل فقرات.
- تجنيب المتعلم من الوقوع في الأخطاء التركيبية أثناء الترجمة إلى العربية.
- تجنيب المتعلم الوقوع في التداخل التركيبي بين العربية ولغة أجنبية أثناء الترجمة.
- منح المتعلم فرصة التعبير الشخصي حتى لا يتوقف عند حدود النقل المباشر أي الترجمة التي قد تصبح فيما بعد نقلا آليا يصرفه عن الإنتاج والإبداع.

منهجية التمرين :

اختيار نص قصير (مكون من 05 إلى 10 أسطر على الأكثر) حتى لا يثقل على المتعلمين إنجاز التمرين. ويستحسن أن يكون مقتطفا من عمل أدبي ذي لغة سليمة يشهد لصاحبه التمكن اللغوي في العربية.

حذف جميع الروابط الشكلية من الفقرة بحيث يصبح مجرد جمل منفصلة، فيما نزود المتعلم بقائمة الأدوات المحذوفة من النص الأصلي.

إعادة صياغة الجمل على هيئة بنيات عميقة لا تربط بينها أي علاقة شكلية من قبيل: الإحالة والعطف والإشارة.

تقديم الجمل للمتعلم ومطالبته بإعادة تركيب النص بتوظيف أدوات الربط المقترحة شرط أن يستشف العلاقات الضمنية التي تربط الجمل حتى يتمكن من إنتاج نص نهائي يكون أقرب ما يكون إلى النص الأصلي.

النماذج

النموذج الأول:

إليك الجمل التالية:

الإنسان يدأب في حياته.

الإنسان يكفل لنفسه عيشا رغيدا.

الإنسان يكفل لنفسه عمرا مديدا.

الإنسان يحتال على الطبيعة بكل ما أوتيه من قوى بدنية.

الإنسان يحتال على الطبيعة بكل ما أوتيه من قوى عقلية.

الإنسان يفعم بخيرات الطبيعة.

الإنسان يدرأ ويلات الطبيعة.

أتعاب الإنسان ذاهبة أبدا أدراج الرياح.

عيش الإنسان لا يصفو من الكدر.

عمر الإنسان لا يمتد أبعد من سنوات معدودات.

بطن الإنسان يشبع إلى حين.

بطن الإنسان في جوع دائم.

المطلوب: ركب من هذه الجمل فقرة تكون جملها مترابطة ومتجانسة وفي أحسن شكل ممكن، بالتوظيف الإجباري لأدوات الربط المناسبة من بين تلك المقترحة عليك.

الأدوات المحذوفة: ل- و- ف- لا- لكن- لئن.

النموذج الثاني:

إليك الجمل التالية:

لنا في كل يوم مواقف.

نحن مكرهون على الاختيار بين اتجاهين أو أكثر.

الاختيار لا يأتينا عفوا إلا نادرا.

الاختيار لا يأتي دون أن يسبقه شيء من التفكير.

نحن نفكر في عواقب ما نختار.

نحن نفكر في عواقب ما ننبذ.

تبدو هذه العواقب متكافئة من حيث خيرها.

تبدو هذه العواقب متكافئة من حيث شرها.

نحن نتردد في أيها نختار.

يبلغ بنا التردد حدا ينشل معه الفكر.

يبلغ بنا التردد حدا تتعطل فيه الإرادة.

نحن نقدم.

نحن نحجم.

الأدوات المحذوفة من الفقرة الأصلية: بل- قلما- كأن- ف- لا

التمرين الثاني :

ملء الفراغات بأدوات الربط المناسبة

إن علاقتي الربط والارتباط هما أساس النظام التركيبي للجملة بصفتها كيانا ذات معنى دلالي واحد تقتضي فيها وحدة المعنى الإجمالي اجتماع المعاني الجزئية عن طريق العلاقات النحوية والسياقية.

و تختلف علاقة الربط عن علاقة الارتباط من حيث الوظيفة. وهذا الاختلاف مهم بالنسبة لمن يتعلم الترجمة لأنه بصدد فك رباط نص في لغة ليعيد تركيبه من جديد في لغة أخرى.

و لإبراز الفرق بين العلاقتين، نقدم تعريفا لكل منهما:

- ❖ الارتباط: هي علاقات سياقية نحوية تنشأ بين المعاني الوظيفية النحوية دون اللجوء إلى أداة.
- ❖ الربط: هي علاقة سياقية نحوية بين طرفين باستعمال أداة تدل على تلك العلاقة.

و في سبيل توضيح الفرق بين المفهومين، نذكر ما قاله مصطفى حميدة في هذا الشأن:

«الجملة كالعقد الذي يجمع بين حباته سلك وثيق، ولا بد أن يبقى ذلك السلك متصلا، وإلا ما استطاع الرائي أن يفهم من شكله معنى العقد وهذا هو الارتباط. فإذا انقطع السلك وكنا نريد له أن يتصل وأن يفهم منه معنى العقد عالجنا انقطاعه بالربط»[11].

وإذا كان هذا حال الربط في اللغة الواحدة، فما بالك بحاله وهو ينفك في لغة ليعاد تركيبه في لغة أخرى في السياق والمعنى ذاتهما؛ وذلكما نحن نسعى إليه في عملية الترجمة.

و في ظل تعسر الإحاطة بجميع أنواع علاقات الربط والارتباط بل واستحالتها في إطار هذا البحث، سنكتفي بدراسة الجانب الشكلي للربط دون الغوص في العلاقات الضمنية التي يمثلها الارتباط، وسنتوقف تحديدا عند أدوات الربط.

أقسام أدوات الربط في العربية:

تقتضي طبيعة الدراسة الحالية منا ألا نطيل الوقوف عند المسائل اللغوية، لذلك سنوجز في هذا بذكر الأدوات دون ذكر وظائف كل منها لأن ذلك يستخلص من السياق ولا ينبغي أن يفرد له حجم ساعي ضخم في البرنامج التعليمي.

أدوات العطف: الواو- الفاء- ثم- حتى- أو- أم- إما- بل- لكن- لا

أدوات نصب المضارع: أن- إذن- كي- لام الجحود- أو- حتى- فاء السببية- واو المعية- لام التعليل.

الحروف المصدرية: ما- أنّ- إنّ- كي- لو-

أدوات الشرط: إن- إذما- من- ما- مهما- متى- إيان- أين- أنى- حيثما- أيّ- إذا- كيفما- لو- لولا- أمّا

أدوات الاستثناء: إلاّ- غير- سوى- ليس

حروف الجر: في- من- على- إلى

الواو، بما فيها: واو المعية، واو الحال، واو المفعول به.

---

[11]- حميدة، مصطفى، علاقات الربط والارتباط في العربية، ص. 195.

منهجية التمرين

ينص هذا التمرين على حذف أدوات الربط وجعل الجمل متتابعة غير مترابطة شكلا حتى نترك للمتعلم مهمة ربطها وذلك على أساس الترابط الضمني الذي لا يلغيه الانفصال الشكلي. ونحن نعلم أن حل مشكل التركيب يبدأ من حل مشكل الربط بنوعيه وبمعرفة كيفية توظيف مختلف أنواع أدوات الربط الموجودة في العربية، والتي نقترح ألا تدرس أولا في إطار الحصص النظرية بل التمهيد لها بالتمارين التي سنقترح نماذج منها لاحقا.

أهداف التمرين

• تنبيه المتعلم إلى أهمية أدوات الربط في تركيب الجملة ومساعدته على الابتعاد عن العشوائية في توظيفها.

• إعانة المتعلم على التعرف على أكبر قدر ممكن من التراكيب ضمن الجمل في اللغة العربية بعيدا عن النصوص التي قد يراها طويلة ومملة.

• تدريب المتعلم على اختيار الأداة المناسبة لربط الألفاظ والجمل والعبارات تبعا للكلمة الواردة قبل الأداة وبعدها من اسم وفعل وظرف حيث لكل منها أداة ترافقها دون غيرها.

• جذب اهتمام المتعلم إلى وزن علامات الوقف التي طالما كان يتجاهلها وينكر عليها الدور الذي تؤديه.

• تجنيب المتعلم النقل الحرفي للأدوات الواردة في النص الأصلي أثناء الترجمة.

النموذج (النص):

يشكو الناس بعضهم بعضا - انقطاع - المحكوم يشكو حاكمه - العامل صاحب العمل - التلميذ معلمه - الولد والده – الزوجة زوجها – المستأجر مؤجره – الشاري البائع – المتدين رجل الدين – العكس – العكس. – هكذا قل – كل علاقة بين إنسان – إنسان – بين مجموعة – مجموعة أخرى – الناس. – الشكاوى تتعالى أبدا بين الطرفين – كل طرفة عين – كأنها القرار الأبدي الذي –ه تنطلق - - ه ترتد أنشودة الحياة البشرية – الأرض.

المطلوب: سد الفراغات الواردة في النص التالي بأدوات الربط المناسبة من بين تلك المقترحة فقط، مستعينا في ذلك بعلامات الوقف.

الأدوات المحذوفة: ب- ف- و- في- أو- من- إلى- على.

ملاحظة: قد ترد الأداة الواحدة في أكثر من موضع.

لم تكن النماذج المقترحة سوى خطوة بسيطة في طريق بلورة برنامج تعليمي شامل ومتكامل نراه مناسبا وضروريا لإنجاح مسعى تدريس اللغة العربية للمتعلمين في قسم الترجمة الذي طالما افتقر إلى الأسس والأعمدة التي تبني مثل تلك البرامج، سواء فيما يخص مادة اللغات أم حتى مادة الترجمة بمختلف مقاييسها. وهو أمر غير مقبول ولا ينبغي أي يبقى على ما عليه.

المقال :

Enseigner l'arabe aux apprentis- traducteurs: méthode et objectifs

Teaching arabic to translator-trainees: method and goals

تدريس العربية لطلاب الترجمة: المنهجية والأهداف

المصادر والمراجع :

باللغة العربية :

- الديداوي، محمد. 2005 منهاج المترجم، المركز الثقافي العربي. الطبعة الأولى، بيروت.
- حميدة، مصطفى. 1997، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية.الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان.
- الخوري، محمد علي، الطبعة الأولى 1982.معجم علم اللغة النظري. انكليزي- عربي مكتبة لبنان بيروت.

بالفرنسية :

- Chomsky, N. La Linguistique cartésienne. Le Seuil, 1969.

- Chomsky, structures syntaxiques trad. De Michel Braudeau, paris, le seuil 1969.

- Catherine Pinon, La grammaire arabe : entre théories linguistiques et applications didactiques, synergies monde arabe.Num.07.2010.

- Dubois, Jeans et autres. Dictionnaire de Linguistique, Librairie Larousse, Paris. 1973 ; P 480.

القراءة بوصفها تلفظ

ترجمة : منى بدري

إضاءة :

قد لا يكون ابتداعا لوصف الترجمة بأنها اللغة الثالثة «الوسيطة» التي تفتح الألسنة والثقافات والحضارات على بعضها بعضا، وتخرجها من أسر المجهول، إلى رحابة المعلوم، ميممة –بذلك– وجهة إنسانية عالمية، تتيح إمكانات التعارف والتواصل والتثاقف بين الناس: (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وإذ لا ننكر أهمية ما ترجم إلى العربية في مجال اللسانيات الحديثة، فإننا لا نعثر إلا على النزر اليسير في اللسانيات التطبيقية المنفتحة على الخطاب الأدبي ونقده؛ ولذلك عزمنا على دراسة وترجمة أهم الدراسات الدقيقة، التي جمعت بين كفاءة التنظير ومهارة التطبيق، في كتاب: « pragmatique pour le discours littéraire**»، للأستاذ الباحث (دومينيك مانقينو).**

وقد سبق أن نشرنا في مجلة «معالم» الغراء، ع:2، شتاء 2010، ترجمة لدراسة تأسيسية في الكتاب نفسه، بعنوان: «مفاهيم تداولية».

وقد بدا لنا أن مدار الخطاب اللساني، التداولي في هذا الكتاب –كما هو في إنجازات أخرى كثيرة– هو مكون «القراءة»، ومشتقاتها المعرفية أو التقنية، وبالأخص في مجالين حيويين «تداوليان» عن جدارة، وهما الخطاب السردي والخطاب المسرحي، كما سيقف القاريء والفطن على ذلك في ترجمتنا لهذا الجزء، وفي الأجزاء اللاحقة، التي نأمل نشرها في الأعداد الواعدة من مجلة «معالم» إن شاءالله.

نص الترجمة:

الاشتراك اللفظي la co- énonciation :

لقد تطرقنا إلى الدور الحاسم الذي يلعبه المتلقي في إنتاج وتأويل المتلفظات. ففي حالة الخطاب الأدبي تلعب المسافة بين مواقع التلفظ والتلقي دورا هاما.

وبصفة عامة، فإن كل اتصال مكتوب يتميز بالهشاشة، بما أن المتلقي لا يُسْهِم في سياق تلفظ

المتكلم، ونصل هنا إلى الذروة مع النصوص الأدبية التي تتعامل مع جمهور غير محدد في الزمان والمكان. ومن المؤكد انه لدى كتابة عمل ما، يتوجه المؤلفون إلى نوع محدد من الجمهور ولكن طبيعة الأدب تقتضي بأن يلقى العمل الأدبي رواجا في كل زمان ومكان. إن استبعاد هذا السياق décontextualisation يتلازم والغموض الأساسي في العمل الأدبي الذي يستمر بانغلاقه على نفسه وبخضوعه لقواعد أكثر قربا

من تلك المتعلقة باللغة العادية، وهذه البنية اللغوية تثير قضية الاشتراك في التأويل وتضاعف إمكانيات الترابط بين وحدات النص.

إن غياب متلفظ النص الأدبي يجب أن لا يفهم على أنه ظاهرة تجريبية، فإذا قرأنا «الأحمر والأسود» le Rouge et le Noir، نجد ان غياب المتلفظ لا يعود لأن ستاندال Standhal لا يمكنه سرده لنا شخصيا. ما من صوت وما من حضور حقيقي ضروريان في نص هو أساسا موضوع القراءة objet de lecteur، فراوي السرد لا يحل محل المتكلم ولكنه يمثل هيئة تقوم بالحكي إذا حركه القاريء. وفي كتاب «مبادئ اللسانيات» (ص40) تطرقنا إلى ظاهرة بالغة الأهمية، وهي تعليم repérage الإشاريات déictiques ليس بالنسبة للقصة، بل بالنسبة للقراءة، كذلك الشأن في:

«كان بطلنا مرتبكا للتوقف أمام هذا الكرسي الصغير من القش، الذي كان شاهدا في سالف الزمان على انتصارات مبهرة. أما اليوم فلا أحد يوجه له كلام؛»

(الأحمر والأسود)

نجد «اليوم» في موضوع نتوقع أن نجد فيه «يومئذ» لأن حاضر فعل القراءة هو المعلم repère، فالجملة الاسمية «بطلنا» هي أيضا مَعْلَمَةٌ بالنسبة للقراءة، لأن وصفا محددا كهذا يقتضي تبني السرد للقصة، غير أن السرد la narration لا يتجلى إلا بفضل نشاط القارئ، وإذا انعكست بالضرورة زمانية la temporalité الأحداث المحكية على تلك المتعلقة (بزمانية) القراءة، لا يمكننا الاستمرار في استناده وظيفة ثانوية للقراءة، فهنا يكتسب مصطلح «الاشتراك التلفظي» كل أهميته. وبمعنى ما، فالمتلفظ المشترك هو الذي يتلفظ انطلاقا من إشارات تكون شبكتها الكلية نص العمل الأدبي.

وعلى الرغم من أن النص يبدو كتمثيل لقصة مستقلة سابقة فإن القصة التي يحكيها لا تتجلى معالمها إلا بواسطة فك للرموز من قبل القارئ. فكل تقدم في السرد يضاعف عملية القراءة، وكل توقف للسرد يقابله توقف في القراءة.

ونهدف هنا إلى توضيح ما يلي «الإشارات» (indication) لأنه، كما أشار إليه إ.إيكو E.Eco، بأن هناك عملية «تمنع» (réticence) أساسية في النصوص الأدبية. على القراءة إبراز عالم خيالي انطلاقا من إشارات مبهمة وغير محددة تحديداً واضحًا. وليس بوسعنا إلا الذهول أمام حجم العمل الكبير الملقى على عاتق القارئ لإعادة بناء السلاسل المتتالية وتكرار الانقطاع (ellipse) في تسلسل الأحداث والتعرف على الشخصيات والكشف عن المضمر، الخ. ولهذا الغرض، يهيئ القارئ أولا عددا معينا من المعارف والإستراتيجيات المتنوعة. ويضاف إلى ذلك، أن طبيعة الأعمال الأدبية تقرأ عبر سياقات جد مختلفة فإن عمل فك الرموز هذا يبدو غير مستقر للغاية.

إذن، سنحترز اعتمادا من مفهوم خالص للقراءة متمثلا في نموذج للمشاهد الشهيرة للكلمات المتجمدة في «كتاب الرابع» (Quart livre) لرابلي Rabelais (فصل LVI)، أن معركة دارت رحاها في المحيط المتجمد لذا تجمد الكلام والأصوات، ومع عودة الدفء وارتفاع درجة الحرارة من جديد، ذابت الأصوات وأعادت الصخب الأصلي، ولكن القراءة ليست هذه التدفئة التي تسمح بتحرير كلام متجمد بإشارات مطبوعة والعودة إلى قوة التلفظ الأصلي الحقيقي. والحقيقة أن القراءة تنتج سبلا جديدة دوما انطلاقا من ترتيب معين لإشارات ناقصة؛ إنها لا تتيح الوصول إلى صيغة الفعل الأولى، إلا بإلحاح في التلفظ الذي يعتبر من مميزات عملية سير النص.

وينتج عن الاهتمام باستراتيجيات القراءة عن تلاقي إشكاليات جد متقاربة. أولاها، الأعمال حول **«نحو النص»** أي الأبحاث التي تناولت منذ النصف الثاني من الستينيات وحاولت إعطاء مضمون دقيق لمفهوم **«الانسجام النصي» (cohérence textuelle)**: ما هي العوامل التي تتدخل ليعتبر المتكلمون مجموعة جمل متتابعة منسجمة وأخرى لا؟ لكننا لا حظنا تدريجيا بأن المشكل لم يطرح بصورة جديدة، فالانسجام ليس مجرد معنى ملازم للنص بل هو أيضا نتيجة الإستراتيجيات والإجراءات التي يستخدمها لبنائه انطلاقا من إشارات النص. **إن الانسجام ليس في داخل النص ولكنه يقرأ عبره، فهو يستلزم وجود نشاط القارئ.**

أما التيار الثاني، المتعلق بـ **«نظرية التلقي» الأدبي**، فلقد تطور أساسا في البلدان الناطقة باللغة الألمانية. وهو يهدف إلى **دراسة النص ليس كمضمون واحد في كل السياقات ولكن كدعامة للتأويلات المتغيرة حسب سياقات التلقي**. فلـ«البروفنسيات» (les Provinciales)، على سبيل المثال، وضعية مختلفة حسب قراءتها كسلسلة من المقالات النقدية الجنسنية المجهولة والسرية أو كعمل لباسكال Pascal مخصص للأدب الفرنسي.

إذن، فهذان التياران ذوا منبعين جد مختلفين، فالأول يتصادف تلقائيا مع الذكاء الاصطناعي وعلم النفس الإدراكي، أما الثاني فيغوص في علم الاجتماع والتاريخ، ومع ذلك، فمن الطبيعي، أن يلتقيا مع التداولية لأن اهتماماتها مشتركة.

القــراء :

إن الاعتراف بالدور الفعال الذي تلعبه القراءة يعتريه الكثير من اللبس، حيث إنَّ مفهوم القارئ نفسه غير مستقر وغير محدد. ولا يجب حصره في النصوص الوحيدة المكتوبة لقراءتها بصمت، هناك أيضا الأنواع (الكوميديا، القسم، الغناء الملحمي) الموجهة للمتفرجين حتى إن استطاعت أن تكون محل قراءة صامتة. وبالفعل، ففي الحالة الأولى، يطرح مشكل تعاون القارئ بشدة بما أن تأويل النص لا يخضع للتنغيم intonation والملابس والديكور. والأكثر **إزعاجا هو، بدون شك، أن مصطلح «القارئ» يمكن أن يكون قابلا لاستعمالات متعددة، متأرجحا بين التاريخي والمعرفي.**

فالقارئ هو أحيانا، **الجمهور الفعال للنص**، وأحيانا أخرى هو **دعامة لاستراتيجيات فك الرموز**. يتداخل هذان العاملان فيما بينهما، ولكنهما لا يسعيان للوصول إلى نفس الشيء. فهناك وجهات نظر مختلفة حول وضعية القراءة.

1) **بإمكاننا التحدث عن القارئ المستدعى lecteur invoqué** في الهيئة التي يبدو فيها النص بجلاء مثلما هو الشأن بالنسبة لمتلقيه. فمن الممكن أن يكون الأمر متعلقا **بالقلة السعيدة happy few** المشار إليها في نهاية رواية **الأحمر والأسود Le Rouge et le Noir** كقراء مفضلين، ومن الممكن أن يكونوا قراء مخاطبين في متن النص: «أنت ترى، أيها القارئ، أنني سلكت الطريق الصحيح، ويعود الأمر إلي إذ جعلتكم تنتظرون سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات حكاية غراميات جاك». وبالفعل، إن هذا **القارئ الشاهد lecteur invoqué** هو أثر للمعنى الداخلي للنص، وإن خاطب ديدرو Diderot قارئه، فهذا لأن رواية جاك القدري Jacques le Fataliste ليست رواية معيارية ولكنها لعبة في صميم عملية السرد نفسها.

وكذلك، يهيئ ستندال Stendhal حلقة من القراء المختارين. وهذا له علاقة مع نوع الأبطال واللهجة التهكمية لرواياته، وتمثل أيضا هذه الحلقة الطائفة الروحية التي نشأت عن الكتاب نفسه، فمن يقرأ النص يجد نفسه ينتمي، تلقائيا، إلى مجموعة من المتميزين المحظوظين.

2) **القارئ المؤسس lecteur institué**: إن هيئة الخطاب هي التي تستلزم التلفظ نفسه للنص مادام هذا الأخير ينتمي إلى هذا النوع أو ذاك، أو على العموم، ينتشر عبر السياقات المتعددة. وبما أن الأنواع هي وقائع محددة تاريخيا، نجد أنفسنا في نقطة التقاطع بين الأسلوبي والمجتمعي.

وعلى سبيل المثال، فإن الرواية المتحذقة للقرن السابع عشر لا تؤسس نفس النوع من القراء كالذي تؤسسه الرواية الطبيعية naturaliste[1]، فهناك **أنواع من الروايات تقتضي قارئا متحريا يتحرى في النص دون توقف، ويرجع أدراجه إلى الوراء للبحث عن قرائن indices، تولد حالة أخرى من الترقب تشد**

القاريء وتجذبه نحو فك العقدة، وأخرى تؤسس قارئا متطلعا، الخ، وبواسطة المعجم المستعمل والعلاقات الخطابية – البينية interdiscursives (إيماءات إلى أعمال أدبية أخرى) والانتماء إلى دليل الرموز اللغوي (اللهجة الفرنسية، اللهجة البارسية الاجتماعية، اللهجة القروية، الفرنسية النموذجية).

(français, parisien mondain, parler rural, français standard…)، يفترض نص ما المميزات المختلفة للقارئ، إلا أنه من الضروري الانتباه إلى أن هذا القارئ يمكن أن يكون متغايرا، فعندما زعم ميشال تورنيي Michel Tournier إنتاج نصوص «ذات طبقات متعددة تعيد كلها إنتاج نفس المخطط ولكن بمستويات تجريد abstraction متنامية»، فهو يتوجه، دون شك، إلى قراء مناسبين:

«بعد كتابة الجمعة أو برزخ[2] المحيط الهندي Vendredi ou les limbes du Pacifique، شعرت بالسعادة والفخر بإضافة مقدمة جد تقنية لجيل دلوز Gilles Delleuze، في طبعته الجيبية، في الوقت الذي صدرت لهذه الرواية نفسها نسخة للصغار وقدم عرض للأطفال في قصر شايو Chaillot برعاية أنتوان فيتاز Antoine Vitez. وفي نظري يمكن الدليل على نجاح هذه الرواية في شهادة هذين القارئين القطبين: طفل من جهة وميتافيزيقي من جهة ثانية».

(رياح بارقليط: p.188, « folio », Gallimard)

إذن، **فطبيعة النص نفسه هي التي تفرض هذا التعدد في مواقع القراءة**، ولكن يمكن التفكير بأن هنالك، في الحقيقة، إعادة توحيد خيالية افتراضية للقراء المؤسسين: فهذا القاريء المثالي سيصبح ذلك الرجل الكلي الذي سيتصالح، بواسطة الرواية، مع روحه الطفولية وأعلى درجة في استعماله لعقله، وبوسعنا قول الشيء نفسه بالنسبة لهذه الكوميديات المتعددة التي تجمع بين حوارات مرهفة دارت بين شخصيات من طبقة راقية اجتماعيا وحوارات دارت بين مستخدمين في إطار أكثر شعبية. ومن المؤكد أن الأمر يتعلق بقراءة مؤسسين مميزين، ولكن في فضاء يحكم ضمنيا نظرة العالم هذه، فإنهم ينتمون إلى المستويات المتكاملة في تراتبية تصاعدية: حيث أن الميول الحسية تخضع للائحة الأحاسيس الرفيعة كما الخدم بالنسبة للنبلاء في سلم الطبقات الإجتماعية.

3) بانتمائه إلى نوع معين، يقتضي عمل ما نوعا معينا **من المتلقي**، مميز اجتماعيا وسنتطرق هنا إلى **الجمهور الأجناسي Public générique**، ففي سنة 1660، لدى كتابة المبشر الكاثوليكي لخطبة أو **عند كتابة مؤلف درامي للهاة** التدسيس[3] comédie d'intrigue، فهو يعلم أي نوع من الجمهور سيتوجه إليه وما هي المعارف التي يفترضها لديه. هذه الاستباقات هي التي تحدد التلفظ في مجمله، وكل من الجمهور الأجناسي أو القارئ المؤسس يتفاوتان بدرجات مختلفة. وانطلاقا من نفس المتلقي الأجناسي، بالإمكان التعاطي مع قراء مؤسسين جد مختلفين: فبالزاك، Balzac وستندال Stendhal لهما تقريبا

نفس الجمهور الأجناسي، ولكن يبدو من الواضح أنهما لا يؤسسان نفس القارئ عبر تلفظهما.

إن العمل الأدبي لا يندرج ضرورة في الأعراف السائدة، ومن الممكن أن يتلاعب معها. لدى معرفة توقعات هذا الجمهور الأجناسي، يتمكن المؤلف من إثارة المفاجآت أو الخيبات، فعند سماعنا عنوان مسرحية «المطربة الصلعاء» «la Cantatrice chauve» ينتظر المتفرج رؤية مشهد تحمل فيه شخصية أساسية نفس الاسم، غير أننا نعلم «أنها» لن تظهر أبدا. هذه اللعبة لا تغير، رغم ذلك، شيئا من طبيعة المتلقي النوعي المعني.

4) فالجمهور الأجناسي متعلق بالنوع الذي يبني النص، ولكن هذا الجمهور المفترض منطقيا يجب تمييزه عن **الجمهور الفعلي publics attestés** الذي سيصادفه العمل الأدبي، ونجد هنا، التنوع الفضائي والزماني الذي تسرده نظرية التلقي، فاليوم لا تُلْقَى أغنية رولاند la Chanson de Roland أو أميرة كليف la princesse de Clève إلى جمهور مطابق لجمهورها الأجناسي البدئي. وإن الجمهور الحالي ببيروفنسيات les Provinciales لن يفهم الكثير من النقاش اللاهوتي débat théologique دون الاستعانة بزاد نقدي كبير؛ ولن يبحث عن المصيب أو المخطئ بل ما يهمه هو الأسلوب. واليوم، نحن ندرك C id إدراكا جد مختلف عن إدراك متفرج من القرن السابع عشر والذي يشاهد المسرحية للمرة الأولى، فهناك معارف سابقة على العرض la représentation تتوسط بيننا وبين المسرحية، وبالنسبة للجزء الأكبر من التراث الأدبي، لقد أصبحت القراءة «الساذجة» ظاهرة هامشية، فقراءة الأعمال تخترقها خفية التأويلات السابقة لتلك الأعمال. ولكن فقدان هذه السذاجة يلقى تعديلًا له: يتمثل في الإعفاء من عمل فك الرموز لملهاة التدسيس وحالات التوتر والتوجس، فبمقدور الجمهور الحديث تخيل مجرى متعة المتحدث.

القارئ المتعاون :

يقتضي فك رموز النص أن يكون **القارئ المؤسس متعاونا وقادرا على بناء عالم خيالي انطلاقا من إشارات مزودة. هذا القارئ المتعاون** هو ما سماه إ.إيكو U.Eco بـ**«القارئ المثال»** وعرفه على أنه **«مجموعة شروط نجاح معدة نصيا والتي يجب أن تكون مرضية ليكون النص مفعلا كليا في مضمونه الكامن»**[4]. هذا هو الشكل الذي يتضمنه فك رموز النص، وهذا النشاط التعاوني لا يتعلق بنيات الكاتب، ولكن يعتمد على الإشارات التي يوفرها النص ببنيته وقدراته الافتراضية لفك رموز النص.

هذه الإشارات بإمكانها أخذ شكل يعكس مباشرة مجرى القراءة على المجرى السردي. وكذلك بالنسبة لنص تعليمي مثل «محادثات حول جمع العوالم» « Entretiens sur la pluralité des mondes» لفونتنال Fontenelle، محدثة الفيلسوف المركزية المولعة بعلم الفك هي ممثلة القاريء.

يمكن أن تكون العملية أكثر سردية: مثلما هو الشأن في صديق حميم Bel-Ami لموبسان Maupassant حيث أن تسلسل القراءة مومًا mimé بسفر قامت به الشخصيات توجه فيه البطل دوروي Duroy رفقة زوجته الشابة لزيارة والديه في الريف النورمندي.

((غفت مادلين متبعة تحت لمسات أشعة الشمس المتغلغلة والتي منحتها إحساسا بالدفء في مؤخرة السيارة القديمة، وكأنها مستلقية في حمام دافئ من الأشعة والهواء الريفي. أيقظها زوجها قائلا: «أنظري». لقد توقفا للتو في ثلثي المرتفع، بمكان اشتهر للنظر من أعلاه، حيث يقصده كل المسافرين. ويمكننا رؤية كل الهضبة الكبيرة...)) (1، 2)

يليها وصف لروون Rouen ينتهي بهذه الطريقة:

«أنتظر حوذي العربة انتهاء المسافرين من التمتع، فبحكم تجربته يعرف مدة الاستمتاع لكل أجناس المتنزهين».

يصادف هذا التنظيم النصي الجد بيداغوجي توقف العربة مع الوقفة الوصفية التي تقطع التسلسل السردي. عند الحوذي، يوقف الراوي قراءه عند الأماكن البارزة. فالخاصية الجذابة للوحة الطبيعية وضرورة «رسمها» مدعمة بتواطؤ نصي: يشكل وصف روون Rouen قسما من بين أقسام شجاعة السيدة بوفاري Madame Bouvary. يصف موباسان Maupassant الذي يدعي أبوة فلوبير Flaubert له، ما وصفه الأب من قبل، ويقود السواح إلى المكان الصحيح لـ «الافتتان» و«الإعجاب». هذه الأحاسيس التي من المفروض أن تكون متعلقة في الآن ذاته بالمنظر الطبيعي الذي شاهدته الشخصيات ووصف لوحة رسمها الراوي لقارئه. يبين النص للقارئ، بصورة غير مباشرة، عبر القصة كيفية فك رموزه، فهو يقرأ على كلا المستويين في آن واحد.

يبدو المظهر الخارجي للنص السردي كشبكة معقدة من الحيل التي تنظم عملية فك الرموز والتي تلزم حركة القراءة. وحتى دون وعي منه (وعلى الغالب حسن تصرف ناجم عن تشبع)، يفترض الكاتب، لإعداد مؤلفه، أن القارئ سيتعاون معه لتجاوز «اكتفاء» النص، فيصبح هدف المحلل دراسة «النشاط التعاوني الذي يجعل المتلقي يأخذ من النص ما لا يقوله النص بما سواه من التناص، من مكان نموه ووجهته التي يذوب فيها»[5]. والنص هو عبارة **عن فخ يفرض على قارئه مجموعة من المعاهدات التي تجعله مقروءا، فهو يدخل هذا القارئ في لعبه بطريقة ينتج فيها من خلاله أثرا تداوليا لإنجاح أفعال الكلام الجامعة macro-acte للكلام.**

والعكس بالعكس، فعلى القارئ أن يلتمس احترام المؤلف لعدد معين من القواعد لإمكانية فك الرموز، ففي بداية رواية Cid مثلا، يرى المشاهد شابتين تقول إحداهما للأخرى: «هل أعددت لي تقريرًا صادقا؟ ألا تخفين شيئا مما قاله أبي؟».

وإذا كان هذا النوع من المسرح بسيطا، سيضع فرضية أن إلفير Elvire صديقة حميمة (نودي إليها باسمها: بنكرتها) وأن المرأة الأخرى هي البطلة وأن الأمر متعلق بالحب في هذا «التقرير» المنتظر بشغف. في الجواب الموالي تتعزز هذه الفرضية بما أن شيمان Chimène خاطبت إلفير Elvire بصيغة الجمع ثم يظهر شخص يدعى «رودريغ» (Rodrigue) في البيت الشعري: «هو يقدر رودريغ بقدر محبتك له» (il estime Rodrigue autant que vous l'aimez). والحقيقة أن هذا الملفوظ لا يدل على أن رودريغ Rodrigue رجل شاب وأن هذا الحب اخذ طابعا جنسيا (فمن الممكن أن يكون رودريغ Rodrigue صديقا قديما للعائلة...). فلبسط معرفته، يفترض القارئ أن المؤلف يحترم معاهدات النوع genre.

ولكن هذا المؤلف، متأكد من أن القارئ سيضع فرضيته، بإمكانه انتهاز الفرصة ليخيب آماله ويحدث المفاجأة. وهذا ما رأيناه في «المغنية الصلعاء» (la Cantatrice chauve). ولقد حلل إيكو Eco أقصوصة لألفونس آلي Alphonse Allais «فاجعة باريسية بحتة» (un drame bien parisien (1890))، والتي تمكر بفرضيات القارئ: فبعد أن حث قارئه لتأويل النص باتجاه معين، يعلن له أخيرا خطأه. تفصيل مهم: تروي هذه الأقصوصة خيانة زوجية، فسرد القطيعة بين العقد الزوجي يتصادف مع تلفظ يقطع العقد السردي الضمني بين الكاتب والقارئ المتعاون.

ولكن الانتهاك ما هو إلا وسيلة لاحترام العقد على مستوى آخر وإجبار القارئ على إعادة التوازن بفرض أن الانتهاك ذو مغزى. وفي حالة أ.آلي A.Allais، بوسعنا الظن بأن الأمر متعلق بالإشارة إلى العمل المشترك للقارئ الذي يخضع له دون علم، وبهذا اللعب في التلفظ الأدبي، يحترم الكاتب، مع ذلك، عقده النوعي، بما أنه وبمنتهى الدقة مكلف بكتابة نصوص متلاعبة. وبالنسبة لـ «المغنية الصلعاء» (La Cantatrice Chauve)، فإن انتهاك التقاليد المسرحية يبدو أن له أثرا في اتهام نسيج الأعراف الاجتماعية الذي يخفي اللامعقولية absurdite الجوهرية للوجود.

وهكذا، فإذا كان النص يقتضي عملا من القارئ لن يكون هذا لأجل ضرورة اقتصاد الوسائل، بل أيضا لأن الحالة الجمالية للعمل الأدبي تستلزم أن يساهم المتلقي في تهيئة مغزاه ولا يكتفي باكتشاف مغزى بداخله هو، حتى إذا كان، وهو الغالب، التطابق بين اصطلاحات المؤلف والقارئ جزئيا، فهذا لا يمنع كل قراءة: فسنن مؤلف الأوديسة l'odyssée تفترض بأن قراءها هم دون شك مختلفين عن «السنن» التي يفترضها قراء اليوم على أنهم يحترمونها، ولكن هذا الالتواء نفسه يمكن أن يصبح جزءا مكملا للذة

التي يشعر بها القارئ المعاصر، فعلى سبيل المثال، يعوض النقص التأويلي الشعور بالاغتراب.

إن التسامح لدى أي فشل تأويلي كبير انطلاقا من كونه لا يمس جوهر السرد في شيء، بالكاتب فلو أن قارئا عصريا يقرأ في «يائس» (Désespéré) لـ ل.بلوي L.Bloy فيما يتعلق بالكاتب دولوريي Dulaurier (ونموذجه هو بول بورجي Paul Bourget):

مخترع بسيكولوجية قطبية بإضافات معتبرة لبعض طرق ستاندال Stendhal للانفعالية النقدية لـ م.رينان M.Renan الرفيعة لكل من يكره الفحولة الثقافية...».

ومن الوارد تمكنه من فهم معنى وضع «الانفعالية» dilettantisme بين مزدوجتين: اللفظة الجديدة néologisme؟ التمثل citation؟ الاستبعاد التحقيري؟ غير أنه إذا لجأ المؤلف إلى الحرف المائل Italique، فهذا لأنه يستبق ردود فعل القارئ ويقصد بهذا تسجيل هويته بحيلة وتأسيس تواطؤ. ولكن هذا الفشل هو أقل تأثيرا على فك الرموز الذي يعتبره القارئ سبيلا لتأويل ما هو مكتوب بالخط المائل بواسطة نظامه الخاص للمعالم الإيديولوجية.

والحقيقة أن النصوص لا تكتفي بتسجيل نفسها بدقة اقتناء على غرار معاهدة معدة من قبل. هي **تصنع بنفسها الطريقة التي يستوجب بها فك رموزها، وهي تؤسس عقدا خاصا داخل مجموعة من المعاهدات التي لن يكون متنازعا عليها كلها**. وبما أن على القارئ أن لا يكون متغيرا في ما تحت الأدب la sous-littérature، **فكل عمل حقيقي خلال العملية التلفظية «يشكل» (forme) قارئه الخاص به**. وفي الأدب الذي ليس خاضعا كليا لشروط نوع ما، يجب أن لا يكون هناك إفراط في النص مقارنة مع توقعات القارئ. يعتبر كل نص تفاوضا حاذقا بين ضرورة أن يكون مفهوما وغير مفهوم، أن يكون متعاونا وضرورة زعزعة تلقائية القراءة بطريقة أو بأخرى. علاوة على ذلك، **فإن النص لطالما بذل ما بوسعه، بواسطة تنسيقه لتحديد فك لرموزه، فهو في الحقيقة لا يستطيع حبس قارئه. وهذا الأخير يباح له ربط علاقة أي عناصر من النص على حساب طراز التقدم الذي يزعم فرضه. إذن، فالعمل الأدبي هو حجم معقد قابل للخوض. من جهة، يراقب فيها فك الرموز أما من جهة أخرى فهي تجعل أشكالا ممكنة غير متحكم فيها من القراءة.**

المصدر الأصلي: Le lecteur comme énonciation

* Dominique Mainguéneau

*dominique maingueneau, Pragmatique pour le discours littéraire, dunod, paris 1997, p.p: 27-35.

إحالات النص الأصلي :

1- **ذو علاقة بالطبيعة في اللغة والأدب.**

2- **مقام أرواح البررة قبل مجيء السيد المسيح ومكان ذهاب الأطفال الذين يموتون قبل أن يعمدوا .**

3- Comédie D'intrigue، **ملهاة التدسيس، هكذا ترجمها إبراهيم حمادة، معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية، مطبوعات دار الشعب** 1971، **ص** 284. **ملهاة التدسيس: الملهاة التي تهتم أولا وقبل كل شيء بالحبكة القائمة على التخفي والدسائس، والمقالب المضحكة التي تدب غالبا في السر.**

4-Lector in Fabula, Grasset, 1985, P.80.

5-U. Eco, op.cit, p.7.

تاریخ و علوم

التجميلية الهندية

بقلم : كلود ليڤي-ستروس ترجمة: د. جمال الدين ڤوعيش

تقديم

أردنا تكريم المفكر الأنثروبولوجي **كلود ليڤي- ستروس**(Claude Lévi-Strauss) بتتبع مسيرته المشكلة الأكثر عناءً، وهي تلك التي تلحق مؤلفاته الاثنوغرافية لسنوات ما قبل الحرب إلى تحليلاته المعاصرة للعالمين پوسان وماني. كما أنّ نصّه التجميلية الهندية لم يترجم إلى اللغة العربية.

تشهد، وبصفة خاصة، هذه التجميلية الهندية بنوع من الجمالية الغريبة التي تطرح لغزا أنثروبولوجيا. هذه المرحلة من الرحلة الاستكشافية البرازيلية الأولى هي معروفة للغاية، لكن روايتها الأولى، المذكورة باستمرار، لم تطبع باللغة الفرنسية. سنرى كيف أنّ هذا المقطع الاثنوغرافي «المؤمرك»، مركّز حول نقطة بارزة، حيث سيصاب بها كل قارئ، متضامن مع مشروع أنثروبولوجي له تحدد ميزاته الالتزامات الأكثر آنية.

نشر المقال بالانجليزية في العدد الأول لـ.V.V.V. وهذه المجلة أسسها العالم الفرنسي أوندريه بروتون سنة 1941م، بمعنى بمجرد وصوله إلى نيويورك بعد سفره على سفينة القائد لومارل، تلك السفينة المحمّلة بمهاجرين، والتي عرفها **كلود ليڤي-ستروس**.

وقد ذكّر بروتون بالقصد في حواراته الإذاعية(1952م):

يكفيني أن أقول إنّ هذا العنوان، ثلاثي V، قد بررته كذلك، ولكن ليس V كتمنّي - أو طاقة- بالعودة إلى عالم قابل للإعمار والتفكير، وانتصار على قوى التقهقر والموت المتواصلين الآن على الأرض، لكن ضعف V، بمعنى V ما بعد هذا الانتصار الأول، V فوق كل ما يعمل على دوام عبودية الرجل للرجل، وفوق هذا W، لهذا الانتصار المضاعف، V فوق كل ما يعارض تطور الفكر، منه تحرر الإنسان وهو شرط أولي.

بالنسبة للعنوان، تجميلية هندية كان يحمل التفاتة حقيقية لبودلير(رسام الحياة العصرية: 12 ثناء للتجميل). كان يلاحظ ليس بنوع من الوفاء فقط لنصائح كتيّب الاثنوغرافيا لموص- حيث كانت ملاحظاته منتشرة قبل طبع كتابه بعد الوفاة. ومنه، ظهر باب التجميل، بين فنون تشكيلية وطقم وزخرفة:

كل نقطة أساسية من الجسم يفترض أنّها تملك أعيناً، أنّها رأت العالم الخارجي... كل الأشكال الأولية للكتابة يجب أن تدرس بشكل فردي. فإذا عرف الرمز وفهم، فهو أصلا كتابة.

كذلك، كان موص يؤكد على ما يلي: «لا يمكن الاعتقاد أنّنا نعرف لأنّنا رأينا»، لنذكر أنّ منهجية العمل الجيّدة ستكون المنهجية الفيلولوجية القائمة أولا على تناول الحكايات وتجميع المتغيّرات. هنالك أشياء كثيرة مذكورة في تلك الإرشادات المقتضبة، والتي حصرها **ليڤي-ستروس** باستظهار هيكلية تمس كل إنتاج رشيد، واقعة تحت النقوش في هيئة أساطير.

فيما بعد (الرجل ورموزه) سيذكرنا بالتقارب ما بين التجميلية وعلم الكون، وكأنّه لا زلنا ندافع حول أهمية ما يمكن أن ينعت حول عدم اكتمال اثنوغرافيا الثقافة المادية أو المبادلات الاقتصادية.

في كتابه مدارات حزينة (Tristes tropices) أهدى فصلا كاملا (20) لهذه اللحظة الاثنوغرافية. توجد الكثير من الوثائق والأشكال، موضوعة حول دعائم مختلفة، وصور مرسومة بشكل محلي، تضع في السياق تلك الرسومات الوجهية. شهادات من كل المراحل، منذ أول الاتصال مع «البيض» إلى أقوال المخضرمين المعاصرين، تزيد في نماء ملف هو أصلا وضع ثقله على جميع المعطيات الموجودة في مذكرات الميدان. لكن، يجب لفترة طويلة، تناول المراحل المختلفة للبنيوية، لامتلاك حفريات علم الكتابة لثقافة سامية. فيما بعد، غرابة تلك الرسومات الوجهية ستوضع على الأقنعة. إنّها تظهر الفرق الجنسي الذي يسيّرها، نحو ثنائية نهائية ومنه، طيف مستقرئ للبقية. وبعد رسم تلك اللاأوجه، ستسمح برؤية خارطة تقاطيع أساسية تتزيّن أكثر من جماليتها، ومن مقاطعها التي تسكن النظر.

أشكال ومقاطع لمصارع، وهي تنظم الحساب الخوارزمي (المصطلح **لليڤي-ستروس**). لكن هذا كذلك، هو ما فوق الإثارة الجنسية التي لا يمكن مجاوزتها عندما تصبح محركا للذكاء، وبذلك يصبح جزءا من هذا العبور من الشمال الغربي.

وعند حسابته، يقاس بعشرات السنين، انطلاقا من مذكرات البرازيل إلى ما بعد كتابيه؛ طريق الأقنعة والفاخورة الغيورة، يجب تشكيل سؤال، وهي فعلا مذكرات مضمرة، ومنها ينم هذا المقال المشع لسنوات 1940م. كان **ليڤي-ستروس** يلاقي صورة فوتوغرافية للنقوش المحلية.

نص التجميلية الهندية

هنود **الكادوڤيؤو** (Caduvéo)، أصحاب رسومات مثيرة أعيد نسخها في هذا العدد اختفوا شيئا فشيئا في جنوب البرازيل، ليس ببعيد عن حدود البراغواي، في المنطقة الجنوبية لولاية ماتو غروسو (Mato Grosso)، جهة تجذب الخيال: حول ساحلي ريو باراغواي (Rio Paraguay) يوجد **البوتانال** (Le Pantanal)، أكبر مستنقع في أمريكا، بل ومن أكبرها في العالم، حيث يمتد على خمسة مائة كيلومتر مساحة، منه ثلاثة أرباع عائمة في الماء. بنظرة من السماء، نواحي الوديان الكبرى التي تعلو بالصدفة

تشكّل مهرجانا من المنحنيات والتعرّجات، تبتعد عنها المياه لفترات. ومجرى النهر محاط بأقواس دكناء متعددة، وكأنّ الطبيعة، الفنانة هي الأخرى، ترددت كثيرا قبل أن ترسم مؤقتا المجرى الخالي للنهر. لكن النظرة من الأرض تسمح **للپونتال** ببسط هيئته الخلابة وسط منظر القطعان التي تختبئ، وكأنّها أقواس عائمة في أعالي السهول التي فلتت من الفيضان؛ رغم أنّه في البحيرات الشاطئية، آلاف الطيور تشكّل قبّة من الريش الأبيض تبرق في أعالي الأمكنة اللامتناهية. فوق هذا الإقليم اللامعقول، قاوم هنود الغيكورو (Guaicuru) حتى نهاية القرن 19م ضد الغزاة الإسبان. وهيكلة مجتمعهم المحارب المعقدة، مع اختلافاتها الطبقية من أعيان وعوام وعبيد، كان لها طابعا كهنوتيا، وهو ما يظهر بشكل غير مباشر في فنّهم التشكيلي.

من عمق هذه الأمة العريقة قديما، نشأت قبيلة **الكاديڤيؤو**، والتي سمّيت سابقا الإيييغايغيس (les Eyiguayeguis)، والتي أصبحت اليوم من الآثار النادرة.

منذ القرن 18م، اتصل بهم المسافرون ودهشوا للأوشام والرسومات الجسدية التي تميّز هذه القبيلة. وجوههم، وفي بعض الأحيان جسدهم بالكامل يغطون بشبكة من الزخرفة المتشابهة والمتداخلة مع أشكال هندسية دقيقة. إنّ التوصيفات الأولى الموجودة بحوزتنا هي تلك التي قام بها المبشّر المسيحي سونشار لابرادور (Sanchez Labrador)، والذي عايش القبيلة ابتداءً من 1660م؛ والوثائق الأولى طبعت بعد أكثر من قرن فيما بعد، من طرف المكتشف والرسام الايطالي غيدو بوغياني (Guido Boggiani). لكن أكبر سلسلة، دون شك، هي الأخيرة، بالنظر إلى السرعة التي عجّلت القبيلة بالانقراض - هي التي جمعناها نحن في 1935م. والوثيقتان المقدمتان هنا، المختارة من بين أربعمائة رسم أصلي للسكان المحليين، هي نماذج لرسومات وجهية.

في كل رسم، نجد المقطع في شكل جبهية مقوّسة، تمثل الشفة العليا، بغرض التزيّن: إنّها الرابطة الوحيدة المسموح بها مع الطبيعة. من هنا، يتطور الرسم بحرية على الوجه، مضادا في أغلب الأحيان تناظره، مغطيا اللحية، الخدود، الأنف، الأعين والجبهة. غير أنّه، تتوزع القطع عموما حول محور متوسط أفقي.

قديما، كانت تلك الرسومات موشومة أو مرسومة، هذه التقنية الأخيرة، هي الوحيدة المستعملة راهنا. يعمل الفنان - وهو دائما امرأة- على وجه أو جسد رفيقة أو ملعقة رقيقة من الخيزران مغمسة في عصير أزرق- أسود لفاكهة، إنّه الجينيپاپ (le genipapo). إنّها ترتجل دون نموذج، دون مخطط، أو معالم موضوعة. هذه المنجزات المتطورة للغاية، متناظرة ومتوازنة في آن واحد، ستجذب في مكان والأخرى ستوضع دون ترددات أو زلات إلى نهايتها. إنّها، في الظاهر، صادرة عن موضوع أساسي لامتغيّر أين الأصلبة والالتواءات، والأشكال اللولبية الغامضة تلعب دورا كبيرا.

يبقى أنّ كل واحد يشكّل إنجازا أصيلا: فالقطع الأساسية هي مترابطة بمهارة، وخيال متناه، بل وجرأة غير مؤذية. إنّ الرسم على شاكلة **الجينيپاپو** لا يعمّر إلاّ لأيام؛ عندما تبدأ تضمحل، سنحذفها لاستبدالها بديكور آخر. كذلك منذ نصف قرن، لم يستخف الرجال بحمل تلك الحليّ.

بالنسبة للأمريكوي، يمثل الفن المنقوش **للكاديڤيؤو** لغزا صعب التفسير، وبشكل عام حاول الجميع تجنّب تشكيله. إنّ الرسومات الجسدية ليست نادرة في أمريكا الجنوبية، لكنّها تختزل في رسومات خطية، أو في ديكورات هندسية بسيطة للغاية، وهي بذلك لا تشكّل قاعدة كافية لدرجة التفنن الواضح هنا.

توجد تماثلات تمّ تمييزها مع فن شبه- إينكا لآنكون (pré-Inca d'Ancon)، على وجه الخصوص مؤلفات اليونان، كذلك مع الباروك شبه الكولومبي دو ماراخو (de Marajo)، أو أكثر من ذلك مع سونتارام (Santarem)، على الغصن السفلي للأمازون. لكن التشابه هو على مستوى التفاصيل فقط، ونمط **الكاديڤيؤو** المصاغ في وحدته الشكلية، يشكّل أصالة قوية بالنظر إلى ما أنتجته أمريكا الجنوبية والوسطى. خاصة، وأنّ الأمر لا يتعلق بنمط «بدائي» بالمعنى الذي يطلقه منظّرو الفن على هذا المصطلح. بالعكس، هذا الفن المتقن، المتبصر، وشبه المشفّر في وسائله التعبيرية وفي فهرس موضوعاته (نحو الرمزية، رغم أنّها ضاعت)، يثير ثقافة عريقة، مليئة بالتكلّفات. على المستوى التشكيلي الخالص، يظهر أنّه نتاج تطور طويل.

وإذا أردنا البحث في التناظرات الجمالية، سنفكر في الصين، أو في الهند؛ توجد مقترحات ملحة للتماثيل البوذية في الألسنة النارية، الالتواءات، في المناقير المعقوفة. لكن عند الاثنوغرافي، مثل هذه التنبهات الآسيوية لا جدوى من ورائها.

يوجّه **الكالديڤيئيون** رسوماتهم لاستعمال تزييني. يجب الافتراض سابقا، أنّ مدلولها كان أكثر انضباطا. حسب سونتشاز لابرادور، تميل على الجبهة متوقف عند الحاجبين كانت علامة مميّزة للطبقات الحاكمة، بينما رسم في الجهة الدنيا للوجه كان إشارة مبتذلة مخصّصة للعبيد. فضلا عن ذلك، كانت حرفة الرسم من اختصاص النساء الشابات فقط، في عهد سونتشاز لابرادور. «فهو يكتب، من النادر، أن تضيّع النساء المتقدمات في السن الوقت في الرسم: فهي تكتفي بما تتركه السنين على وجوههنّ.» لكن المبشّر، سيصيبه لارضى باطني بسبب ما أصاب وجه الخالق من تشوهات، وهو مجبر على إيجاد تفسيرات. باستغراقهن لكل هذا الوقت في وضع تفاصيل الزخارف، هل كانت تبحث عن تجنّب الجوع؟ وعلى كل حال، الأمر متعلق بأغلوطة؛ فقد علمنا أنّ أمورا من هذا القبيل قليلا ما تحدث كلعبة. حتى المبشّر الذي رغم أنّه من الصعب عليه قبول مثل هذا التصور، يعرف جيدا أنّ الرسومات الجسدية تمثل بالنسبة للإنسان المحلي نشاطا حيويا، وهي تشكّل موضوعا قائما بذاته. سيلاحظ، منشغلا، في رجال يقضون أياما كاملة في رسم بعضهم البعض، ناسين صيدهم وعائلاتهم.

«لماذا أنتم أغبياء إلى هذه الدرجة؟» سائلين المبشرين. «لأنّه، ما سبب غبائنا الكبير هذا؟» مجيبين عليهم. «لأنّكم لا تكترثون مثل الاييغاييغيس (les Eyiguayeguis).»

لا يجب هنا أبدا الاعتماد على اعتبارات نفعية. لا يوجد أخطر بالنسبة للاثنولوجي من قضية إعادة بناء العقلية المحلية انطلاقا من تجاربه السيكولوجية. إلاّ أنّه في حالة عقلية مثل هذه، أو أكثر من ذلك حول العادات التي لها معنى جنسي واضح، الأمر الذي يجعلنا نفترض أنّ الاستجابات الظاهرة، تبدو أكثر عمقا لكي تصبح شاملة، على الأقل لدرجة معيّنة. أيّ واحد عرف **الكادوڤيؤو**، يمكن له أن يشهد حول الفاعلية الجذابة لرسوماتهم الوجهية. لنساء **الكادوڤيؤو** عادة جنسية منغرسة بين ضفتي نهر ريو بارغواي (Rio Paraguay)؛ الكثير من مخضرمي، أو من هنود القبائل الأخرى جاؤوا ليستقروا في إقليمهم متزوجين مع النساء المحليات.

فالجمال شبه الساحري لرسوماتهم الوجهية والجسدية هي بدون أدنى شك مرتبط بسلطة لفت الأنظار والانجذاب. هذه الأشكال المتقنة والدقيقة، والحساسة مثل تقاطيع الوجه، لكن تتهم تارة وتحرّف تارة أخرى، تزيّن، في وقت واحد، تناقض، وتعطي للوجه النسائي نوعا من النشاط اللذيذ.

إنّها وعد وبداية انحدارات خبيرة. هذا التشريح التصويري يحفر في الجسم الإنساني أجمل بناءات الفن. وعندما يعارض سونتشيز لابرادور بنوع من الحصار على «نعم الطبيعة التي تنتج بشاعة مصطنعة»، إنّه يعرف رغم تناقضه، بما أنّه يؤكد، تقريبا في نفس الفقرة، أنّ أروع النجود لا يمكنها مضاهاة تلك الرسومات المحلية. في الواقع، الاستجابة الجنسية للجمالية لم تكن بهذا القدر، وبدون شك، بهذه الخبرة أكثر تقدما وتطورا. بالنظر إلى هذا العمل المكتمل، تبدو الواقعية غير المتقنة للمساحيق وأحمر الشفاه ذات مجهود سخيف.

يستحق الاييغاييغيس (les Eyiguayeguis) حمل تسمية ‹المتوحشين الطيّبين› في سياق القرن18م. فالدرس الذي قدموه لا يعارض أبدا فكرة حالة الطبيعة حسب مفهوم القرن 18م. فيما يتعلق بـ»القوى الطبيعية الغريزية»، تشير الرسومات إلى الاستقلالية، إلى التحكم، وهي بدون شك، أسمى بكثير عن حيل وبراعات الانسان المعاصر. هذه الحرية السيادية المتحكّمة في الجسد، التي أعاد تأكيدها الفن الهندي، ستتاخم الحرام بكل تأكيد. من وجهة نظر المبشر المسيحي وهو سونتشار لابرادور الذي بيّن بتبصر فردي بضبطه للشيطان الذي يعمل هذا الفن على إخفائه. فهو نفسه يوضّح طابعه البروميثيوسي (نسبة إلى بروميثيوس؛ إله النار) عندما يصف النشاط التقني المستعمل من طرف السكان المحليين لتغطية أجسادهم برسومات جميلة حول النجوم. «كذلك كل إييغاييغي (Eyiguayegui) ينظر إلى نفسه على أنّه أطلنطي (Atlante) آخر، وليس فقط على الأكتاف أو في اليدين، لكن على كل جسمه،

ليصبح دعامة لعالم مصور بشكل معوج.» ربما هذا ما يوحي بالطابع الاستثنائي لفن الكاديڤـيؤو؛ عبر وساطته، يرفض الإنسان أن يكون انعكاسا بسيطا لصورة إلهية.

النص الأصلي: من كتاب (الصفحات 13 و29).

Claude IMBERT, Lévi-Strauss le passage du Nord-Ouest

Précédé d'un texte de Claude Lévi-Strauss «INDIAN COSMETICS»

Les éditions L'Herne, Paris-France/Octobre 2008.

معمار القرن العشرين

دونيس شارب SHARP Dennis ترجمة مختار بن عياش

«إن ما نستوعبه للوهلة الأولى ويبقى ثابتًا في الميدان المعماري هو الأشكال، الخطوط والمناظر الجميلة» هينري روسال هيشكوك

ليس من اليسير تحديد اللحظة التي يمكن أن تكون نقطة انطلاق للدراسة في جوهر هذا الموضوع، خاصة ونحن نتقدم إلى فحص عصر تتغير فيه الأفكار والأساليب والأذواق بسرعة مذهلة.

بماذا يعرف معمار القرن العشرين؟ هل يختلف عما سبقه؟ في أي شيء يختلف؟ وماذا تعني عبارة: المعمار العصري ؟ وهل كان مفهومها العام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يختلف عن مفهومها في القرن العشرين؟

المعمار العصري

لقد تكلفت باستقراء تاريخ المعمار في هذا القرن، فاجتهدت في اختيار النماذج ذات الأهمية القصوى في البناء من حيث النوعية وكذا تلك التي كان دورها مجددا في الميدان المعماري طيلة سبعين سنة خلت منذ بداية القرن، وقد استخدمت كلمة «عصري» كمرادف للطليعة لأن مفهومها قابل للاتساع تماما مثل العصرنة المعمارية.

وكلمة عصري يمكنها أن تسع عملية التطور الطفيلي لكثير من الحركات الغامضة من مثل: حركة تجديد «الباروك»، تجديد النزعة التحررية، ثم تجديد الحركة الجهوية؛ كما تسع هذه الكلمة أيضا أعمال أولئك المبدعين الفرادى من ذوي النزعة الفردانية.

إن ما لم يؤخذ بعين الاعتبار في دراستنا هذه هو المباني الإدواردية في إنجلترا والتي كانت رائعة الجمال لكن دون أن تؤدي مفهوما أو معنى معينا؛ وكذا كل ما له علاقة بهذه المباني في باقي القارة الأوروبية. وكذا ما يسمى بالنزعة الكلاسيكية المستحدثة على غير خلفية ثقافية والتي عملت الحكومات الفاشية على إحيائها كما تهمل هذه الدراسة كذلك تلك المبادرات المبعثرة لمعماريين رسميين ودوائر الأشغال العمومية في أنحاء مختلفة من العالم.

إذن، فالعمارات المعروضة في هذا الكتاب ليست بالضرورة أحسن ما أنجز في عصرها كله، ولا تلك التي استحوذت على قدر أكبر من الوصف والنقد، بل إنني أعتقد أن هذه الدراسة هي محاولة فريدة من نوعها تستهدف تسليط الضوء على عمليات جريئة كان هدفها تجديد أساليب الحياة وأنماطها وتقاليد

تعارف عليها الناس في الميدان المعماري، وفي هذا المنظور بقيت أتساءل عن مبررات عزل عمارات كان لها هذه الصفة الثورية عن انتمائها إلى القرن العشرين حتى ولو كانت قد بنيت في عام 1830، لأنها كانت توصف بالعصرية عند بنائها، وإذن فهي تختلف في تشكيلها عن معمار كل العصور السابقة؟

إن الأستاذ: «و.لوب» يجيبنا عن هذا التساؤل قائلا: «إن المعمار العصري هو كل معمار يمثل نمطا من أنماط المعمار، وهو أيضا كل معمار يجيب عن ماهيته. وهو أيضا كل ثورة معمارية تساعدنا على إيجاد تعريف جديد للمعمار».

إن عصريي العهد الفيكتوري كانوا يبحثون عن تغيير للنمط، أما تغيير التعريف فلم يفكروا فيه لأنه ببساطة يستلزم وقتا طويلا.

هيجان حقيقي

كان القرن التاسع عشر عهد تطور سريع، وانتشار لم يسبق له مثيل في كل ميادين النشاط الإنساني وكانت الأفكار الجديدة تنطلق من عقول المخترعين والصناعيين، الفلاسفة والفنانين كما تنطلق الشرارة من المحركات الكهربائية القديمة.

ونستطيع تتبع هذه المقاربة البسيطة لنكشف عن هذه الحقيقة: ففي الميدان الفني والمعماري يعتبر القرن التاسع عشر مرحلة كهروديناميكية، باعتبار أن بعض الطاقات التي تتأثر بتيار ما تتحرك باتجاه تحريك الطاقات الكامنة الأخرى. فالمعمار كان في «هيجان حقيقي»، إذ أن اتساع المعرفة في الأنماط القديمة جعل البنَّاء لا يلتزم في بنائه بما رسمه المهندس في المخطط، بل كل همِّه أن يصل إلى شكل يختلف تماما عما عرف، وكانت الحاجة إلى عمارات من طراز جديد كليا مثل محطات السكك الحديدية، مستشفيات، جامعات، وأحياء عمالية...

كانت حافزا للمعماريين أنفسهم لتعميق بحثهم في النمط والشكل والطريقة.. المرحلة الثانية من الحركة العصرية بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر وقد اتجهت في ازدواج بين حرية الأفكار من جهة وشعور ثوري عام من جهة ثانية بعد أن تبين العدو في شكله الرجعي والاصطفائي(Eclectisme). وكان مؤكدا أن الذي يخرج منتصرا في هذه المعركة يكون بمثابة القطب لنظام جديد ولفن جديد ولإحساس جديد هو التطلع إلى عالم جديد. ومن أبطال هذا التجديد: ريسكان موريس داروين، وفرويد، وكذلك اختصاصيي البرغي والمحزق أمثال: «جوزيف باكستان» المهندس البارع صاحب قصر المعارض الزجاجي لعام 1851 في لندن و«بارلوف» مهندس محطة سانت برانكاس التي كانت تحتوي على قوس قطره في ذلك الوقت (1864) أكبر قطر في العالم، وكثيرون أولئك المخترعون الذين حولوا المعمار المتقوقع في أربعة جدران إلى بناء كله نور لأمكنة مفتوحة ومغامرات هيكلية جريئة، وهناك رواية شاعت عند كثير من المؤرخين المعماريين تقول: إن ظهور مواد جديدة قد أحدث شرخا معتبرا في معظم قطاع التنظيم.

والحقيقة أن معظم هذه المواد والتقنيات المستعملة حتى إلى وقت متأخر جدا من القرن العشرين كان معروفا من قبل، أما المواد التقليدية الأخرى كالخشب والحجارة والآجر والخرسانة فهي تعود إلى العصر القديم، وتبقى المادة التي لاذ بها المهندسون بثقة لا محدودة ثم إنهم استعملوها بشكل خارق هي بالطبع مادة الحديد المسكوب منه أو المُطرّق (Forgé).

تطويع الحديد

إن الحديد لم يكن مادة جديدة في حد ذاته، بل إن الطرق المستحدثة التي طوعته أكثر من أي وقت مضى جعلت منه بديلا عن الحجارة المنحوتة وعن الآجر، ولولا أن هذا الاهتمام المفرط بالحديد الذي تولى كبره مهندسو القرن التاسع عشر لكان المعمار العصري شيئا آخر. بيد أن هذا التطور في تطويع الحديد برز لقلة من المعماريين كواحد من الآفاق الجديدة. ومنهم «فيوليت لوديك» المعماري المنظر الموسوعة الفرنسي الذي تنبأ بإعادة (استعمال الحجارة بطرق عديدة أكثر اقتصادا من ذي قبل بل وأكثر عقلانية تماما مثل استعمال الحديد)، ولكنه لم يتمكن من رؤية ذلك كما كتب عنه «جون سومرسون» في مقال (بيوت سماوية): «إن عقلانية فيوليت لوديك لم تنجح إلا في تحسيس الإنجليز الذين حاولوا تحديد التجارب في الأنماط». وبعد أمد ليس ببعيد كان تأثير «فيوليت لوديك» و«أوتو، واقنير» المعماري النمساوي والهولندي «بيرلاج» والألماني الكلاسيكي «كارل فريديريك شينكل» كان تأثير هؤلاء ناجحا في خلق جو من النقاش وتبادل الآراء الذي ولد فيه المعمار العصري، هذه الشبكة المركبة من التأثيرات المترسبة أفرزت ما يسمى بحركة «الفن الجديد» الذي عاكس اتجاه الإيحاء الفرنسي لحركة نهاية القرن التي امتدت في أوروبا امتداد النار في الهشيم بعد عام 1885 ولم تأت حركة الفن الجديد بشيء خارق في التنظيم الفني بقدر ما كانت روحا تعبر بحرية مطلقة استجابة لمطالب روتينية بسيطة في الحياة اليومية.

أما المادة التي لا يستطيع نص معماري أن يتجاهلها فهي الخرسانة المسلحة التي وضعت لها اللمسات الأخيرة في التسعينات من القرن التاسع عشر، هذه المادة الأحادية العنصر، وغير الطبيعية والناتجة عن تزاوج الحديد الصلب مع الخرسانة أصبحت جاهزة للعمل بحكم مقدرتها على تحمل قوى الشد والضغط على السواء وهكذا اكتشف المعمار العصري شيئا فاق كل التخيلات، وبالفعل فالخرسانة المسلحة تحمل مواصفات الصلابة نفسها التي تحملها الحجارة مع ما تقدم من حلول لمشكل الوزن الميت، حيث إنها تملك خاصية التمدد شيئًا ما، إضافة إلى كونها اقتصادية.

وكان للبناء بالخرسانة المسلحة في معمار القرن العشرين تأثيرات عميقة في الشكل الخارجي للعمارات، فالمادة لها وجه كثيف لكنها تقاوم كل محاولة نحت أو إلصاق، بل على العكس من ذلك تعطي جدرانا ملساء عريضة تماما مثلما حلمت بها تنبؤات القرن الماضي. ولا تتطلب أشغالا تكميلية ويسهل حسابها كما أنها شديدة المقاومة للاحتراق.

في مواجهة التنميق

أسطورة أخرى تساند المعمار في تطلعه لتجاوز التنميق الذي تمتاز به مرحلة ما قبل الخرسانة المسلحة نجد تأكيدها في كتابات النظريين الأكثر حرية في الكتابة في ذلك الوقت كما في كتابات المعماريين المعاصرين والذين تلوا حركة الفن الجديد، فنجد على سبيل المثال المعماري الصحفي النمساوي «أدولف لوس» يعتبر التنميق جريمة، يأتي بعده المعماريون أمثال «والتيركروبيوس» و«لوكوربوزييه»، «أود» و«مياس فان دار روه» ليلغوا التنميق نهائيا من مشاريعهم ليستبدلوه بأنسجة وتركيبات وواجهات ومساحات بسيطة وكذلك باستعمال ألوان وأشكال هندسية محددة.

إن إعلان الحرب على التنميق قد تزامن مع إقصاء شكلانية الاصطفائية للأساليب المعمارية السابقة، وبكل تحديد كل البقايا التافهة الميالة إلى الرجعية التي ظهرت في أوروبا مع نهاية القرن الماضي.

إن مبررات العداء للتنميق تتأكد في التطلع المتزايد إلى حياة أكثر حرية تطلع تغذيه رغبة فنية عميقة في هيكلة أكثر صدقا وفي أحجام أوضح وأدق. لقد قام أقطاب هذه المدرسة الجديدة ببناء عمارات تعتبر نماذج نادرة بكمال المساحات. إن تأثيرها كان أشد إضلالا من أوائل الظهور المحتشم للأجسام العارية على خشبة المسرح.بعد سنوات قليلة ولمواجهة هذا المعمار الجديد «العاري» لأصحابه «لوس»، «هوفمان» و«لوكوربوزييه»، أثار الجمهور والنقاد ضده بعض الرفض دون أن ينتبهوا إلى أنه شكل جديد من التعبير المعماري يرتكز على غطاء بسيط من البناء، تركيب حركي للأجسام، تداخل الفضاءات وصلابة الجدران المحيطة.

في الماضي كان التنميق عملا زائدا يضع على الجدران المحيطة بالمبنى شكلا بديعا، وزوايا مقوسة، رغم بعض الانتقادات فإن هذا الماضي لم يعزل ولم يفقد مكانته من قبل المخترعين الجدد، ونجد مثلا: «هانز بولزيغ» يكتب عام 1906 قائلا: «إننا لا نستطيع تجاهل الماضي في حل مشاكل المعمار الحاضر»، وبصفة خاصة فيما يتعلق بضبط المسائل المعمارية.

في هذا المضمار لعب التنميق دورا بارزا في مراحل طويلة من الزمن في الماضي وكان له مبرر الوجود ولكنه اليوم لم يعد يملك ذلك المبرر ونحن نسقطه على المساحة ليحطم الوضوح العضوي للحل المعماري، حسب «بولزيق» ورفاقه فإن المعمار الحديث موجه لغاية موضوعية وليس فقط لغاية فنية، وتتميز بأفق معماري يعوزه فقط التعقيد الفني؛ في بدايات القرن جرت محاولات عديدة للتوفيق بين المعمار النظري والتطبيق الميداني له، وإذن لن يضيع هدرا تعميق النواحي النظرية المتعلقة بإحياء التراث الزاهي الذي يشهد اختبار الجدارة عند كل بداية لعقد من الزمن المتتابعة. وبطبيعة الحال فإننا في هذا الكتاب سوف نقتحم أرضية متحركة وبانفراد أجدني مندفعا للمغامرة والأمل يحدوني في تسليط الضوء على بعض المفاهيم الخاطئة المنتشرة في العامة أو في أوساط المعماريين وطلبة الهندسة المعمارية الذين لا

يزالون يتشبثون ببعض المفاهيم الغربية فيما يتعلق بالأسلوب. فنحن نأمل أن نعيدهم إلى الجادة، وفي الوقت نفسه نحاول الإجابة عن هذا التساؤل: هل المعمار فن أم علم؟ وبعدها نستطيع عبر استقراء المنجزات استخراج العبر اللازمة في هذا المجال. إن بعض العامة يقولون وهم يقومون بتفقد عمارة ما «لها شكل مربع، مستطيل، ذات هيكلة زاوية...» وبدون أثر لنغمة أو قيمة، أو أناقة أو رشاقة. «هذه العبارة وغيرها نجدها في افتتاحية جريدة من جرائدنا في السبعينات وهي تبدو في نظر بعض الملاحظين وصفا مقبولا للمعمار في المرحلة الحالية.

أهمية المظهر الجمالي

في كل الحالات يبقى المظهر الخارجي لمشروع ما هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار. إنه لمن دواعي الأسف أن تهمل الأهمية الاجتماعية لبناية معينة والتطورات التقنية التي تضمنها وكل ما يكتنفها من مؤثرات على مستوى المحيط، كل هذا يدخل في الاعتبار في المحيط المعماري. وأنا على يقين من أن ما تمسه يد جاهل في عمارة يكون عميقا ومؤثرا أكثر مما قد يتصور أصحابها الذين رسموها، إن حب عمارة، أو النفور منها، قد يكون قرارا آنيا وسريعا حسب شعورنا بالقبول أو عدمه لشكلها الخارجي، لأن مظهرها له أثر سريع في نفس المشاهد وأن من يملك الخبرة اللازمة يمكنه أن يتصور التوزيع الداخلي لها وحتى وظيفتها، ولكنهم قليل أولئك الذين يخترقون مظهر عمارة غير عمومية لتبيان قيمتها المعمارية، إن معظم المشاهدين لا يأخذ بعين الاعتبار حتى وظيفتها.

لا نندهش لكون عدد هام من المعماريين الشباب يحاولون التخلص من المباني المتعددة الوظائف في مواقع محددة، رغم أن حياتنا الحضرية في حاجة إلى تقريب الوظائف حيث تساهم في ربط نشاطات الإنسان المختلفة بدلا من توزيعها على مواقع متباعدة مثلما يحدث الآن ومع الأسف فإن كل المحاولات في هذا الاتجاه بقيت في مستوى المشاريع البسيطة.

إن المعمار غالبا ما يخضع لمعايير ومطالب متداخلة كتكلفة القطع الأرضية مثلا. ومعظم المعماريين المحترفين يعملون حسب الطلب حيث يأتي الزبون. فردا أو هيئة إلى أحسن المعماريين ليصمم له ما يرجوه من بناء يريده تحفة معمارية بكل المقاييس، فيجد نفسه في مواجهة مشاكل عدة لا تخص الشكليات فحسب مثل: تناسب الأبعاد، المقياس، الترابط، بل أيضا في الجانب المالي والوظيفي والتوزيعي لهذا البناء.

إنها مسألة: حجم ومواد، وتتميمات وهيكل وصيانة وما إلى ذلك. وهذه النقاط نظرية في الأساس، وعندئذ فإن العلاقة التي تربطها بالجمال المعماري يجب أن تكون مبنية على قواعد مقبولة وواضحة.

ومن هذه العبارة «قواعد مقبولة «، إضافة إلى مشكلة النمط تكون المسألة في الجانب الفني من المعمار. ويبقى التحليل النمطي شيئا معقدا بسبب الموقف السلبي لأجيال كاملة من النظريين المعماريين

حينما اعتبروا الجانب الفني في المعمار شيئا زائدا بل غير مفيد.

هذا التلفيق الأعمى للمعمار الذي صار مبنيا على قاعدة- جلد على عظم- أو قاعدة مادة ووظيفة مع تجاهل كل النواحي الإبداعية والاجتماعية والذاتية غير مقبول البتة.

إن المعمار فن اجتماعي وطيد الصلة بحاجات الإنسان الأساسية والثقافية، وهو خلاصة الصلة الوثيقة بين الإنسان ومأواه.

إن الجانب الجمالي للمعمار ليس أقل شأنا من الجوانب الأخرى وهنا يمكن دون تردد تحميل المؤرخين مسؤولية انحراف الفنانين المحترفين الذين ساهموا في تصنيف المعمار ضمن شعبة فرعية من العلوم الطبيعية، فقد تحدثوا وهم يصفون المعمار عن الفروع والأجزاء والأنماط المصغرة وكأنه عبارة عن تركيب متناغم بالضوابط، فهل يعقل أن يكون المعمار أقل أهمية من بعض الفنون المحدودة بدعوى أنها أجمل؟

بيد أن هناك علامات تدل على وجود بعض التراجع في هذا المنظور وأن المؤرخين بدءوا يتجهون إلى طريقة أكثر عقلانية في التحليل على غرار ما يجري في اللسانيات وعلوم الإنسان وهي طرق مشهورة في الوقت الحالي مما سوف يحدث ثورة كبيرة على مستوى القيم والمفاهيم، ويبدو أنها سوف تطمس واحدا من أكبر السلبيات التي تتميز بها الدراسات التاريخية المعتمدة أساسا على التسلسل والتوالي.

وهذا لا ينفي وجوب توضيح بعض المسائل الأساسية المتعلقة بالجانب الجمالي فالرافدة الممتدة تحت الشرفة، إن هي إلا صور جامدة من حركات الإنسان. «هذه المحاكاة التي تربط بين الوظيفتين البشرية والمعمارية لم تكن غير مجدية إذا اعتبرنا المحاكاة بمعنى القدرة على إسقاط الذات في الشيء المركز فيه لفهمه فهما دقيقا «الشيء الذي يكشف عن الاستعداد الذهني للمشاهد وعن صحة الحسابات الذهنية التي هي وليدة نشاط الإنسان في الحياة. وهذا يتفق مع فكر «ت. و. هولم»، الذي يقول: «كل عمل فني نراه جميلا ناتج عن تجسيد للذة كانت تحدونا وإن قيمة شكل ما، تتمثل في شحنة الحياة التي نهبها لذلك المخطط أو لذلك الشكل «من البديهي إذن أن تكون فكرة المحاكاة من أنفس ما عند المنظرين المعماريين من النظريات وقد أخذ الإعجاب بهذه الفكرة بلباب «أوجيست أندل» حيث عرض المناظر الليبسانية (نسبة إلى ليبس الذي كان أستاذا له) في الأوساط الانفصالية الميونيخية على «جيوفري سكوت» هذا الرجل اللغز الآتي من بريطانيا والذي طبع سنة 1914 مقالة حول قصة الذوق تحت عنوان: «المعمار الإنساني The Architecture Humanism» هذا الكتاب ذو الخط الأنيق والأسلوب الأدبي الجميل يسقط الفكر المحاكاتي على المعمار.

لقد أثر على التفكير في مسألة معرفة ما إذا كانت العمارة يجب أن تعكس هيكلها أو شكلها الخارجي أو بالأحرى موقف المعماري على مستوى القيم الأخلاقية مثل: «الحقيقة، الجمال، الصدق» وبعبارة أدق على مستوى شخصيته والعاطفة التي تحدوه.

ومع الأسف بالنسبة لـ:«سكوت» فإن كثيرا من المعماريين اهتموا فيما بعد بقولبة المعمار في شكل آلي وفي نظرة ميكانيكية مؤيدة بذلك فكرة أن المعمار الكبير يجب أن يكون دقيقا ويقدم منتوجا محددا واضحا، هذا الاهتمام أثر بسرعة على المعاني الإنسانية.

ومن المفيد هنا أن نقارب بين آراء «سكوت» وآراء «إيندل» الذي كتب فجر هذا القرن يقول: «كثيرة هي الأشكال التي تمدنا بالمتعة، الأشكال العالية تمدنا بالمتعة في النظرة أفضل من الأشكال المنخفضة أو الممتدة لأنها تستمد قوتها من مركب العظموت لدى الطبقات المترفة، أما الأولى فهي تنم عن القوة والطاقة وأما الثانية فهي تقدم لنا حيوية وخفة. إن الخط المنحني يفترض قدرة كامنة أما الخط المستقيم فيعني السرعة الثاقبة.«إن الحيز والحجم اللذين يهتم بهما المثقفون كثيرا لم يكونا موجودين إلا بمفهوم الوظيفة في النظريات المبنية على المحاكاة، بيد أنه في آخر العشرية الأولى من هذا القرن اتجه التفكير نحو إدراك حقيقة هامة هي تداخل هذه المفاهيم الثلاثة: الوظيفة، الحيز، الحجم على المستوى الشكلي في فكرة قريبة مما أطلقه عليه «بول زوكار» اسم محاكاة حركية، إن أسس هذه الفكرة– المحاكاة– قد ذكرت في كتاب «Théory and disign in the first machin age» الذي ظهر سنة 1960 لصاحبه «رينز بينهام» حيث يلاحظ فيه الانصهار المستمر في تطويع الفكر المعماري الحديث لفكرة المحاكاة مع الأفكار الأكاديمية الفرنسية التي تتحدث آنذاك عن الحجم المحسوس، نحو تنظيم أكثر عصرنة للحيز في شكل ثلاثي الأبعاد بحيث نستطيع حسابه وتفصيله دون المساس بوحدة حيزه وتنظيمه خاصة على أساس تركيب جيد صاحبه الفكر الأكاديمي الفرنسي الذي يتزعمه «بلونك وقاديت».

إن هذا يعني أن الدراسة التي تهدف إلى تنظيم حيز معماري معتمد على الأبعاد الثلاثة كي يعطي نتيجة أضمن وأحسن من أن يكون معتمدا على بعدين ممثلا في رسم المخططات واللوحات دون معاينة الدارس لوحدة الشكل واستمراريته. هناك نظرية أخرى تختلف عن نظرية المحاكاة، ولكن لها علاقة وثيقة بها، وهي نظرية الإحساس أو الحدسية حيث تعرف الفن بكونه عبارة عن ترجمة الإحساس عن خيال مجرد لكنه حي. وصاحب هذه الفكرة هو «بن ديتوكروس«لكن الذي عمل على تطوير هذه الفكرة هو «و.ج كولينود». منظر كمبريدج والذي نزع عنه بعد ذلك وكان هذا التغيير مهما للغاية، إذ أدرك «كولينود» أن الفن لا يمكن أن يتحدد في نشاط واحد من التصور، فالفنان هو ذلك الإنسان الذي يعبر عن المعاناة والآلام التي يتعرض لها الآخرون ولا يستطيعون ترجمتها بالكلمات، والفن هو الساعي الأمين لنقل الأحاسيس، وصهر المعاني الجمالية في صور فردية وهذا ما يؤدي طبعا إلى المغزى العميق لكلمة «الصورة»، هذا المفهوم الذي ترجمه الفيلسوف الأمريكي «سوزان لونجز«عن الموسيقى والفن المعماري كشكل تركيبي ينبغي أن يتحول إلى صورة مستقلة بذاتها قادرة على التعبير عن الشعور وليس فقط أن تحفزه.

مسألة الطراز

العمارة.. هذا الشيء الذي بناه الإنسان ككل عمل فني متعلق بعبقرية من خطط له وبحجم المعلومات المتوفرة لديه. وهي مرتبطة أيضا بتقنيات البناء والقيم الفنية لعصره. فقد يستطيع مهندس معماري عليل أن يقنعنا نظريا بسلامة منتهجه الفني، ولكنه سرعان ما يتلاشى أمام الصعوبات الجمة التي يلقاها وهو يحاول تنفيذها في أرض الواقع مخالفا كل القواعد التقنية المعروفة في البناء. وعندما يحكم المؤرخ على قيمة عمارة ما يجد نفسه مرغما على دراسة العلاقة بينها وبين الإنجازات السابقة واللاحقة لها وتحديد الوسط الحضاري الذي أقيمت فيه. ومن هنا يمكن القيام بتحليل أوسع بخرق كل الحدود الوطنية وجمع خليط الأفكار وحينئذ يعبر عن النمط بهذه الصفات المعروفة بسهولة في كل عمل معماري أو في مجموعة من الأعمال والمنجزات.

لقد سبق للخبراء أن وضعوا للحركة المعمارية المعاصرة تسميات مختلفة وتقسيمات نظرية عديدة فمنها: النمط العلمي، التعبيرية، البساطة، البنائية، المستقبلية، الوظيفية... الخ، هذه التسميات يمكن أن تكون صحيحة، وقد أشير إليها في طيات هذا الكتاب، ولكنه سوف تكون مغالطة إذا وجدنا في هذا الكتاب شيئا آخر غير التصنيف المناسب بالنظر إلى المميزات الشكلية لإنجاز فردي ما أو لصنف من الأصناف. إننا نركز على استعمالنا المصطلح «نمط» آملين في إيضاح أوجه التناسب بين مختلف العمارات وتحديد الخصائص المشتركة لعديد الفنيين فرادى ومجتمعين، وفي هذا الإطار نستوثق بالتعريف المختصر: «ماير شابيرو» الذي يقول: «الشكل الثابت وعموما العناصر الثابتة، أي الصفات أو التعابير الثابتة في فن شخص أو مجموعة، وخاصة في نظام مركب من الأشكال ذات عمق منطقي، هذا الثابت نتعرف به على شخصية الفنان واتجاهه الفكري والأدبي».

ويقول أحد الأدباء وهو يعرف النمط: «إن النمط (أو الأسلوب) الحقيقي لا بد أن يكون لازما (لا يتعدى لغيره) ولذلك يبدو أن الذاتية ضرورية جدا في تحديد الأسلوب الأدبي والنمط المعماري، ومعمار هذا القرن يؤكد هذا، إن (ذاتيات) بعض المبدعين المنظرين هي التي أبرزت الأنماط الجديدة. في المرحلة نفسها كان الموقف الأكاديمي الفرنسي الذي نضمه إلى وجهة نظر مدرسة «الفنون الجميلة» في ميدان العمل الفني يمثل التيار ذي التأثير القوي جدا سواء على وجهات نظر المعماريين أم النقاد، لكن مع هذا فقد وقعت تحولات فكرية هامة وتغيير في النظرية مما لم يكن لها علاقة بأي مفهوم شكلي، وهذه التحولات مصدرها نشاط عدد قليل من الأشخاص درجوا في أحضان حركة الفن الجديد.

في فرنسا كان التعليم الأكاديمي ممثلا في مدرسة «الفنون الجميلة»، والاهتمام العقلاني المنصب على الهياكل كما يشهد بذلك «أوجست شوازي» في كتابه «التاريخ» حيث كان موطدا إلى مرحلة متقدمة جدا من هذا القرن العشرين.

عرف المعماري الإنجليزي «ألان كولكوهون» وجهة نظر مدرسة الفنون الجميلة بأنها مبنية على مبادئ تنظيم المستوى السطحي، وتركيب الشكل الذي تعود قواعده إلى نظرية التجاوب البسيكولوجي الذي ظهر في القرن الثامن عشر الميلادي وكذلك إلى الاقتداء بالحضارات القديمة التي تعتني بها هذه المدارس كثيرا.

المدرسة الباريسية

سوف يكون مملا استعراض نفوذ المدرسة الفنية الباريسية وتفرعاتها التي وصلت تقريبا إلى كل المعاهد التي تدرس المعمار، لكنني أريد هنا أن أؤكد بأن المعمار الجديد قد نشأ مما أسماه «كولكوهون» «انفصاما» بين التعليم الأكاديمي والتقنيات الجديدة، وتقنيات الهياكل البنائية المحطمة لكل القيود، إضافة إلى الوعي الذي انتشر أخيرا. ومن النتائج المباشرة لهذا الانفصام اتساع الهوة بين النظري والتطبيقي، هذا الانفصام لم يجد له تقاربا إلا في العشرية الثالثة من هذا القرن حيث قبلت فكرة الجمال الوظيفي على المستوى العالمي، وقد برزت بصورة واضحة في ألمانيا أين كانت المفاهيم النظرية المبدئية فجر هذا القرن تبدو مناهضة للتيارات الفنية والمعمارية الرئيسة، وكان «أوجيست إيندل» الذي سبقت الإشارة إليه من القلائل الذين استطاعوا أن يوفقوا بين المفاهيم النظرية والتطبيقية الحقيقية. لقد كان موقفه فريدا من نوعه في مقال نشرته له مجلة: journal of the society of architectural Historians «أي يومية مجتمع المؤرخين المعمارية» عام 1951.

ويبينه «بول زوكلر» بأن الجمالية المعمارية الحديثة قد تبلورت بصفة براغماتية بعد نجاح بعض التجارب العلمية، وههنا تبدو هشاشة ما يسمى بالحركة الحديثة، فنظرية اجتماعية وظيفية تنشأ على هذا الأساس، يجب أن تنهار، وبشكل غريب غامر المعماريون بأنفسهم على قاعدة غير مستقرة من اتجاهات الحداثة (الموضة).

لا أريد أن أقول بأن حركة الوظيفة المادية لم تكن قادرة على تكوين معماريين بارعين، إن هذا خطأ جسيم ولكن الأعمال نفسها تميل إلى التأكيد بأنه لم يكن هناك إدراك لغايات ومفاهيم المعمار الحديث بغض النظر عن أعمال بعض المعماريين الذين يشكلون بحق الطليعة، ومنهم: «لوس، كروبيوس، لوكوربوزييه، مياس فان دارروه، مونديلسون ثم، دويكار، ريتفيلد، أود وسطام». وحيث لم يدرك الآخرون من المجموعة من الأفكار والمفاهيم الجديدة غير هيكل عظمي، ولم يقدموا غير عظام نخرة من الأعمال المزورة.

الإشكالية المزدوجة الحقيقية تكمن في الجدلية القائمة بين القاعدة التقنية الاجتماعية الوظيفية التي أطراها «أدوولف لوس» وتبناها «لوكوربوزيية» من جهة، واهتمام النظريين بالحيز والشكل، للشكل المحسوس والشكل الحقيقي، وكذا بتطور الحيز من جهة ثانية. ورغم هذا الاختلاف حول المنطلقات الأساسية إلا أن المعماريين النظريين والمنفذين قد تحالفوا ضد الخطر المشترك المتمثل في التيار المتراجع

والاصطفائي الذي ظهر في القرن التاسع عشر، لقد شدت اهتمام النظريين بتلك الخصائص الفنية للحيز، والشكل ومظهرهما بينما يهتم المعماريون بالشكل وبالمواد، بالجانب التقني والوظيفي. ولتسليط الضوء على هذا التباين في وجهات النظر يجب التذكير بأنه بين نظريات «شمار صوف» الأقل ذيوعا، تلك التي تتحدث عن الشكل الخاضع للغاية التي يقصدها الصائغ أو الوظيفة التي يكتنفها المبنى، هذه النظرية تؤيد الغاية المقصودة من طرف المعماريين المنفذين حتى ولو أن المعماريين المنفذين هنا حسب «زوكار» يشعرون بنوع من الارتياح ما دامت الغايات يمكن التعبير عنها وظيفيا في المخطط العام وتنقل فقط إلى الواجهة، بينما تمسك «تشمار صوف» بكون العامل الحاسم يبقى صياغة الحيز في حد ذاته، يريدون أن يقولوا بأن تنظيم السطح لا يعني شيئا آخر غير تفاعل طبيعي لنشاط الإنسان بالأرض.

المفهوم الفني للحيز

قبل فترة الجمود التي سببتها الحرب العالمية الأولى، تساءل المنظرون عن المفهوم الفني للحيز والشكل (الحيز الخارجي، الحيز الداخلي). ونقاط التقائهما بناء على الخاصية الرمزية وخاصية التفرع في العلوم والمجالات المختلفة، هاتان الخاصيتان اللتان تختص بهما الهندسة المعمارية كعلم من العلوم.

في الفترة نفسها يطلع علينا الأمريكي: «فرانك لويد أورايت «بصياغته فيما أسماه: «تذويب الحيز الداخلي في الحيز الخارجي «وكثرت هذه الأفكار التي يتحدث عنها «أورايت «حتى انقضت الحرب العالمية مباشرة، جاء «مياس فان داروه «ليخرج علينا بالاتجاه نحو البساطة، لقد أراد «مياس» من ذلك الصفاء الكلاسيكي بعد ذلك من إنجازاته وانتقاداته الساخرة التي كان من بينها: «الناقص هو الزائد « ! تعليقا على أفكار «أورايت «فاضطر هذا الأخير بعد ذلك إلى التوصل إلى فكرة البساطة العضوية «. وهناك منظرون آخرون ألمان مهتمون بالمعمار يهملون تماما أية علاقة تخمينية للوظيفة على الشكل المعماري، «ليوبولد زيقلار«تقدم بنظرية تنتقل بطابع المبنى إلى أدنى حد من العناصر الهيكلية، ولقد سبَح المنُظّرون في مختلف جهات ومستويات الفن المعماري مع اعتبار المعمار تارة كحيز وتارة كحجم، وطورا يجمعون بينهما، وهذه الأصناف انقسمت لتعبر في الأخير عن رأي شخصي متفق عموما مع تعريف خاص ومقبول.

كثير من معماريي العشرينات يعتبرون الحيز الداخلي والحجم (الذي يعني الحيز الداخلي والخارجي) هو نفسه الحيز الخارجي بصفة عامة.

من هذه الخلاصة يبدو أن المنظرين اتفقوا بشكل عام من أجل تقزيم التعبير بالوظيفة، وتسليط الضوء خاصة على الأسلوب الحيزي والرمزي.

أما المعماري الميداني فهو يعبر عن وظيفة العمارة بشكل مواجهتها وكانت مساهمته حاسمة في بناء جديد للمجال على أساس الرمزية وعلى فكرة الآلة.

وقبل عام 1925 كان المعمار قد هضم مختلف المؤثرات الخارجية قبل الاكتشافات التقنية الجديدة، الدراسات الحيزية للمنظرين والفنانين التشكيليين، والنظريات العلمية الحديثة والمواقف التفاؤلية لهذه الحقبة التعبيرية الخاصة بها. لقد كان اختيارها واضحا موافقا لطموحات الذين يدافعون عن الوظيفة، إن أقطاب الحركة المعاصرة قد هضموا جيدا الفكرة التشكيلية للتداخل والتنظيم الحيزي لمبتدئي مجموعة «ستيجل» ومبادئ «أورايت» حول الحيز الداخلي والخارجي فقد أنشأوا معمارا يرتكز على الأبعاد الثلاثة ومتحررا من المبادئ الملزمة له.

إن المفاهيم الأكاديمية المتعلقة بالحجم والحيز كانت وما زالت تلعب دورا هاما في وجهة النظر العقلانية، تلك التي تشهد عليها أعمال «لوكوربوزييه»،«كروبيوس» و«مياس»، لكن هذه الاعتبارات الفنية قد طغى عليها انشغال عن التنظيم الوظيفي على المخطط وكذلك طغيان ما يمكن اعتباره توسعا بصريا لتماثل آلي أو فني للآلة، وهذا لا يعني إلا كون المعارضين يريدون أن يجعلوا من الآلة البسيطة مبنى ضخما بمضاعفة مقاساتها مع صياغته بالمقاس والشكل المناسبين، وباستعمال دقيق للمنتجات التكنولوجية الجديدة. إلى جانب هذا عرفت السنوات الأولى للعشرية الثالثة (1920) إنجازات ذات نبرة تكعيبية ومستقبلية بشكل محدود خاصة في العمارات السكنية.

محاولات للتصويب

لقد كانت أكثر من محاولة لإلحاق بعض العناصر التزيينة الفنية إلى المعمار، وإن كانت بعض المشاريع المنجزة في تشيكوسلوفاكيا، بولونيا، وحتى في الدانمرك التي كانت تتباهى بهندسة جافة متوسطية لم تؤد في النهاية إلا إلى أشكال سخيفة ميتة، مخالفة حتى لتقاليد وأعراف هذه البلدان، وقد احتج «سيغفريد جيديون» لصالح الظاهرة التكعيبية في كتابه: Space Time and Architectur أي «الحيز، الزمن والمعمار» عندما قال: «إن الطريقة التي يقدم بها التكعيبيون العلاقات الحيزية قد أثمرت مبادئ مرنة للأسلوب النظري الحالي» . احتجاجه هذا انبنى كما يبدو على كون «لوكوربوزييه» قد انضم إلى «أوزنفون» و«ديرمي» سنة 1917 من أجل إكمال شكلهم التكعيبي الصارم الذي دشن الصفائية «Purisme» «جيديون «الفرنسي الأصل كان يقول «الصفائية هي كل ما يقرب من أهداف التكعيبية، وفي الوقت ذاته من المعمار» وهذه ليست إلا نصف الحقيقة، لأن «لوكور بوزييه» و«اوزونفون» كانا مجددين في الفن التشكيلي أما التكعيب الفرنسي فلم يكن له إلا أشياء مشتركة محدودة مع المعمار ومع الأشكال المعمارية التي أشار إليها «جيديون» ومؤرخون آخرون.

بالنسبة للمجموعة الهولندية الستيجلية (نسبة إلى ستيجل) فإن التكعيبي كان حسب «هـ.ل.ك جافي» المرحلة الأهم في تطور المعمار، أما «فان ديسبورغ» فإنه يعتبرها منعطفا حاسما في التقدم، ولا شك، في ذلك لأن التكعيب يرفع إلى الصف الأول عناصره التي لم تكن تأتي سوى في الصف الثاني من الفن التشكيلي من حيث الأهمية مثل:

لعبة المساحات في التصميم (المخطط)، اللون، والتناسب، ويواصل «جانيه» قائلا: «إن إعادة الاعتبار لهذه الميزات المرنة في عناصر أساسية هي في الواقع المعبر الرئيس والوحيد عن العلاقات» وهذا يمكن تطبيقه أيضا على المعمار. «فان ديسبورغ» أنشأ واجهته المنفتحة المشهورة لمنزل على شكل نظام من العلاقات بين المستويات العمودية والأفقية حيث، الحيز مقسم ومقولب ومنقول خلال وفوق مساحات التصميم. هذا الإنشاء النظري نقله إلى الواقع كما في منزل السيدة: شرويدر، الذي أنجزه عام 1924 ريتفيلد، حيث تنميق «دي ستيجل» أخذ مغزى لم يعرف من قبل في لوحات مسطحة ثنائية الأبعاد من الفن التشكيلي، والرسم، وهنا نظام جديد متكامل في ذاته معاصر في مخبره ومظهره يبرز قدرة المعماري على خلق مفردات دقيقة مستقلة وخاصة بعصره.

وبعد عام 1927 سلط الاتجاه النفعي للحركة الوظيفية العالمية الضوء أيضا على نظام الزاوية القائمة ذات الحواف الحادة، لتتوافق مع ما توصلت إليه تكنولوجيا العصر وأن الفكرة التي ذهب إليها كانت منسجمة مع وجهة نظر «برينو طوط» الذي قال: «الضرورة هي أحسن محرض للنشاط الإبداعي».

وإلى غاية الخمسينات، شهد العالم كله انطلاقة حقيقية في مجال البناء، وتزايدت دراسة معمار الضرورة، لأن الحرب العالمية الثانية قد أحيت من جديد فضائل المنفعة، وشجعت التقشف إثر الدمار الشامل والخسائر الفادحة في الأرواح البشرية، مع التركيز التلقائي على تكنولوجيا الدمار، المعمار في هذا الجو لا يمكن أن يلعب دوره في المجتمع إلا إذا غذى عقل الإنسان بالثقافة في أمة وقت السلم، وقد عرف العالم تغيرات كثيرة منذ الخمسينات لم يجد فيه المعمار مكانا وثيرا في خريطة التطورات، فإذا كان النصف الأول من القرن العشرين قد عرف توافقا بين المعمار وزمانه، وإذا كانت الاتجاهات الفنية قد ارتسمت ثم عادت فارتسمت، فإن النصف الثاني عرف وضعية أكثر فوضوية. بيد أن هناك تحسنا في الوعي وسط المعماريين تجاه البعد الاجتماعي لأعمالهم، ليتحول الانشغال عما أسماه «نيرفي» العواطف المتميزة لزمننا» إلى أشكال رضي بها الجميع.

المعمار في هذه الحالة ليس له هدف واحد، والمعماري نفسه لا يمكن أن يلتزم ميثاقا معينا، وهو في الأخير يتقاسم مسؤولية الإبداع مع المجتمع الذي ينشط فيه، ويعتبر إنتاجه انعكاسا لتطور حاجات وقيم، وثوابت هذا المجتمع نفسه.

- ❖ العناوين الفرعية من وضع التحرير.
- ❖ المقال الأصلي من كتاب:

HISTOIRE VISUELLE DE L'ARCHITECTURE DU 20EME SIECLE
Dennis Sharp

المسيرة العظمى للإنسان
وكيف تم إعمار الكرة الأرضية
(مجلة Nature، عدد خاص 02 ماي 2012)*

تعريب : موسى زمولي

مقدمة المترجم :

منذ قرون خلت ظل علماء الأجناس وعلماء الآثار والحفريات وعلماء كل الفروع المعرفية الأخرى محتارين في سر وجود الكون والإنسان وخاصة انتشار هذا الأخير في القارات الخمس. وإلى شهور قليلة كان الاعتقاد السائد لدى الباحثين بأنه وجدت مجموعات من الإنسان العاقل في شرق إفريقيا ووادي شبه الجزيرة العربية المنطقة المعروفة بالأخدود الإفريقي (Rift valley)، كما توصف بمهد الإنسانية. وبقت عالقة في ذهن الجميع صورة حثية السيدة «لوسي» التي مشت على أرض الحبشة قبل ما يزيد عن 2.5 مليون سنة. ثم وجد علماء الحفريات بقايا إنسان عاقل في فلسطين وفي أوروبا سمي بالنياندرطال (Neandertals) وإنسان جاوة باندونيسيا وإنسان بيجين... وإنسان في الهند الصينية كما وجد بشمال إفريقيا الإنسان القفصي (le Capsien)، بتونس والعاتري (ولاية تبسة) وإنسان مشتة العربي (ولاية سطيف) والتيغنيفي (ولاية معسكر) والصحراوي.

أما الجديد في الأمر هو ما طالعتنا به مجلة الطبيعة الأمريكية المرموقة بتاريخ ومكان ظهور الإنسان العاقل «العصري» (الشكل رقم 1) وأثر مسيرته وانتشاره في القارات الخمس. كما هو مبين في خريطة القارات(الشكل رقم2).

ملحوظة: لا يمكن القطع واستنتاج أن هذه هي المسيرة الوحيدة في تاريخ الإنسانية لأن الباحثين تعبوا في شرح الأنواع الأخرى من البشر، خاصة تلك التي وجدت قبل ظهور الإنسان العاقل (أو حتى بعد ظهوره) وانقرضت مثل إنسان النياندرطال (Neanderthals). ومن بين الإشكاليات التي لازالت عالقة حتى بعد دراسة مجلة nature، لفك سر هذه المسيرة العظيمة وإعطائها المزيد من المصداقية: هل وجدت المسيرة بعدما انطلقت من الجزيرة العربية ومرت بشمال إفريقيا إنسانا عاقلا (مثل القفصي أو العاتري) استقبلها أم جاءوا هم أيضا مع الموكب وفضلوا الاستقرار بمنطقتنا؟ سؤال تصعب الإجابة عليه. كما طرح معدو الدراسة سؤالا مماثلا عند مرور القافلة بأوروبا.

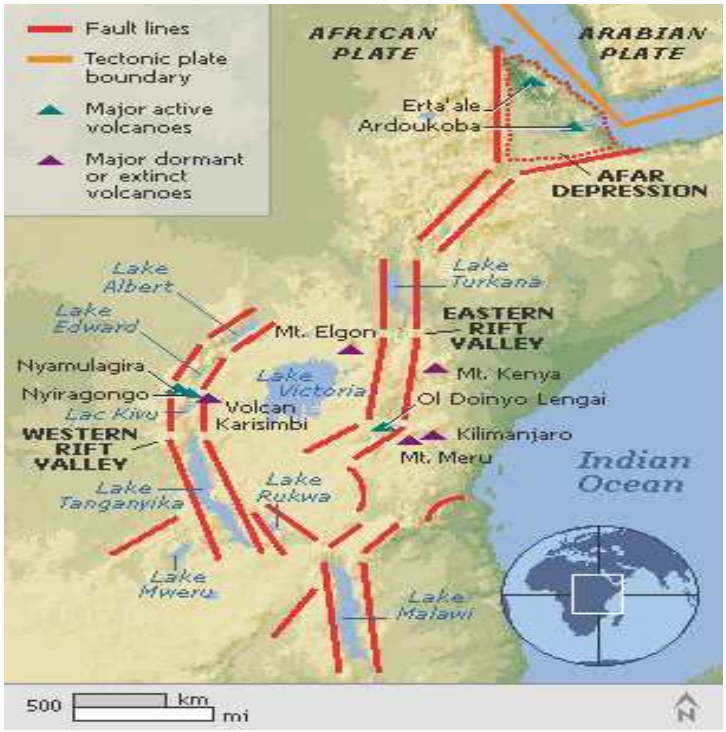

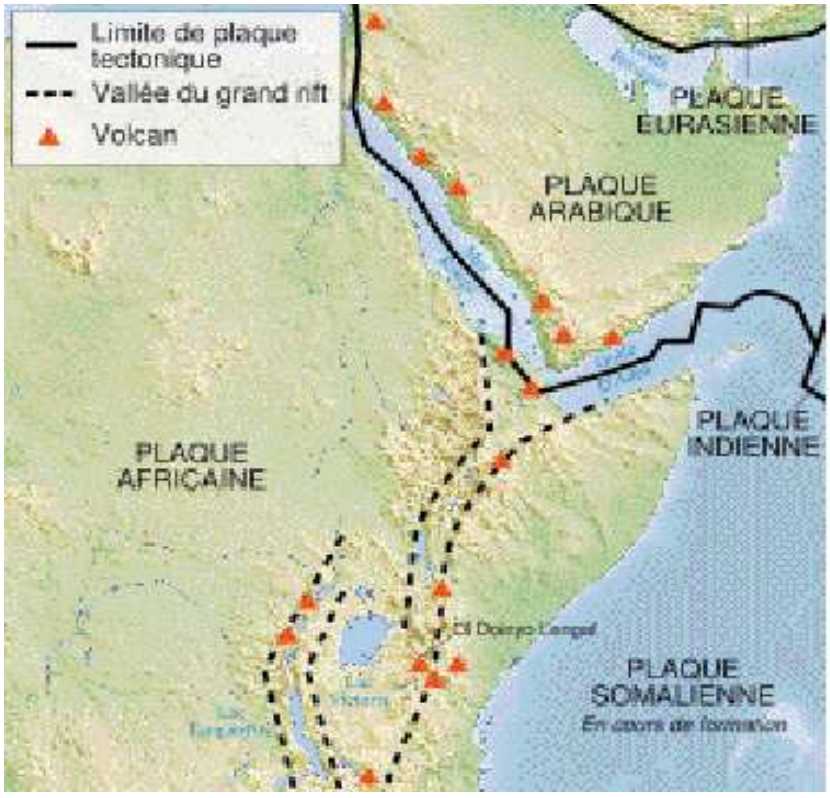

الأخدود الإفريقي

Rift Valley

الشكل 1: مهد وجود الإنسان العاقل الأول.

الهجرة الأولى للإنسان العاقل

إعمار كوكب الارض

إعمار كوكب الارض

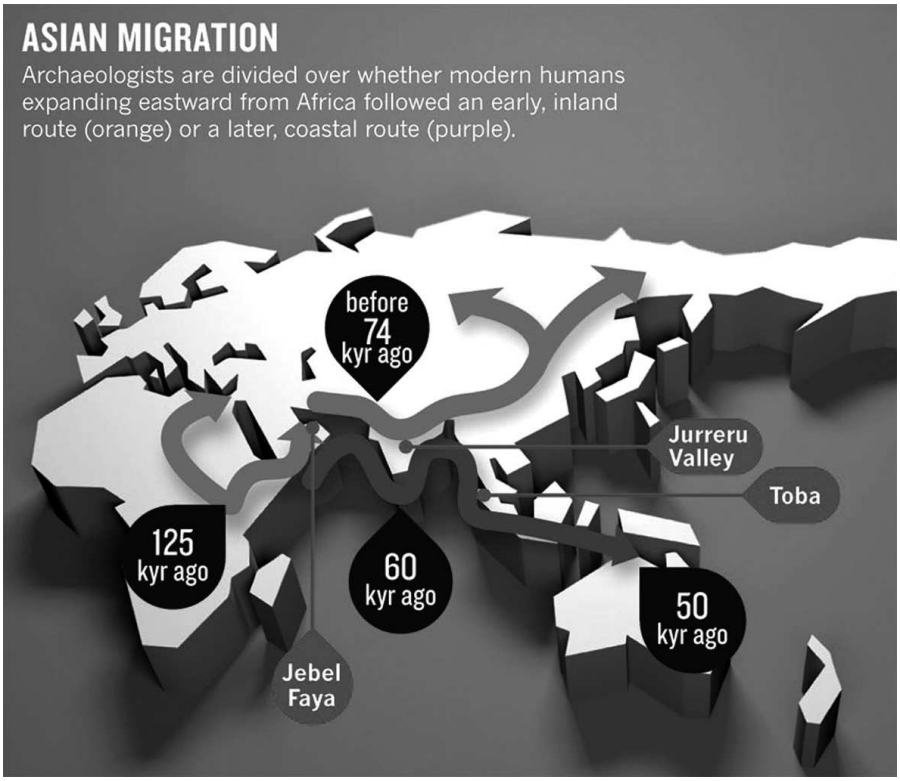

الشكل 2: خارطة الهجرة العظمى لإعمار القارات

(الانطلاقة من الجزيرة العربية قبل 125 ألف سنة تقريبا)

المقال: (مجلة الطبيعة Nature، 2 **ماي** 2012)

خطوة بخطوة عبر الكرة الأرضية

(globe the around step by Step)

أولا : في الشرق الأوسط (East Middle the Into) (قبل 125-100 الف سنة):

بدأت الرحلة حول الكرة الأرضية عندما غادر الإنسان «العصري» أفريقيا وعبر سيناء أو قاعدة البحر الأحمر، كما تبينه حيثيات وجدت في فلسطين واقترحت الاكتشافات التي تمت في شبه الجزيرة العربية في سنة 2011 على أنه قبل 125 ألف سنة وصل الإنسان العصري إلى عتبة بوابة آسيا. (الشكل رقم 1).

في شبه الجزيرة العربية، وجد مثل هذه الأدوات غير منتهية الصنع (شكل رقم 4) في جبل فايا بشبه الجزيرة العربية مما يقترح فرضية وصول الإنسان العصري هناك قبل 125 ألف سنة. يقول فريق دولي من الخبراء أنه يوجد تشابه بين الأدوات الحجرية، تعود بعضها إلى ما قبل 125 ألف سنة، وأدوات الإنسان الإفريقي العصري الذي أنجزها في نفس الفترة تقريبا. ويكون صناع هذه الأدوات قد قطعوا البحر الأحمر وهاجروا بعربات ثيران عبر شبه الجزيرة عندما كان المناخ مناسبا وربما ذهبوا للاستيطان بآسيا.

ثانيا: الانتشار في آسيا (expansion Asian)، (قبل 50 إلى 125 ألف سنة) :

قد يكون «الإنسان العصري» عبر إلى آسيا قبل 125 ألف سنة ووصل إلى الهند قبل انفجار بركان توبا قبل 74 ألف سنة، لكن هناك من يرى بأن الإنسان العصري لم يستقر في آسيا قبل 60 ألف سنة وانتشر بسرعة عبر ساحل المحيط الهندي.

ثالثا: الهجرة إلى أوروبا (قبل خمسين إلى عشرين ألف سنة) :

دلت الدراسات المكثفة باستخدام تقنيات أشعة الكربون أن تاريخ أقدم إنسان وصل إلى أوروبا يعود إلى حوالي خمس وأربعين ألف سنة بدلا من خمسة آلاف سنة كما كان يعتقد. وسُلِّطت الأضواء على متى وكيف تم التعامل مع إنسان النياندرطالي.

رابعا: الاستقرار بأمريكا (قبل عشرين إلى عشرة آلاف سنة) :

تشير نتائج الحفريات والآثار الوراثية أن الإنسان «العصري» وصل إلى سيبيريا وتركها ليصل شمال امريكا قبل 14 ألف سنة. كان ذلك في نهاية العصر الجليدي الأخير. ولازال الجدل جاريا بين الباحثين حول فرضية نزول المعمرين إلى أمريكا عبر وسط كندا أم التفوا حول السواحل الغربية مستعينين بزوارق للدخول لأمريكا. وهناك فرضية ثالثة تقول بأنهم جاؤوا بحرا مباشرة من أوروبا.

يقول العالم أنطوني ماركس عالم آثار ورئيس فريق من جامعة (Southern Methodist University) بدالاس إن تعاقب الأحداث لا يسمح بالتنقيب. ويتساءل» إذا كانوا قد غادروا إفريقيا قبل ستين ألف سنة ووصلوا أستراليا قبل خمسين ألف سنة – يا إلهي هل توقفوا لحظة واحدة عن الجري؟»

لا توجد شواهد وراثية واضحة حول المسلك الذي اتبعه الإنسان العصري لمغادرة إفريقيا. لكن الكهوف الموجودة في فلسطين يعود تاريخها إلى ثمانين أو مائة وعشرين الف سنة خلت. وبها شواهد ومخلفات تقترح طريقا شماليا سلكه هذا الإنسان على طول نهر النيل أو عبر الصحراء. ولعل أن هؤلاء المكتشفين الأوائل لم يغادروا المشرق. لكن علماء الآثار يفترضون وجود موجة ثانية سلكت طريقا مشابها.

أدوات حجرية غير مكتملة الصنع (الإمارات العربية المتحدة).

وجد بالماء الأبيض (ولاية تبسة) مثل هذه الأدوات مكتملة الصنع وتسمى بذات الوجهين (المترجم)

(*)http://www.nature.com/news/special-issue-peopling-the-planet-1.10561?WT.ec_id=NEWS-20120515

جزر أندمان: محطة توقّف فيها المهاجرون مع «رغبتهم في الالتفاف بآسيا»؟

(هل هذه الجزيرة هي التي أشار إليها ابن طفيل في ملحمته «حي بن يقظان»؟ المترجم)

The Andaman Islands: a stop for migrants ‘beach-hopping’ around Asia?

في إحدى الأيام قبل 74 ألف سنة في وادٍ غمرته الأوحال ولا تشرق فيها الشمس وكان غبار رمادي غطى أديم الأرض وأصبحت الأشجار كالأشباح.

إلى الشرق من ذلك كان هناك بركان طوبا في جزيرة سومطرا باندونيسيا قد ألقى بحممه في أكبر انفجار عرفه التاريخ على الإطلاق على المنطقة قاذفا بآلاف الكيلومترات المكعبة من الصخور في الجو وناشرا أكداسا من الرماد عبر جنوب آسيا.

درس كليف أوبنهايمر أخصائي البراكين من جامعة كامبريدج (المملكة المتحدة)، الرماد الذي سقط في وادي جوروريو الهندي لاستعادة الأحداث التي جرت هناك. تغيرت أوراق الأشجار إلى طبقات بيضاء وحولت الأمطار فيما بعد الرماد إلى طبقات كثيفة على مجرى الوادي.

وجرفت الأمطار فيما بعد الرماد إلى سفح الوادي وحولته إلى طبقات قطرها عدة أمتار.

ولعل الوحل والجزر قد اختفت الآن بسبب التغيرات الجوية. لكن حوَّل بركان طوبا غابة الأشجار إلى موطن لمرمى النفايات.

هناك ما يشهد على حدوث الكارثة: وجد علماء الآثار بين طبقات الرماد بها صناعات حجرية تدل على ان الإنسان عاش هنا قبل انفجار البركان. لكن هل كان هذا الانسان «عصريا» - إنسانا مثلنا- أم إنسانا آخر، من سلالة البشر ولكنه انقرض الآن.

تمثل أكداس الرماد الموجودة الآن بوادي جوريرو مصدر خلاف بين علماء الجيولوجيا وعلماء الآثار حول أكبر إشكالات هذا الميدان: متى ترك الإنسان العصري مهده الإفريقي ليأتي ليعمر آسيا أكبر القارات؟ كان ذلك أول توسع للجنس البشري نقل الناس إلى أستراليا أي حوالي 12 ألف كلم وكان ذلك قبل 50 ألف سنة. لكن الإشكالية التي لا تزال قائمة تتعلق بأول تاريخ استقرار هذا الإنسان العصري بآسيا! وما هي المسالك التي مر بها والأدوات التي كانت بحوزته وأصعب كل هذه التساؤلات: ما سبب قرار الهجرة من إفريقيا؟ هل جذبه هذا الموطن الشاسع واعتدال مناخه أم كان مدفوعا بثورة تكنولوجية وثقافية؟ (لعل السائل يفكر في حضارة مثل حضارة التاسيلي بالجزائر، المترجم)

انحسر اهتمام علماء الآثار حول سؤال واحد: هل وصل هذا الإنسان العصري قبل أو بعد انفجار بركان توبا بجزيرة سومطرا؟

على رأس أحد الفريقين يرى بول ميلار من جامعة كامبريدج بأن الإنسان العصري ترك أفريقيا ردحا طويلا بعد انفجار طوبا أي أنه غادر أفريقيا على أبعد تقدير قبل 60 ألف سنة وكان مزودا بتقنيات جديدة مثل الأقواس والسهام وتنقل بسرعة نسبيا عبر سواحل شبه الجزيرة العربية والهند والجنوب

الشرقي لآسيا ليصل بسرعة لأستراليا. وتشير تحاليل علماء الآثار إلى تواريخ متأخرة لاستيطان الأفارقة مما يدعم قول ميلار: «أنا متأكد أكثر من قبل بأنني على حق» قبل أن يضيف «أعتقد أن الجميع قال كذلك».

في الجانب الآخر يبقى نظيره ميشال بتراقليا ((Michel Petraglia من جامعة أُكسفورد (المملكة المتحدة) متيقن بأن البشر انتشر في آسيا على أقل تقدير قبل 74 ألف سنة وربما قبل ذلك في حدود 125 ألف سنة أي قبل انفجار طوبا بكثير في عصر كان المناخ رطبا في فترات بين العصور الجليدية. وكان مع المهاجرين (العرب- الأفارقة، المترجم) أدوات حجرية عادية.

وبدلا من اتباع الساحل، يعتقد بتراقيا بأنهم حاموا حول وديان الأنهار وسواحل البحيرات وكانوا يتقدمون وينسحبون كما تسمح البيئة بذلك على طريقة الحياة المتوحشة بدلا من حملة استيطان.

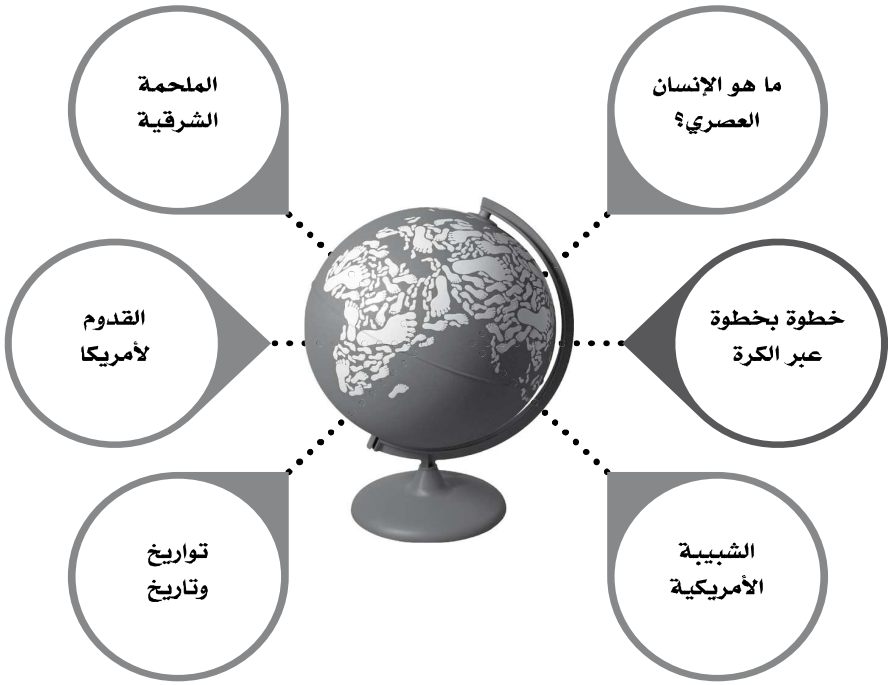

وازداد ثقة بالاكتشافات التي تمت في شبه الجزيرة العربية أي على عتبة الولوج لآسيا قبل 100 ألف سنة. «مع الزمن أزداد كل يوم أكثر ثقة برأيي»، أضاف ميشال قائلا.

يقول بتراقليا بأن معظم آسيا «هي خارطة بيضاء، أو إذا أردتم قولوا إنها لا زالت في عصر ما قبل التاريخ» قليل من المستحثات تدل على آثار إنسان قديم – الإنسان القائم، النياندرطال والدينيزوفان الذي تم اكتشافه حديثا- كانوا قد استفردوا بالقارة قبل مجيء الإنسان العصري. اعتمدت الأبحاث في أغلبها على دراسة الشفرة الوراثية (DNA) للسكان الحاليين لإعادة بناء القصة القديمة. كما اعتمد

علماء الوراثة على شفرة ميتوكندرال (mtDNA) – المورثة فقط من الأم. لتكوين عائلة من المهاجرين الأفارقة وتحديد تاريخ جذورها.

خلاصة (المترجم):

يتجه الباحثون نحو تحديد تاريخ 200 ألف سنة تقريبا محطة ظهور الإنسان العاقل لكن كل مرة يطالعنا العلماء بشيء جديد لم يبدد بعد من حيرتنا ولا زالت كل الاحتمالات واردة.

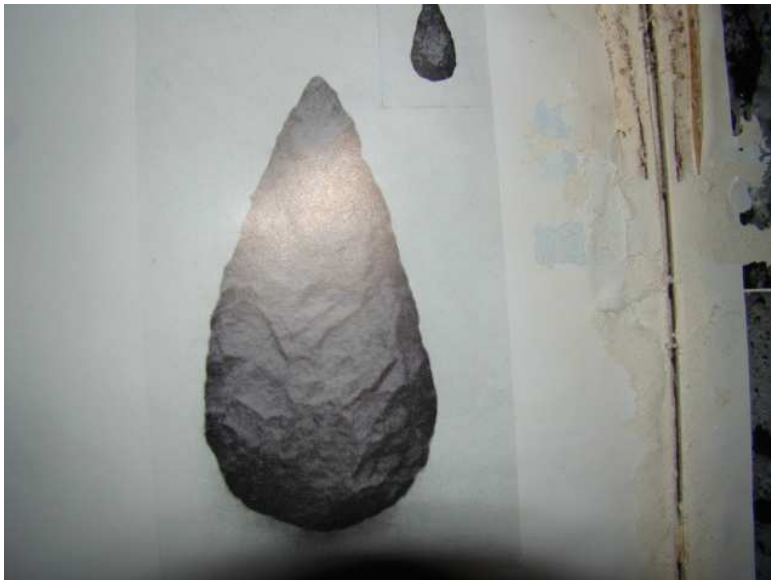

أداة آشولية «ذات الوجهين»، عصور ما قبل التاريخ، بجبل إلّيغان –منطقة التاسيلي
(in Libyca, anthropologie-préhistoire Ethnologie, Tome VIII-1960, p. 236)

رسوم حجرية فنية في العصور القديمة بمنطقة بني ميزاب.
(in Libyca, anthropologie-préhistoire Ethnologie, Tome VIII-1960, p. 300)

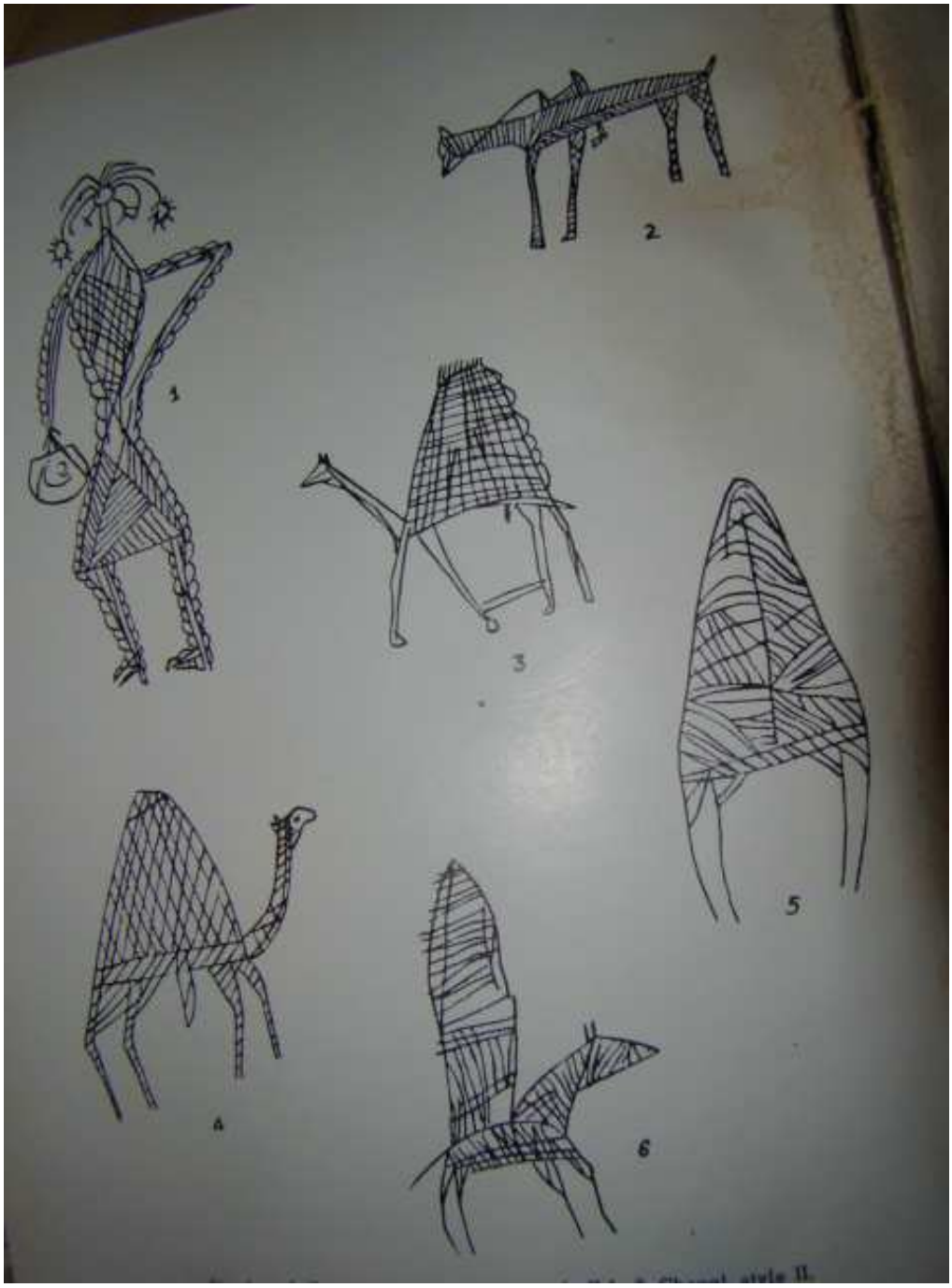

ر فنية حجرية فيسوم بمنطقة بني ميزبا رلعصوا القديمة.

(in Libyca, anthropologie-préhistoire Ethnologie, Tome VIII-1960, p. 300)

اُدب و فنون

مبتور الساقين

غي دي موبسان ترجمة: أسماء بن مالك مراجعة : محمد قماري

وقائع هذه القصة جرت معي سنة 1882، في ذلك اليوم انزويت بنفسي في عربة قطار خالية من الركاب، وأغلقت باب العربة آملا أن أخلو بنفسي، وفجأة فتح الباب وسمعت أحدهم يقول لآخر:

- انتبه يا سيدي، فنحن على مستوى ملتقى السكك، ومرتقى القطار مرتفع جدا.

فأجابه الآخر:

- لا تخف يا لوران، فسأعتمد على مقبض باب القاطرة.

ثم أطلّ رأس مغطى بقبعة مستديرة، وظهرت يدان تعلق بهما سيران من جلد تربطان أكياسا تدلتا على جانبي باب القطار؛ مرفوعتان على جسم بدين تسمع لوقع أقدامه على مرقى العربة نقرا يشبه صوت عكاز ينقر الأرض.

وحين دخل الرجل بجسمه إلى مقصورة القطار، أبصرت في أسفل سرواله المتدلي رجلا خشبية قد صبغت بالأسود ثم تبعتها الرجل الأخرى، وكانت على حال الرجل الأولى. ومن خلف هذا المسافر أطلّ رأس رجل، راح يسأله:

- سيدي، هل أنت مرتاح؟

- نعم يا ولدي

- إذن، خذ هذه صناديقك وهذه عكازتيك، وهنا أبصرت خادما يصعد تبدو من سحنته أنه من قدماء الجنود، تقدم حاملا بين ذراعيه مجموعة من الأشياء ملفوفة بأوراق، بعضها أسود وبعضها أصفر، حتى إذا وضعها فوق مقعد الرجل في رف القطار الواحدة بجانب الأخرى، قال لسيده:

- هذا كل شيء سيدي، العلب الخمس هنا: الحلوى، والدمية، والطبل، والبندقية، وفطيرة الكبد الدسمة.

- أحسنت يا ولدي.

- سفرا ممتعًا، سيدي.

- شكرا (يا لوران)، وأنا أتمنى لك موفور الصحة.

غادر الخادم القطار بعد أن أغلق باب عربة القطار، وألقيت نظرة على جاري.

بدا لي في سن الخامسة والثلاثين،على الرغم من أن أغلب شعر رأسه اشتعل شيبًا، وكان حسن المظهر، غليظ الشارب، قوي البنية وافر اللحم، يبدو بدينا لكنها بدانة الرجال الناشطين الشداد، أعاقه عطبه على الحركة.

مسح جبينه، وتنهد، ورمقني بنظرة ثاقبة، ثم قال:

- سيدي، هل يزعجك دخان السجائر؟
- وأجبته: لا، سيدي.

تلك العينان، وذلك الصوت، وهذا الوجه، كلها ليست غريبة عني، لكن أين.. ومتى؟ مؤكداً أني قابلت هذا الشاب، تحادثت معه، صافحت يده يدي؛ ولكن من زمن، بعيد جدا، ذكرى تلاشت في ضباب كثيف، وكأن الفكر يحاول أن يتلمس ذكريات الماضي ويتبعها، كأنها الأطياف العابرة الهاربة.

هو أيضًا، كان يتفرس في وجهي بنظره، نظرة قوية ثاقبة، كحال رجل تذكر بعض الشيء لكن ليس على وجه اليقين.

كانت أعيننا تتحرج من هذا الإلحاح في تبادل النظرات، فنغض الطرف، ثم تعود الأعين بعد ثوان لتعاود الالتقاء من جديد؛ تنجذب بإلحاح مبهم وقوي من الذاكرة وهي تحاول استرجاع الذكريات، والتقت أعيننا من جديد، وابتدرته أنا قائلا:

- يا الله، سيدي: عوض أن نمضي ساعة، يسترق فيها كل منا النظر من صاحبه، ألا يحسن بنا أن نحاول معًا البحث عن مكان تعارفنا؟

فأجاب بلطف:

- أنت محق يا سيدي.

وهنا عرفته بنفسي:

- اسمي (هنري بونكلير)، قاض.

تردد بعض الوقت، ثم بنظرة وبنبرة صوت تائهتين، كتلك التي ترافق حالات الشدّ الذهني القوية:

- آه.. تذكرتك تمامًا، فقد صادفتك عند (البوانسل)، في ذلك الزمن، قبل الحرب كان ذلك منذ اثني عشر سنة خلت...

- نعم يا سيدي... آه... آه... وإذا فأنت الملازم (ريفاليير)؟

- نعم...بل لقد أصبحت الرائد (ريفاليير)، قبل أن تبتر ساقي الاثنين معًا، بفعل انفجار قنبلة.

وهنا نظر كل منا في وجه صاحبه من جديد، الآن وقد تعرف كل منا إلى صاحبه.

أتذكر تمامًا أني التقيت هذا الشاب الجميل الرشيق وهو يقود حلقة الرقص بلباقة عالية، أيامها كنا نطلق عليه اسم (قاهر الموت)، لكن وراء هذه الصورة التي أتذكرها جيدا، ما زالت تطفو بعض الأمور التي يلفها النسيان، قصة كنت أعرفها ونسيتها، ولكني لم أنس أنها قصة جذابة الحوادث مغرية على الرغم من قصرها...

لأن الحب لعب على مسرحها؛ أجد وقعها الخاص في عمق ذاكرتي، لاشيء غير ذلك، تماما كذلك الإحساس الذي يتسلل إلى أنف كلب وهو يتعقب آثار الأرنب على الأرض.

ثم أخذت ظلال النسيان تنحسر عن ذاكراتي شيئًا فشيئًا؛ والظلال يمحوها الضوء، وتطالعني صورة وجه فتاة، وإذا باسمها يرن في سمعي ويجري على لساني: الآنسة (ماندال).. إني أتذكر كل شيء الآن..

والحقيقة أنها كانت قصة حب عادية؛ تلك الفتاة كانت تحب هذا الشاب، حين التقيت به، وكان الناس يتحدثون عن زواجهما المنتظر القريب، لقد كان الفرح والسعادة الشديدة بادية عليه.

وهنا صوبت بصري إلى تلك الصناديق التي أحضرها مرافق رفيقي، وكانت تهتز وتضطرب مع حركة القطار، وقفز إلى ذهني صوت الخادم، كأنه أتم حديثه الآن، وهو يقول لسيده:

- هذا كل شيء سيدي، العلب الخمس هنا: الحلوى، والدمية، والطبل، والبندقية، وفطيرة الكبد الدسمة.

وفي لمح البصر، تألفت ومرت في خاطري رواية، تشبه ما كنت قرأته من قبل من روايات، في القصص أو رأيته في المسارح؛ وذلك إما أن يتزوج الخطيب ذو العاهة خطيبته السليمة أو لا. وإذن فإن هذا الضابط المبتور الساقين قد وجد خطيبته بعد الحرب فوهبت نفسها له رغم مصيبته بساقيه. تمثلت كل هذا جيدا في بساطة، ثم عرض لي فجأة افتراض آخر أشبه بالحق وأقرب إلى الواقع المنتظر أيكون الرجل قد تزوج من فتاته قبل الحرب وقبل الفاجعة الأليمة بساقيه؟ أتكون الصبية المسكينة احتسبت الله في مصيبتها فيه وخضعت لمشيئة القدر القاسي، فهي تستقبل مكرهة هذا الكسيح الذي غادرها ملء العين ملاحة وسلامة قبل الحرب، وآب إليها بساقين خشبيتين وجسم ناقص لا يتحرك إلا على عكازين. أتراه سعيدا أو متألما ؟! وقامت في نفسي رغبة لا تقاوم في الاستعلام عن قصة زواجه والاستفسار على الأقل عن النقطة المهمة التي أستطيع أن أبصر على ضوئها ما يود هو إخفاءه عني أو ما لا يمكنه الإفضاء به. ورحت أكلمه بأحاديث شتى، بينما عيناي مثبتتان على الصرر الملفوفة التي وضعها خادمه على رف القطار ثم استنتجت من محتوياتها أن له امرأة وطفلين: أما السكر والملبس فهي لامرأته، وأما الدمية فلطفلته، وأما الطبل

والبندقية فلطفله، وأما الفطيرة الدسمة فله هو؛ وفجأة قلت له:

- لعلك أب لعائلة يا سيدي.
- كلا

فشعرت بشيء من الخجل والارتباك بسبب هذا السؤال، كأني ارتكبت ما لا يتفق وحسن العشرة. لهذا عقبت:

- معذرة يا سيدي لقد ظننت ذلك مما سبق إلى سمعي من قول خادمك وإشارته إلى هذه اللعب. وأنت تعلم أن المرء لا يملك أذنه حتى ولو لم يتعمد السمع. فافتر ثغره عن بسمة راضية ثم قال:

- وما قولك أني لست متزوجًا؟

وهنا بدت عليّ دلائل الاستذكار والتأمل؛ ثم قلت فجأة:

- أوه! إن ما تقوله الحق، فحين تعرفت بك كنت عاقدًا خطبتك على الآنسة ماندال فيما أظن؟

- نعم يا سيدي إن ذاكرتك جيدة جدا. فاجترأت وتابعت:

وأذكر أيضًا أني سمعت أن الآنسة ماندال خطيبتك تزوجت السيد... السيد.. فلفظ الضابط في سكون هذا الاسم:

- السيد فلوريل، أليس كذلك؟

- بلى هو بعينه؛ وأذكر أيضًا أني سمعت في ذلك الحين قصة فاجعتك، ونظرت إليه من جانب عيني فإذا بالدم يتدفق في وجهه أحمر قانيا، ثم إذا به يجيبني في حمية ونشاط مثل من يدافع عن قضية ضاعت له سابقا وفرط في حقه فيها وهو يريد الآن تبرير موقفه فقال:

- لقد كان من أعظم الخطأ بل والألم أن يذكروا أمامي اسم خطيبتي (ماندال) بعد إذ رجعت من الحرب بدون ساقين، ويا للأسف، لم يكن بوسعي أن أقبل دون ألم وتقريع ضمير أن تصبح (ماندال) امرأتي: أترى ذلك يكون ممكنا؟

حين يتزوج المرء يا صديقي لا يفعل ذلك كي يتباهى على الناس بامرأة جميلة فاتنة! إنما يفعل كي يعيش بجانبها ويتصل بها طوال الأيام والساعات والدقائق والثواني. فإذا كان الزوج مثلي كتلة شوهاء مبتورة فإنه بزواجه من فتاة ريانة الشباب يكون قد حكم عليها بالألم الممض وقسرها على حياته الناقصة المحطمة حتى الموت.

أنا أفهم وأقدر بل وأعجب بجميع التضحيات، ولكن حين يكون لها حدود تنتهي إليها، لهذا فأنا أستنكر من نفسي أن تحرم فتاة جميلة نفسها لأجلي من كل ما تهفو إليه جوارحها ونفسها من سعادة وملاذ وأحلام للصبا وللجسد أيضا، كل ذلك كي يقال عنها إنها عفيفة ظريفة كريمة، ثم كيف أطلب منها هذا وأنا نفسي حين أسمع على أرض الدار وقع عكازي وأنا أمشي وأخجل، أنا نفسي حين أسمع هذا الصوت الذي يشبه وقع أقدام البغال يجيش في نفسي الحنق فأود خنق خادمي، وهل تظن أنه يمكن أن يقبل الزوج من امرأة أن تتسامح في شيء هو نفسه لا يغتفره لنفسه، ثم أتعتقد وتتصور أن ساقي الخشبيتين هاتين جميلتان في النظر فاتنتان للعين؟ وسكَتَ وسكَتُ، وما عساي أن أجيبه؟ إن كلامه الصدق فهل بوسعي أن ألومه أو أخطئه، ثم سألته فجأة:

- هل لمدام فلوريل خطيبتك المتزوجة أولاد؟!

- نعم، طفلة وصبيان، ولهؤلاء الأطفال ما احمل من لعب في هذه الصرر كهدية، إنها وزوجها طيبان، وكان القطار في هذا الوقت يصعد ملتقى خطوط (سان جرمان) ثم يمضي تحت الأنفاق المتعاقبة في المحطة، ثم يقف، وعزمت على تقديم ذراعي تكأة للضابط الكسيح كي يستعين عليها في النزول من القطار لولا أن يدين امتدتا من باب القطار المغلق لمساعدته.

- نهارك سعيد يا ريفالييز، فأجاب صاحبي الضابط

- يسعد نهارك (يا فلوريل)، وقد كان خلف الرجل امرأته الجميلة تبتسم له أيضًا وهي ترسل التحيات الحارة المستورة بقفازين، وبجانبها طفلة صغيرة كانت تطفر من الفرح والابتهاج بلقاء صاحبي الضابط وبجانبها الآخر صبيان صغيران كانا يتناولان بشغف ونهم الطبل والبندقية وقد برزا من طرفي الصرر التي تسلمها أبوهما فلوريل.

وحين هبط الضابط إلى إفريز المحطة أسرع إليه الأطفال فعانقوه في محبة وألفة وشوق؛ ثم اتخذت العائلة طريقها إلى المنزل، وفي أثناء الطريق أخذت الطفلة تسند بكفها اللينة الغضة مسند عكاز الضابط الكسيح وقد فاض وجهها بماء الابتهاج والطيبة والمحبة البريئة.

Guy DE MAUPASSANT: L'Invalide

ترجمة الشعر بين المبنى والمعنى
شعر محمد إقبال نموذجًا

الدكتور: محمد قماري

في بحثه الموسوم بـ«الترجمة الأدبية بين إشكالية الدال الثابت والمدلول العائم» يذهب الدكتور نورالدين صدار إلى القول بأن: «الترجمة الأدبية من أصعب أنواع الترجمات، لأنها تعتمد بصورة كبيرة على التذوق والتماهي مع خيال المبدع لتكون صورة الترجمة والمادة الأدبية إبداعية غير حرفية؛ ومن هذا الباب تصبح الترجمة الأدبية علما وفنا ومهارة. ذلك أن الترجمة الحرفية لا تعطي النص المترجم حقه أو لونه الفني ومدى رفعته وتأثيره في لغته الأصلية؛ فالمدلول في النص الأدبي عائم لا يستقر على حال ولا يشير إليه الدال الحرفي» [1].

والشعر بأوزانه وموسيقاه يتخطى الدال والمدلول في مستوى البنى السطحية للغة، ويضع المترجم، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ينفذ إلى أن يحفر في مستويات التكثيف اللّغوي (المبنى) ويتوّسل بالمجاز والبلاغة لنقل (المعنى) في أرقى صوره، لذلك يعد الشعر أرقى أنواع التعبير الأدبي في كل اللغات على الإطلاق؛ ونقله عن طريق الترجمة من لغة إلى أخرى لا يتيسر لكل مغامر.

حالة اسمها : إقبال

ما سبق وأن صدرنا به هذا الموضوع، إنمّا كان عن الشعر بحسبانه إبداعًا فنًيا ؛ وزاوية النظر تختلف، بطبيعة الحال، إذا تعلق الأمر بمبدع شاعر تنوعت وتعددت مشاربه المعرفية، وهو لا محالة يُضمِّن هذه المعارف في ثنايا شعره.

إن الحديث يجري، منذ عقود، في العالم العربي عن (الفيلسوف) محمّد إقبال، وهو وصف يتلقاه الناس بألسنتهم، ويتردد بينهم بحسبانه صفة أو ملحقاً باسم هذا العَلم؛ دون الإشارة في الغالب إلى هذه (الفلسفة) أو مكامن القوة فيها، ولا يكاد يسلم من هذا الإطلاق في الوصف و(التهويم) في التعظيم، المنتسبون للعلم والثقافة ناهيك عن عامة المثقفين ونَقَلَة الأخبار.

---

[1]- أعمال الملتقى الثاني الدولي حول السميائيات والتعليمية والاتصال، جامعة يحي فارس، المدية، ص 100، يومي 27 و28 نوفمبر 2011.

وهم معذورون في ذلك!

ذلك أن تقصي أثر محمّد إقبال لا يجدي فيه إتباع مسلكٍ معرفيٍ واحدٍ، فالحديث عنه وعن تراثه الفكري والأدبي، يحتاج إلى التسلح بأدوات أولها المعرفةُ باللغات الأردية والفارسية والإنكليزية؛ وإلى أدوات معرفية في الفلسفة والشعر والسياسة والعقيدة، لأن الساحات التي خاض فيها إقبال معاركه وزرع فيها إنتاجه، وتبدت عبقريته من خلالها هي كل تلك الساحات.

فـ(محمّد إقبال) الذي ولد في مدينة سيالكوت (الباكستان) في التاسع من شهر نوفمبر عام 1877، وتوفي في الحادي عشر من شهر أفريل عام 1938، بدأ تعليمه الأول في محل ولادته، حيث درس مبادئ العلوم الإسلامية واللغتين الفارسية والعربية، التحق بكلية الحكومة في لاهور عام 1895، ونال منها الإجازة في الفلسفة ثم شهادة الماجستير عام 1897 في الفلسفة الإسلامية؛ وتتلمذ في هذه الكلية على المستشرق توماس أرنولد؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى بريطانيا، وانتسب طالبًا في جامعة كامبردج، ونال منها إجازة في الفلسفة عن موضوع: (ازدهار علم ما وراء الطبيعة في بلاد فارس)؛ وتابع دراسته بجامعة ميونيخ في ألمانيا، ونال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة عن الموضوع السابق نفسه.

درس إقبال الحقوق وحصل على شهادة المحاماة في جامعة لندن، وأجاد الإنكليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والأوردية، وعرف العربية والسنسكريتية، وباللّغة الأوردية والفارسية نظم العديد من دواوين الشعر.

إن نظرة في مجمل ما كُتب عن الدكتور محمد إقبال في الأدبيات العربية، مجلات كانت أم كتبًا أم محاضرات أم كلمات عابرة في حق هذا الرجل الفذ الذي ذاع صيته في الشرق والغرب؛ لتكتشف «التباين بين الصورة التي كان عليها الرجل في الواقع والصورة التي رأيتها مجسدة في الأدبيات العربية. وكنت مؤمنًا أن هذا الفيلسوف الشاعر أكبر بكثير من الملامح التي رسمتها له الأدبيات العربية... سواء أكانت هذه الجوانب تتعلق بحياته أم كانت تتعلق بمؤلفاته وفلسفته وشعره» [2].

بيام مشرق (رسالة الشرق)

أتى العرب على ترجمة مجمل الأدب الكلاسيكي الفرنسي، فأسماء أعلام ذلك الأدب (بودلير، وموليير، وهيغو، وموبسان...) دخلت المكتبة العربيّة، كما أتوا على نصيب وافر من ترجمة الأدب الانجليزي والأمريكي، لكن (سحر الشرق) الماثل في آدابه وثقافته ظل نصيبه من النقل إلى العربية متواضعًا، إذا

---

[2]- سمر روحي الفيصل، صورة الدكتور محمد إقبال في الأدبيات العربية، مجلة التراث العربي العدد 27- 28، أفريل 1987، اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا.

استثنينا بعض ما تم نقله من أدب الأديب البنغالي (روبندرونات طاغور) أو ما كان مع رباعيات عمر الخيام.

ولعل الدكتور عبدالوهاب عزام (1894 -1959) من أوائل من انتبه إلى عظمة وتميّز محمّد إقبال الذي يقول في مقدمة كتبها سنة 1951 غداة ترجمته لديوان (پيام مشرق): «سمعت أول ما سمعت بمحمد إقبال وأنا في لندن، قبل عشرين عامًا، سمعت كلامًا مبهمًا موجزًا عن شاعر صوفي في الهند اسمه إقبال، لم يُعرفني هذا الكلام بإقبال، ولم يشوِّقْني كثيرًا إلى معرفته.

وأذكر أن شابًّا من مسلمي الهند تكلم يومًا عن إقبال في مدرسة الدراسات الشرقية من لندن، ولكن لهجته وعجلته في الكلام، وغموض الموضوع، حالت دون أن نعرف إقبالاًمن كلامه»، ويضيف عزام: «وكان محمد عاكف (رحمه لله) الشاعر الكبير، الذي يسمى في تركيا شاعر الإسلام، صديقًا لي وكنا نقيم في مدينة حلوان، فنلتقي بين يوم وآخر، ولا يمر أسبوع دون اللقاء مرة أو أكثر.

وكنا حين نلتقي نتذاكر الآداب العربيَّة والفارسية والتركية، وأقرأ عليه شعره أحيانًا.

وذات يوم أراني ديوانًا اسمه (پيام مشرق) للشاعر محمد إقبال، فقرأنا معًا فكان أول شعر لإقبال قرأت، راقني الشعر وشاقني إلى الاستزادة منه؛ إذ رأيت ضربًا من الشعر عجيبًا، يُذَكِّر بحافظ الشيرازي وشعراء آخرين من الصوفية، ولكن فيه ما لم نعهد في شعر هؤلاء من فلسفة يصورها الشعر نورًا وناراً في عين القارئ وقلبه [3]».

بيام مشرق أو (رسالة الشرق) إذن هو أول لقاء بين شاعر فيلسوف وأديب واسع الاطلاع والثقافة، رأى في الديوان الذي قرأه «فلسفة يصورها الشعر نورًا وناراً في عين القارئ وقلبه».

وشرع الدكتور عزام في ترجمة مقطوعات من شعر إقبال، ونشرت على صفحات مجلة (الرسالة) التي أسسها الأديب أحمد حسن الزيات، وكانت المجلة تدخل سنتها الثالثة من عمرها.

وجاء المقال الأول في العدد 80 بتاريخ 14 جانفي 1935، وحفل بترجمة مقطوعات من ديوان (رسالة الشرق)، وأتبعه بمقطوعات من ديوان (رموز بيخودي) في العدد 85 بتاريخ 18 فيفري 1935؛ وحفل العددان 87 و88 من (الرسالة) بترجمة مقطوعات من رباعيات إقبال (شقائق الطور) ونشرت بتاريخ 4 مارس و11 مارس 1935.

---

[3]- الدكتور عبدالوهاب عزام، مقدمة ترجمته لديوان بيرم مشرق، ص 8، كلمات للترجمة والنشر، 2013، القاهرة، مصر.

آثر الدكتور عزام تقديم شعر إقبال منثورًا مع علمه أن نثر الشعر ما كان محل اهتمام القارئ العربي، وأن «جرت العادة لدى غالبية المترجمين على تقديم الشعر الأجنبي منثورًا بعد خلعه من ثوبه الفني؛ والشعر –كما هو معروف– عصي على الترجمة، يؤثر في القارئ بلغته، فإذا نقل إلى لغة أخرى فقد معظم أثره، وقد لاحظ المرء في أثناء قراءة شعر إقبال أن هناك من سرد معنى الأبيات الشعرية»[4].

ونقرأ من العدد 80 من مجلة الرسالة مقالاً للدكتور عزام نقل فيه بعض معاني إقبال تحت عنوان (من ديوان رسالة المشرق):

- **الملك للّه**

أضرم طارق النار في سفائنه على ساحل الأندلس، فقيل له هذا أفَنٌ ينكره العقل! كيف نرجع إلى الديار، وقد شط المزار؟ إن الشريعة لا تجيز ترك الوسائل! فضحك وأصلت حُسامه وقال: كل مُلك ملكنا، لأنه مُلك ربنا

- **الحياة**

سألت حكيمًا: ما الحياة؟ قال: حمر أمرها أطيبها. قلت: إنها دودة تنشأ من الطين. قال: بل وليدة النار السمندل. قلت: إن الشر مضمر في فطرتها. قال: هي شر كلها إذا لم تعرف خيرها.

قلت: إن غرامها بالمسير لم يبلغها منزلاً. قال إن منزلها في هذا الغرام نفسه. قلت: إنها ترابية ومرجعها التراب. قال: إن الحبة إذا شقت التراب فهي وردة ناضرة.

- **الشقيقة**

أنا الشعلة التي أضرمت في أحضان العشب من فجر الأزل، قبل أن يٌخلق البلبل والفراس، أنا أعظم من الشيء، ولكني منبثة في كل ذرة، وقد خلقت السماء شرارها من حرقتي: سقطت على صدر المرج لحظة فنبع من ترابي غصن ناضر فاستلب ناري وقال: تلبثي في أحضاني قليلاً، ولكن قلبي السليب لم يقر قراره، فاضطربت في ضيف الغصن حتى تجلى جوهري باللون والرائحة، فنثر الندى في طريقي جواهر متلألئة، وضحك لي الصبح، وأطافت بي ريح الصبا، وسمع البل من الورد أن ناري قد سُلبت، فتأوه وقال: لقد أسترت ثوب الحياة غالبًا، هأنذا أفتح صدري لضوء الشمس وأحتمل منتها، فمن لي بأن تعود ناري مشتعلة في صدري؟

[4]- سمر روحي الفيصل، مرجع سابق.

هذا نموذج لانطباع سريع من شعر إقبال، سيورق ويزهر بعد سنوات عندما قام عبدالوهاب عزام بنقل الديوان شعرا، ومنه نقرأ مقطوعة سبق أن أثبتناها في ما سبق مترجمة نثرا:

- **الملك للّه**

طارق أحرق السفين فقالوا : ليس هذا من فعله برشيد.
غرباء ومن لنا برجوعٍ ذا خطار في الشرع غير سديد
أمسك السيف طارقٌ في ابتسامٍ قائلاً واثقًا بعزم شديد:
مُلكنا اليوم خالصا كل ملك إنه ملك ربنا المعبود

في الترجمة النثرية، احتاج المترجم إلى توضيح المقصود بطارق، فأضاف كلمة «الأندلس»، لكن ضرورة الوزن والقافية جعلت المترجم يتجاوز هذا التوضيح، لأن الأصل في الشعر التكثيف، والأصل في الشعر الجرس والموسيقى التي تنساب مع سياق الجملة الشعرية.

مضى الدكتور عزام مع شاعره يقتفي آثاره الشعرية، ومن الدواوين التي ترجمها: بيام مشرق (رسالة الشرق) 1951 – ضرب كليم (شريعة موسى) 1937- أسرار خودي (أسرار الذات)؟

وفي الختام هذا عرض سريع لتجربة في الترجمة الأدبيّة لنصوص شعرية، نصوص فيها حمولة ثقافة رجل موسوعي، ضرب في مناحي المعرفة وعلا جبالها وخبر أحراشها ووهادها، ولعل هذا ما يضع المترجم في حرج نقل المعنى والحفاظ على جماليات المبنى.

هناك آخرون غامروا بترجمة شعر إقبال كالعلامة الهندي المرحوم أبي الحسن علي الندوي (روائع إقبال)، والعلامة الباكستاني محمد حسن الأعظمي الذي ترجم إلى العربية نثرا قصيدتي إقبال «شكوى» و«جواب شكوى» (ضمن قصائد أخرى لإقبال)، وغير هؤلاء كثير.

غير أن ما يميز الدكتور عزام وبعضا من المترجمين الآخرين، أنهم قاموا بنظم تلك القصائد شعرا وزن من الأوزان العربية. «أما أوزان الشعر التي نظم فيها إقبال مثل «مثنوي» و«قصيدة» و«رباعي» و«قطعة» و«مسدس» فلم تتح للقارئ العربي فرصة الاطلاع عليها، مما حرمه من أداة التعبير التي استخدمها إقبال وبزّ فيها أقرانه» [5].

[5]- . المرجع السابق.

- **حديث الروح**

هناك قصيدة من قصائد إقبال طارت شهرتها بين العرب وهي قصيدة «حديث الروح» التي غنتها أم كلثوم، ولهذه القصيدة وترجمتها قصة نحب أن نعرضها.

كان العلامة الأعظمي كما أشرنا فيما سبق، قد ترجم إلى العربية نثرا بعض قصائد إقبال ومنها قصيدتا «شكوى» و«جواب شكوى» (ضمن قصائد أخرى لإقبال)، وقدمهما للشاعر المصري الصاوي علي شعلان الذي أعاد كتابتهما نظما راقيا.

وأعجبت أم كلثوم بالكلمات، فاختارت أبياتا من القصيدتين المذكورتين جعلتها كلمات لأغنيتها التي سمتها: (حديث الروح).

كتب إقبال قصيدة «شكوى» مخاطبا الله عز وجل، أما جواب شكوى فقد تخيل فيها الشاعر صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوى.

وقصيدة «شكوى» قصيدة طويلة في 120 بيتًا، ولم تلتزم أم كلثوم في اختيارها للأبيات بالترتيب في القصيدتين، وتبدأ بالبيت:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى ❖❖❖ ونجوم ليلي حسدي أم عودي

ولكن أغنية حديث الروح تبدأ بأول بيت من جواب شكوى وهو:

كلام الروح للأرواح يسري ❖❖❖ وتدركه القلوب بلا عناء

ومما يلاحظ أنها استبدلت في الأغنية كلمة «كلام» بكلمة «حديث» ذلك أن كلمة «حديث» في موضع الغناء واللحن أكثر شاعرية، أما قصيدة «جواب شكوى» فهي أيضًا طويلة بل أكثر طولاً من الشكوى فهي تقع في 140 بيتًا وأم كلثوم تختار لأغنيتها 26 بيتا من القصيدتين معا (أي عشرة في المئة من القصيدتين) فتبدأ بتسعة أبيات من جواب شكوى ومطلعها:

حديثُ الروحِ للأرواحِ يسري ❖❖❖ وتدركهُ القلوبُ بلا عناءِ
هتفتُ بهِ فطارَ بلا جناحٍ ❖❖❖ وشقَ أنينهُ صدرَ الفضاءِ
ومعدِنهُ ترابيٌ ولكن ❖❖❖ جرتْ في لفظهِ لغةُ السماءِ
لقد فاضتْ دموعُ العشقِ مني ❖❖❖ حديثًا كان علويَ النداءِ
فحلقَ في رُبَى الأفلاكِ حتى ❖❖❖ أهاجَ العالمَ الأعلىَ بكائي

ثم تنتقل أم كلثوم إلى الأبيات الأولى من ((شكوى)) التي جاءت في الأصل قبل جواب شكوى وهي تقول:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى ❖❖❖ ونجوم ليلى حسدي أم عوّدي

أمسيت في الماضي أعيش كأنما ❖❖❖ قطع الزمان طريق أمسي عن غدي

والطير صادحةٌ على أفنانها تبكي ❖❖❖ الربى بأنينها المتجدد

قد طال تسهيدي وطال نشيدها ❖❖❖ ومدامعي كالطّل في الغصن الندي

قيثارتي مُلِئَتْ بأناتِ الجوى ❖❖❖ لابد للمكبوت من فيضان

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي ❖❖❖ ليبين عنها منطقي ولساني

أنا ما تعديت القناعة والرضا ❖❖❖ لكنما هي قصة الأشجان

يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعش ❖❖❖ إلا لحمد علاك في الأكوان

ثم تأخذ أم كلثوم الأبيات التالية من (جواب شكوى):

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ❖❖❖ ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضي الحياة بغير دين ❖❖❖ فقد جعل الفناء لها قرينا

وفي التوحيد للهمم اتحادٌ ❖❖❖ ولن تبنوا العلا متفرقينا

وفي هذا العمل المتكامل، اجتمعت الكلمة الرفيعة الحاملة للمعاني السامية والترجمة الراقية التي توفر لها مترجم خبير بأسرار اللّغتين المنقول عنها والمنقول إليها وترجمها نثرا، ومترجم شاعر من أبناء اللغة العربية، نقلها من النثر إلى النظم شعرا عذبًا صافيًا ثم جاء صوت غنائي رخيم فصاغها نشيدا يتغنى به الناس عبر الأجيال.

متابعات

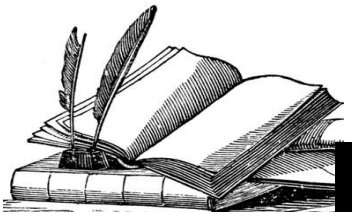

من المكتبة

البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة

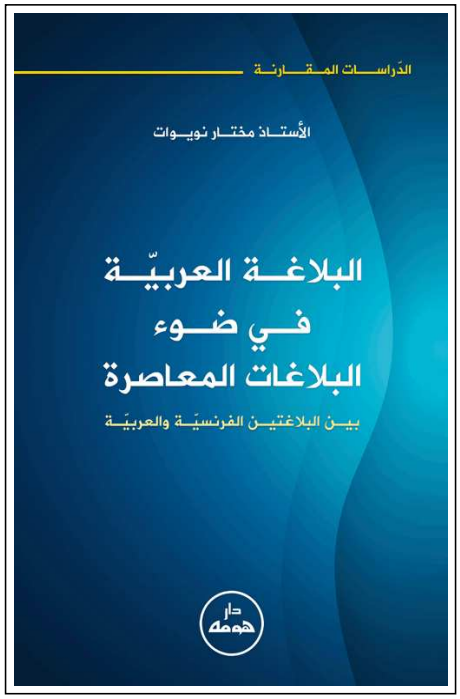

هذا عنوان كتاب ليس ككل الكتب، لأن مؤلفه ليس كأحد من المؤلفين، أما الكتاب فهو: «**البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة**»، وأما مؤلفه فهو الأستاذ الدكتور مختار نويوات، ويكفي ذكر اسم المؤلف بين المشتغلين بعلوم العربيّة ليعرف القارئ قيمة هذا السفر العظيم!

فمن الناس من يعرف لغة أو لغتين، معرفة تغنيه في النفاذ إلى المعاني القريبة أو فهم فحوى النص الذي بين يديه، ومن الناس من يؤتى ثقافة واسعة يتوسل بها في النفاذ إلى أبعد من فك حروف اللّغة ورموزها، أو ما بات يعرف بالقراءة الواعية، لكن صفوة من الناس تخطت حاجز اللّغة الظاهر وخرجت من أقطار بنيتها الظاهرة إلى إدراك الأسرار الكامنة.

هذه الكفاءة ليست موهبة، إنها بنت أصيلة لمصاحبة طويلة ودربة شاقة، وسفر متواصل عبر عصور التطور في اللّغة، وذهاب وإياب بين المعاجم والقواميس تغدو معه الألفاظ والتراكيب والبنى كائنات حيّة، يشهد الباحث لحظات ميلادها وطفولتها و(مجازها) وتفرع أغصانها.

والأستاذ مختار نويوات من هذه الصفوة، لا في لغة واحدة وهي لغته العربيّة لكن أيضا في اللّغة الفرنسية، حيث لا يمل من (تفصيص) بنيتها، يشقق تراكيبها، ويعزو مفرداتها إلى نجارها الأول.

من هنا، حق لنا القول إنَّ كتابه (البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة) ليس كسائر ما يخط الناس ويعرضون، فهو كتاب علم خط أسطره يراع (عالم). وجاء الكتاب في 590 صفحة من الحجم المتوسط، واشتمل على أربعة أقسام توزعت على فصول ومباحث، ويندرج الكتاب في مدرج الدّراسات المقارنة، خصص القسم الأول منه للمجاز، ولا يمكن تصور (لغة) من لغات البشر دون الوقوف على هذه الدحرجة العجيبة فيها من معنى أو مسمى، يتجاوز به البشر ما وضع له ابتداء إلى سلسلة لا تعرف نهايتها من توليد المعاني والمسميات، يكون الانطلاق فيه من المحسوس إلى التجريد.

وهذا المجاز لا يولّدُ اعتباطا فله ضوابط، منها: (مجازات الاشتمال) الذي خصص له الكاتب القسم الثاني من الكتاب ليرحل بنا في تفصيلاته من استعارة، ومجاز صوري عاطفا الكلام على جانب معرفي

كالتعبير بالانعكاس... ثم ينتقل في القسم الثالث إلى الحديث عن المجاز في الخطاب بعلله الظرفية والمولّدة وأثر هذا المجاز في الخطاب.

يصل بنا الكاتب في القسم الرابع إلى الصُوّر البلاغية في غير المجاز وأهمها صُوّر التركيب الدورية، فصور التركيب الجزل، ثم صوّر جديدة من صور التركيب الجزل، ليلحق بالمبحث صور الخطاب التعبيرية وصور الفكر وغيرها من أبحاث لا يتسع هذا العرض السريع لعرضها.

يبقى أن نقول: إنَّ الأستاذ نويوات قد عرض في كتابه لنماذج من ترجمة النصوص، تظهر كفاية فذة ووعيا لغويا يحتذى عند من يخوض عباب الترجمة الأدبيّة.

وهذا نموذج من ترجمته لنص شعري عن الفرنسية في صفحة 414 في باب اسشهاده في مبحث التناغم (L'Harmonie) كتبه أنطوان بيي (Antoine de PIIS 1755-1832)، يقول صاحب القصيدة:

L'R en roulant, approche et tournant à souhait,
Reproduit le bruit sourd du rapide rouet ;
Elle rend, d'un seul trait, le fracas du tonnerre,
La course d›un torrent, le cours d›une rivière ;
Et d'un ruisseau qui fuit sous les saules épars,
Elle promène en paix les tranquilles écarts.
Voyez-vous l'Éridan, la Loire, la Garonne,
L'Euphrate, la Dordogne et le Rhin et le Rhône,
D'abord avec fureur précipitant leurs flots
S'endormir sur les prés qu'ont ravagés leurs eaux?
L'R a su par degrés vous décrire leur rage...

وهذا نص الترجمة :

الرَّاء في تدحرجها تقرب وفي دورانها وفق المراد
تُرَدِّدُ صوت البكرة، الخريدَ السّريع
وبكلّ سرعة تحكي هدير الرّعد
وجريان السّيل الجارف ومجرى النهر:
وتجعل من الجعفر المنسرب بين أشجار السوحر المنتشر
نهرا هادئا يتنزه بين ضفافه المتباعدة
أترون (أنهار) الايردان، ولالْوار، ولاغارون،
والفُرات، والدّوردون، والرّين، والرُّون
أترونها في أوّل أمرها عرما سيلها
ثم راقدة في المروج التي دمرتها مِياهُهَا؟
لقد عرفت الرَّاء، وبالتدرُّج، كيف تصف لكم سُعارها.

اللغـات أصلها واحد

origine seule Une ,Langues Les

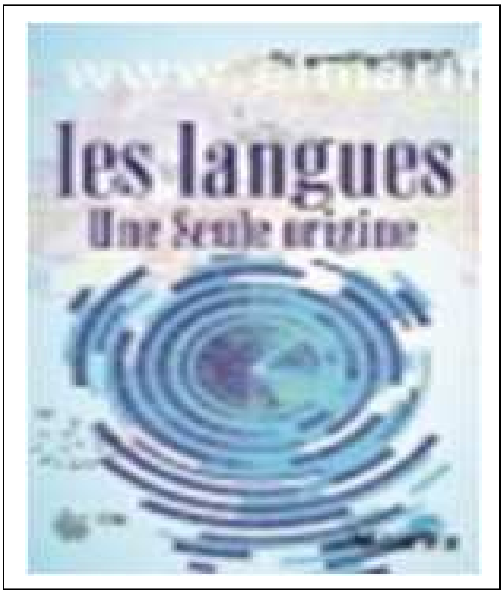

لأنَّ اللّغة ليس شأنا يعنى به أهل اختصاص معرفي دون آخر، فقد يزول العجب إذا قلنا إنمؤلف هذا الكتاب مهندس وأكاديمي في علوم الفيزياء، إنه الدكتور نورالدين كدَّار، ومن موقع دراسته الأكاديمية في العديد من البلدان الغربية لفت انتباهه التقارب اللغوي، ومن ثمَّ فكرة هذا الكتاب الذي ينطلق فيه من أصغر صائت (فونيم) لغوي ليثبت عبر رحلة امتدت في 248 صفحة من الحجم المتوسط، ومن خلال مدونات وأمثلة أن لغات البشر إنما هي لغة واحدة، انزاحت لأسباب كثيرة لتشكل هذا التنوع والثراء والتعدد اللغوي.

الكتاب منشور بالفرنسية وصدر عن دار المعرفة للطباعة والنشر.

البلاستيك : قصة حب سامة

Story Love Toxic A : PLASTIC

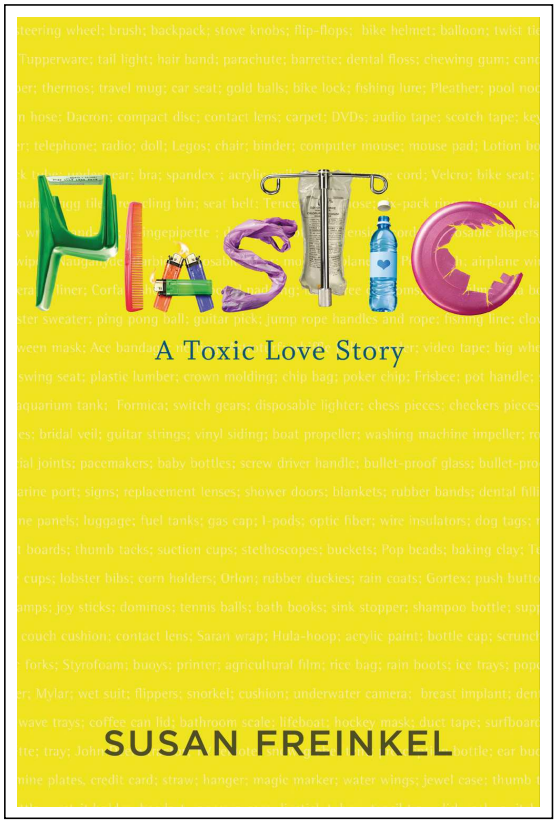

هذا عنوان كتاب صدر في الولايات المتحدة الأمريكية، تقول مؤلفته (سوزان فرينكل) في الدوافع التي حدت بها إلى نشر كتابها هذا:

«أعيش في سان فرانسيسكو، وفي هذه المقاطعة كانت مشكلة البلاستيك تشغل الناس منذ سنوات... وذات يوم، قررت أن امتحن نفسي، هل أستطيع أن لا ألمس شيئا من البلاستيك لمدة أربع وعشرين ساعة...

وبدا لي بوضوح سخافة هذه الفكرة سريعا، فحين استيقظت من نومي في اليوم الموعود، وتوجهت إلى الحمام قابلني مقعد المرحاض البلاستيكي!

وحينها رسمت خطة جديدة: أن أدون على ورقة كل ما تلمسه يداي من البلاستيك خلال اليوم، وفي نهاية اليوم كانت لدّي قائمة عليها 200 مادة، وذهلت بعد أن أدركت المدى الذي بلغه البلاستيك في حياتي دون اختيار مني...

وعجبت من تنوع الأشياء الموجودة على القائمة... من مغلفات الغذاء إلى سلال المطبخ إلى مقبض باب دخول المنزل، والذي يشبه المواد المعدنية لكني اكتشفت أنه من البلاستيك...وبالنظر إلى هذه القائمة الكبيرة من الأشياء، تيقنت أن لا دراية لي بهذا البلاستيك ولا من أين جاء، ولا بحجم المشكلات التي يحدثها، وأعتقد أنني لو طرحت هذه الأسئلة على غيري، فإن حال كثير من الناس لن يكون أحسن من حالي...

❖ ❖ ❖

بحثت عن أشياء تتيح لي دراسة بعض المواضيع في تاريخ المواد البلاستيكية؛ مثلا كنت أعرف أنني بصدد البحث عن قصة الفكرة الأولى التي دفعت إلى ظهور البلاستيك أول مرة لتعويض بعض المواد الطبيعية النادرة، ولكن لم أكن متيقنة من العثور على رأس الخيط إلا بعد زيارتي للمتحف الوطني الكبير للبلاستيك بمدينة «ليومنستير» ماساشيستس، ورأيت معرضا رائعا للمشط مصنوعة من السليلويد والتي يظهر أنها نحتت من العاج...

وفي ذات الاتجاه، سعيت إلى الكشف عن الدور الذي كان للبلاستيك في المجال الطبي، وهو دور يشبه السيف ذا الحدين، حيث أتاح البلاستيك ظهور تطور كبير في مجال الطب، في الوقت الذي أدخل مخاطر جديدة محتملة على الصحة...

فكيس الدم يحوي الأمرين معًا. لقد أحدث ثورة في طرق جمع وطريقة الاحتفاظ بالدم، لكن المواد المستعملة هي: الفنيل، ومواد كيمائية يمكن أن تحدث اضطرابات هرمونية...

للبلاستيك مواد عجيبة اكتشف وجودها، فإذا نظرت في صور عصافير بحرية ترى أن بطونها مليئة من مخلفات بلاستيكية؛ وفي المقابل نجد أن البلاستيك قد أمد الإنسان بقدرة على تجاوز المواد الطبيعية، قدرة غير مسبوقة في صناعة مواد نريدها وبقيمة زهيدة...

ومع تعاقب السنين، كانت عبقرية المكوثر أو (البوليمر) قد نجحت في تطوير صناعة مواد نحتاج إليها، سواء في سباق المراطون أم في مرمى للكرة أم في تخزين سلطة طازجة؛ ولكن للأسف مكننا البلاستيك أيضا من صناعة نسخ رديئة من تحف فنية، تذكروا المزهريات وتلك الدمى للمسيح التي تعلق في لوحات السيارات، وتلك الهدايا سريعة الكسر...

وعلى ذات النسق، فإننا مستمرون في استعمال المزيد من البلاستيك في كثير من الأمور ذات الاستعمال الواحد... التوصية مغرية ومع ذلك فإن ارتباطنا الشديد بالأشياء ذات الاستعمال الواحد تمثل مشكلة إذا علمنا أن هذه المواد صنعت من أجل أن لا تنكسر ولا تتبدد..

(Plastic: A Toxic Love Story - Susan Freinkel

مؤلفة الكتاب: كاتبة صحفية في الإعلام العلمي، ساهمت بالكتابة في العديد من العناوين الإعلامية منها Discover, Reader's Digest, Smithsonian, The New York Times, On Earth, Health, and Real Simple….)

تلقت تعليمها في جامعة ويسلاين وبمعهد الصحافة جامعة كولومبيا وبدأت حياتها صحافية بمجلة Eagle-Beacon in Wichita، سنة 2000 تفرغت للكتابة كصحفية حرة freelance writer في العديد من المجلات الطبية.

لماذا يفقد الرجل في شيخوخته شعر رأسه ويحتفظ بشعر لحيته؟

في أجسامنا هياكل صغيرة في شكل أكياس هي المسؤولة على إنتاج الشعر والزغب تسمى «الجريبات الشعرية» وتتأثر بحسب موقعها وبصورة مختلفة بالهرمون الذكري «الأندروجين»، وهو هرمون تفرزه الخصيتان من بداية البلوغ.

والجريبات الشعرية التي تقع في مؤخرة الرأس وحول الأذنين والحواجب ليست لديها استجابة للأندروجين لأنها تستطيع أن تحول بفعالية هرمون التستسترون إلى أندروجين أكثر فعالية أو ما يعرف بـ«ثنائي هيدروتستسترون» DHT.

في المقابل، فإن الجريبات الشعرية في اللحية والعانة تعمل بتأثير مباشر للأندروجين وتنتج شعرا أطول وأكثر سمكا بتحريض من هذه الهرمونات. ثم أن منطقة أعلى ومقدمة الرأس حساسة هي أيضا للأندروجين الذي يحدث ضمورا في الجريبات وقصرا في مدة نموها وتسريعا في دورة حياتها؛ ونتيجة ذلك استهلاك سريع لدورات (نموها وموتها)، وبالتالي: فإن شعر فروة الرأس والجبهة يسقط أسرع من سائر المناطق.

إن فقدان الشعر عند الرجال بعد البلوغ يسمى بالصلع الأندروجيني؛ وخلافا لمعتقد شائع فإن سبب هذه الظاهرة لا علاقة له بإفراز مفرط في الهرمون الذكري التستسترون.

ولقد أظهرت ملاحظة أشخاص تعرضوا للإخصاء قبل أو بعد البلوغ أن وجود الأندروجين عند البلوغ وحده الذي يحدد مستقبل الجريبات الشعرية وأن الآثار اللاحقة للهرمون تعد هامشية؛ إذا كان الأمر على هذا المنوال، فلنا أن نتصور علاجًا جينيًا يستهدف الجريبات التي لها حساسية للأندروجين في الرأس، يمكن الوصول إلى هذا... يتطلب معه جهدا يسل فيه الشعر.

La Recherche, n°363

تلفزة الغد ستكون أكبر حجما، وصورة أكثر نقاء:
التلفزة دومًا في تطور

لأن شاشات التلفزة تشهد منافسة تخوضها اللوحات الرقمية والهواتف الذكية فإنها لا تتوقف في اقتراح الجديد، ففي مجال الصورة لا تحدها الصورة فائقة الجودة (Ultra HD) والتي لم يمض إلا زمن يسير من ظهورها في السوق: ففي المستقبل ستكون الشاشة مزودة بـ33 مليون بيكسل ويبلغ حجمها مقدار حجم جدار قاعة استقبال كامل؛ هل تقولون إن هذا سيكون مقلقاً؟

لحسن الحظ، فإن المصنعين لديهم إجابة لكل مشكلة: فقد فكروا في شاشة قابلة للطي، واسمها المقترح سينما البيت.

Dossiers La Recherche, n°12 daté octobre 2014

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

صور فايس بوك ستخضع للتحليل

الفرنسي يان لوكين (Yann LeCun) الأستاذ بجامعة نيويورك، والمشرف على مخبر الذكاء الصناعي لشبكة التواصل الاجتماعي فايس بوك، وهو مخترع شبكة التواصل الاجتماعي المستقبل، يجيب على أسئلة:

• ما تركيبة فريق البحث في فايس بوك الغد؟

- إنه يضم عشرين فردا، ونطمح أن يضم مئة في المستقبل، ثلثي المجموعة من الباحثين والباقي مهندسون من طراز رفيع، مما يسمح بنقل تكنولوجي بمواصفات عالية، نؤكد أننا ابتداء نقوم بالبحث الأساسي في مجال الذكاء الصناعي؛ وأعلن مارك زكربارغ (Mark Zuckerberg) أن فايس بوك يستثمر مئات ملايين الدولارات في السنوات القادمة.

ونقوم بنشر أبحاثنا كبقية المخابر وهي متاحة لجميع المهتمين باستعمال طرقنا، ونشتغل في ميادين تعنى على وجه التحديد بالتواصل الاجتماعي أي: فهم النصوص، تحليل الصور والفديو والتفاعل المجتمعي.

• ما الداعي للذكاء الاصطناعي في شبكة التواصل الاجتماعي؟

- يضم الفايس بوك اليوم مليون و300 مستعمل، منهم 800 ألف يدخلون على صفحاتهم يوميًا لمدة 40 دقيقة في المتوسط؛ وكل واحد يمكن أن يشاهد 2000 عنصر لمعلومات في اليوم، يرسلها أصدقاؤهم أو

في صورة مادة إعلانية (تجارية)، ولا أحد بمقدوره يملك من الوقت لفعل ذلك، بداهة. إذن لا بد من فرز ومعرفة ما يفيد منه كل مستعمل، سواء أكان نصًا أم صورة؛ إنها المعضلة الرئيسة لفايس بوك: تسهيل التواصل بين الناس، وإبراز ما يهمهم من معلومات.

• **هل هذا كل ما يفيد منه هذا المجال، بحث الذكاء الصناعي؟**

– أي نعم، فكثير من الشركات تعمل بهذا النمط من الانتقاء، شركة أمازون (Amazon) مثلاً، إذا كنت تبحث قصد القيام بمشتريات أو تظهر لك صفحات سبق أن زرتها من قبل. فالتكنولوجيا التي تتيح هذا موجودة منذ زمن طويل لكنها غير دقيقة لأن القليل منها يعمل على التحليل الدقيق لمحتوى المعلومات، فلو أدخلت مثلا جملة «حوت أزرق» في محرك البحث «غوغل»، فإنه يعرض أمامك صورا لحوت أزرق، كان هذا إلى وقت غير بعيد؛ لأن «غوغل» لم يكن مزودًا بنظام آلي لتحليل الصور، ومنها انتقاء الصور المقصودة: وبالمجمل صورة الحوت كانت قد عرضت على آلاف الناس، ولأن هؤلاء قد ضغطوا على هذه الصورة أثناء بحثهم على صورة الحوت الأزرق، فإنه اختارها على هذا الأساس.

وفي السنوات الأخيرة، فإن تكنولوجيات «الفهم العميق» (deep learning) أتاحت للأجهزة أن تنظر في الصور وأن تتعرف إذا كان هناك فعلاً حوت أزرق في الصورة، هذا حتى في حالة ما لو أن الصورة وضعت الآن على الشابكة وأن لا أحد من المستعملين اختارها وضغط عليها.

• **ما المقصود بالفهم العميق؟**

– إنها سلسلة من التقنيات التي تتيح للأجهزة التعرف على الصوت والنصوص والصور أو تفهم النصوص، كل ذلك يتم بجهد غير مضن في جانب التصميم. ونقول «عميق» لأن هذه النظم مكونة من العديد من الطبقات المتتالية التي تحوّلُ بالتدرج المعلومة من المستوى القاعدي (بيكسيل الصورة) إلى مستوى متوسط (التطريز في الصورة) فإلى مستوى المحتوى الأعلى (هل يوجد حوت أزرق؟)

La Recherche - 06/11/2014

محركا البحث الصينيين

ضمن سعي الحكومة الصينيّة الماضي في طريق إثبات قدرة الشركات الوطنية على منافسة الأجنبية في مجال تكنولوجيا المعلومات، أطلقت الحكومة محرك البحث «تشايناسو» لتنافس به محرك غوغل رغم أنه جاء من اندماج محركي بحث سابقين فشلا أصلا في استقطاب المستخدمين.

ويديره نائب رئيس وكالة الأنباء الصينية الرسمية «شينخوا»، يحمل شعاره ألوانا تشبه إلى حد كبير ألوان شعار محرك البحث غوغل الأميركي، في إشارة واضحة إلى محاولة لجعله بديلا عنه.

ووفق موقع «تيك إن آسيا» فإن «تشاياناسو» ليس المحاولة الأولى للحكومة الصينية لصنع محرك البحث الخاص بها. وهذا المحرك تحديدا جاء نتيجة اندماج موقعي البحث «جايك» و«بانغوسو» اللذين تديرهما الدولة واندمجا معا العام الماضي.

ومن غير الواضح الأسباب التي دفعت الحكومة لاتخاذ قرار إطلاق بوابة بحث إلكترونية جديدة، خاصة وأن محركي جايك وبانغوسو فشلا في استقطاب المستخدمين لدرجة أنهما لم يدخلا ضمن قائمة أفضل ستة محركات بحث بالصين، مما يعني أنهما امتلكا أقل من 0.2٪ من حصة السوق.

وتهيمن حاليا شركات مثل «بايدو» و«كيهو» على سوق محركات البحث في الصين حيث تمتلكان معا أكثر من 80٪ من حصة السوق.

ومع أن الحكومة الصينية تعلم بأن «تشاياناسو» قد لا يحظى بالنجاح، لكن مع ذلك فإنه ينظر إليه كجزء من جهودها المستمرة لبرهنة أن بنيتها التحتية لا تحتاج إلى الاعتماد على الشركات الأجنبية، وهو أمر لطالما تحدثت عنه.

وكانت وزارة الصناعة وتكنولوجيا المعلومات انتقدت اعتماد الدولة على نظام تشغيل الأجهزة الذكية «أندرويد» - رغم أنه مفتوح المصدر؛ وذلك لأن مصدر التقنية وخطط تطويرها تسيطر عليها شركة غوغل، وأشادت بالشركات الوطنية مثل «بايدو» و«علي بابا» و«هواوي» لتطوير أنظمة التشغيل الخاصة بها .ورغم أن الشركات الصينية الناشئة وشركات تصنيع المعدات تبني تدريجيا سمعة في مجال الابتكار، فإن مبادرة تشاياناسو الحكومية ما يزال أمامها طريق طويل لتقطعه.

وأطلقت الأكاديمية الصينية للعلوم - التي يشرف عليها مجلس الدولة، وشانغهاي ليانتونغ لتقنية الإنترنت- «نظام تشغيل الصين» (سي أو إس) بهدف استخدامه في الحواسيب الشخصية والأجهزة الجوالة، وكذلك أجهزة الترفيه المنزلية.

المصدر: مواقع إخبارية الكترونية

تمّ إخـــراج وطبــع بـ:

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة-الجزائر

الهواتف: 021.68.86.49-021.68.86.48-05.42.72.40.22

البريد الإلكتروني :khaldou99_ed@yahoo.fr

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرنكلين روزفلت، ، الجزائر
الهاتف : 25/ 213 021.23.07.24 الفاكس: 213 021.23.07.07
ص.ب : 575 الجزائر - ديدوش مراد
www.csla.dz Email : ma3alim.csla@gmail.com